المركز القومي للترجمة

مصر

من ناصر إلى حرب أكتوبر

من أرشيف سفير

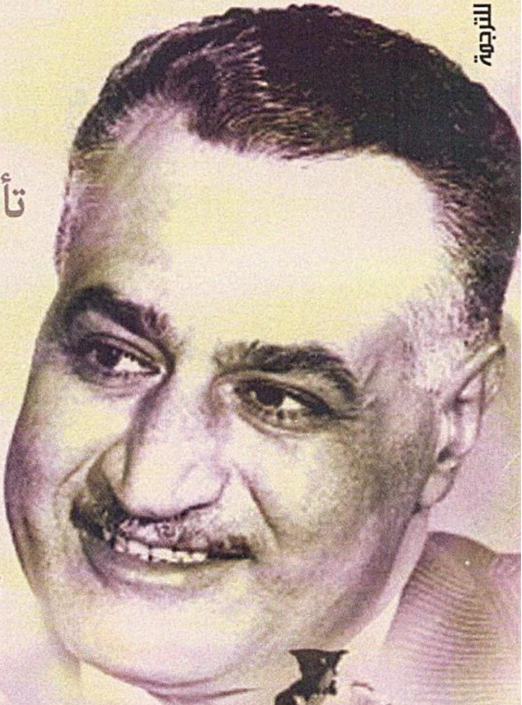

تأليف: ڤلاديمير ڤينوجرادوف

تقديم: ڤلاديمير بيلياكوف

ترجمة: أنور محمد إبراهيم

2720

مصـــــر

من ناصر إلى حرب أكتوبر

من أرشيف سفير

المركز القومى للترجمة

تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2720
- مصر.. من ناصر إلى حرب أكتوبر: من أرشيف سفير
- ڤلاديمير ڤينوجرادوف
- ڤلاديمير بيلياكوف
- أنور محمد إبراهيم
- اللغة: الروسية
- الطبعة الأولى 2016

هذه ترجمة كتاب:

ЕГИПЕТ:

ОТ НАСЕРА К ОКТЯБРЬСКОЙ ВОЙНЕ

Из архива посла

By: В. М. Виноградов

© Наследники В. М. Виноградов, 2012

All Rights Reserved.

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة.   ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤   فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org   Tel: 27354524   Fax: 27354554

مصـــــر

من ناصر إلى حرب أكتوبر
من أرشيف سفير

تـــألـــيـــف : ڤلاديمير ڤينوجرادوف
تـــقـــديم : ڤلاديمير بيليـاكـــوف
تـــرجـــمـــة : أنـــور محـمـد إبراهيـم

2016

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فينو جرادوف ، فلاديمير
مصر من ناصر إلى حرب أكتوبر: من أرشيف سفير / تأليف : فلاديمير
فينو جرادوف؛ تقديم : فلاديمير بيلياكوف ؛ ترجمة : أنور محمد إبراهيم
ط١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة : ٢٠١٦
٢٥٢ ص ، ٢٤ سم
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - جمال عبد الناصر
(١٩٥٤ - ١٩٧٠)
٢ - حرب أكتوبر ١٩٧٣ - مصر
(أ) بيلياكوف ، فلاديمير (مقدم)
(ب) إبراهيم، أنور محمد (مترجم)
(جـ) العنوان ٩٦٢/ ٠٦٣

رقم الإيداع ٢١٩٦٤ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى 978-977-92-0432-1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويـــات

تقديم ، بقلم :ڤلاديمير بيلياكوف 7

لقاءات مع ناصر 11

مصر : زمن الفتنة 21

مذكرات سفير الاتحاد السوڤيتى 21

محمد أنور السادات 93

رتوش على صورة 93

ملاحظات على هوامش كتاب محمد حسنين هيكل «الطريق إلى رمضان» 179

المقدمة

فى العشرين من أكتوبر عام ٢٠١١ احتفلت جمعية الدبلوماسيين الروس بالذكرى التسعين لميلاد واحد من أبرز أعضائها - ڤلاديمير ميخايلوڤيتش ڤينوجرادوف (٢ أغسطس ١٩٢١، ڤينيتسه - ٢١ يونيو ١٩٩٧، موسكو). وفى الكلمة التى ألقاها الابن الأكبر لڤينوجرادوف، الكسندر ڤلاديميروڤيتش، أشار إلى وجود العديد من المخطوطات فى أرشيف والده، وهى مخطوطات لم تنشر من قبل، وتتعلق على وجه الخصوص بعمله سفيرا للاتحاد السوڤيتى لدى كل من مصر وإيران.

وما إن انتهت الأمسية حتى توجهت إلى الكسندر ڤلاديميروڤيتش معبرًا له عن اهتمامى بهذه المخطوطات. وقد عَرَض علىَّ قائمة كبيرة من الأعمال ذات الأهمية، نصف دستة منها تخص مصر، حيث عمل ڤلاديمير ميخايلوڤيتش بها بدءًا من أكتوبر عام ١٩٧٠ وحتى أبريل ١٩٧٤ بوصفه سفيرا مفوضا فوق العادة للاتحاد السوڤيتى. وحيث إننى كنت شديد الاهتمام بالأمر، فقد طلبت منه أن يسمح لى بالتعرف على هذه المخطوطات وأنا على يقين أنها تُمَثِّل قيمة كبرى لقطاع عريض من الجمهور.

أطلق ڤلاديمير ڤينوجرادوف على الفترة التى عمل فيها سفيرا لدى مصر اسم "زمن الفتنة"، وكان محقا فى ذلك، فقد كان مستقبل مصر آنذاك، والتى فقدت لتوها جمال عبد الناصر، الزعيم البارز لحركة التحرر الوطنى، يكتنفه الغموض. وقد بدأ أنور السادات، الذى خلف ناصر فى منصب الرئيس، بدأ شيئا فشيئا فى تغيير سياسة البلاد. وهاهى مصر تتحول أكثر فأكثر من التعاون الوثيق مع الاتحاد السوڤيتى باتجاه التحالف مع الولايات المتحدة الأمريكية. وخلال ذلك كانت النوايا الحقيقية للرئيس تتخفى فى كثير من الأوقات وراء التأكيدات على الولاء للنهج الناصرى: كانت مصر بحاجة إلى دعم الاتحاد

السوفيتى، وقد ترك التعاون مع بلادنا فى العديد من المجالات أثره الإيجابى على الجزء الأكبر من السياسيين المصريين وعلى المصريين البسطاء. خلاصة القول، فى هذا الوقت تحديدًا تشكل اتجاه التطور القائم لمصر، واستمر، مع القليل من التعديلات، حتى أحداث يناير ٢٠١١.

فى غضون ذلك؛ تناولت المراجع الروسية فى مطلع السبعينيات الأحداث التى وقعت فى مصر بالدراسة، وإنما على نحو اتسم بالعمومية.[1] والكتاب الوحيد الذى ظهر باللغة الروسية، والذى يعود إلى هذه الفترة كان مُكرسا لحرب أكتوبر ١٩٧٣، أضف إلى ذلك أن مُؤلفَه كان مصريًا.[2] أما التراث الذى تركه ڤلاديمير ڤينوجرادوف فيمثل قيمة أكبر بالنسبة لنا.

إلى القاهرة جاء ڤلاديمير ميخايلوڤيتش يحمل على كتفيه خبرة عظيمة فى العمل الدبلوماسى – خمس سنوات سفيرا لبلاده لدى طوكيو (١٩٦٢ – ١٩٦٧)، وثلاث تلتها شغل فيها منصب نائب وزير خارجية الاتحاد السوفيتى. كان مهتما بالدرجة الأولى، بطبيعة الحال، بمشكلات العلاقات السوفيتية المصرية؛ فضلا عن أنه أولى مستقبل مصر نفسها اهتمامًا بالغًا. كان يتابع الصحافة المحلية يوميا، ويلتقى بسياسيين مصريين وأجانب بانتظام. كان يدرس الوضع "من داخله"، وهو جانب شديد الأهمية.

واصل ڤلاديمير ڤينوجرادوف عمله الدبلوماسى بنجاح بعد عودته إلى بلاده بعد أن أنهى خدمته بالقاهرة، ليصبح منذ عام ١٩٧٧ وحتى ١٩٨٢ سفيرا للاتحاد السوفيتى لدى إيران. وهناك كان شاهدا على أحداث الثورة الإسلامية التى وقعت فى عام ١٩٧٩، وهو ما يتحدث عنه فى عمله الأساسى الذى يحتفظ به فى أرشيفه، ثم، وعلى مدى سنوات، يرأس وزارة خارجية جمهورية روسيا الاتحادية.

---

(١) انظر على سبيل المثال: جمهورية مصر العربية: دليل. موسكو، ١٩٩٠، ص ٨٢– ٨٦؛ التاريخ الحديث للبلاد العربية فى أفريقيا. موسكو، ١٩٩٠، ص ٤٢ – ٥٦؛ ڤاليريا كيربيتشينكو. من أرشيف رجل مخابرات. موسكو، ١٩٩٢، ص ١٠٥ – ١٢٠؛ أفريقيا. موسوعة فى جزأين. موسكو، ٢٠١٠. الجزء الأول، ص ٨٠٩ – ٨١٠.

(٢) سعد الشاذلى، عبور قناة السويس. موسكو، ٢٠٠٨.

ثلاثة من أربعة أعمال يضمها هذا الكتاب - "لقاءات مع ناصر"، "محمد أنور السادات: رتوش على صورة" و"تعليقات على هوامش كتاب محمد حسنين هيكل (الطريق إلى رمضان)"(*) كتبها "في حينه" ڤلاديمير ڤينوجرادوف في عام ١٩٧٥ فور عودته من القاهرة، وهو ما تؤكده التواريخ المسجلة على المخطوطات. وهي تنشر هنا للمرة الأولى عن النص المكتوب بالآلة الكاتبة بتحرير المؤلف. أما فيما يتعلق بالعمل المعنون "مصر: زمن الفتنة. مذكرات سفير الاتحاد السوفيتي" فقد كُتب على الأرجح في منتصف الثمانينيات (لا توجد تواريخ على المخطوطة)، وهو ما تؤكده، على وجه الخصوص، بعض النصوص التي تم الاستشهاد بها مما كتبه عام ١٩٧٥، ثم التنويه في الخاتمة إلى أحداث مثل اتفاق كامب ديفيد ووفاة السادات. نُشرت "مذكرات سفير الاتحاد السوفيتي" للمرة الأولى في العدد الثاني عشر من مجلة "زناميا" ("الراية") عام[1] ١٩٨٨، ثم نشر جزء منها في كتيب ڤلاديمير ڤينوجرادوف "مشاهد من العمل الدبلوماسي". [2] وقد أضيف بالكامل في كتاب مذكرات ڤلاديمير ڤينوجرادوف الذي نُشر بعد وفاته. [3] وقد رأيت أنه من المناسب إضافة هذا العمل أيضا لهذا الكتاب، إذ بدونه تصبح صورة مصر في عام ١٩٧٠ ناقصة. وهو يُنشر هنا استنادا إلى نسخة مكتوبة بالآلة الكاتبة طبق الأصل من مخطوطة المؤلف.

من الجائز أن يختلف قارئ اليوم مع بعض تقديرات المؤلف. لكن أعمال ڤينوجرادوف هي وثائق زمنه، رؤية شاهد عيان لأحداث حددت لزمن طويل مصير مصر نفسها والصراع العربي الإسرائيلي أيضًا. وهنا تكمن بلا شك أهمية هذه التقديرات.

ڤلاديمير بيلياكوف

(*) Heikel, Mohamed. The Road to Ramadan, London, 1975.

(١) ڤينوجرادوف، ڤلاديمير. "مصر: زمن الفتنة. مذكرات سفير الاتحاد السوفيتي" / / مجلة "زناميا" ١٩٨٨. العدد ١٢، ص ١٧٠ - ٢٠٣.

(٢) ڤينوجرادوف ڤ. م. مشاهد من العمل الدبلوماسي. موسكو، ١٩٩٣، ص ٤٨ - ٧١ (تضمن الكتيب أيضا بعض مقاطع من مخطوطة "لقاءات مع ناصر"، ص ٤٠ - ٤٨).

(٣) ڤينوجرادوف ڤ. م. الدبلوماسية: الناس والأحداث. موسكو، ١٩٩٨، ص ٢٠١ - ٢٦٨.

لقاءات مع ناصر

رأيت ناصرًا للمرة الأولى فى ظروف استثنائية. ففى فبراير عام ١٩٧٠ كُلِّفتُ باستدعاء مراد غالب(*)، سفير مصر لدى موسكو، وقلت له: "الآن، نحن فى النصف الأول من اليوم، وأنا أبلغك بناء على طلب الرئيس ناصر أنه سيصل إلى موسكو فى زيارة سرية، وسوف نتوجه معًا من الوزارة مباشرة إلى المطار لاستقباله".

لم يبد غالب اندهاشا. كان يعلم أن ناصر لا يولى ثقة لشفرة جهازه الدبلوماسى، ولعله لم يكن يوليها أيضا لبعض العاملين فى الجهاز. وبالفعل لقد طلب ناصر أن نرتب الأمر بحيث لا يعرف بزيارته أحد من المصريين فى موسكو عدا السفير وحده. ذهبت مع السفير إلى المطار وهناك شاهدت ناصرًا للمرة الأولى.

كانت المباحثات فى موسكو ناجحة. تم تسليم مصر أسلحة جديدة للدفاع الجوى، وكان من الضرورى إرسال أطقم سوفيتية إلى مصر بصفة مؤقتة.

لم يفكر ناصر بعد عودته إلى القاهرة أن يوقف ما عُرف باسم "حرب الاستنزاف" — استمر تبادل إطلاق النيران عبر القناة، بينما راح الإسرائيليون يوجهون ضرباتهم الجوية إلى المناطق المصرية فى العمق. لم يؤد هذا الوضع إلى نتائج عملية فى تغيير عناد

(*) الدكتور مراد غالب (١٩٢٢ – ٢٠٠٧): تخرج فى كلية الطب وحصل على الدكتوراه، وعمل أستاذا للأنف والأذن والحنجرة بكلية طب الإسكندرية. بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ أقنعه جمال عبد الناصر بترك الطب والدخول فى العمل السياسى. فى عام ١٩٥٣ عُين سكرتيرًا ثالثًا للسفارة المصرية فى موسكو مرافقا للفريق عزيز المصرى، سفير مصر لدى موسكو آنذاك، وبقى بها حتى عام ١٩٥٨. أُعيد إلى موسكو عام ١٩٦١ سفيرًا وظل بهذا المنصب حتى عام ١٩٧٢. لعب دورا مهمًا فى توطيد العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى حتى لُقب بمهندس العلاقات السوفيتية. عُين وزيرا للخارجية ثم وزيرا للإعلام لفترة قصيرة. فى عام ١٩٨٨ أُنتخب رئيسا لمنظمة الشعوب الأفروآسيوية وظل فى منصبه حتى وفاته فى ١٨ ديسمبر ٢٠٠٧. (المترجم)

إسرائيل، وإنما زادت الموقف توترا. أما الضحايا من الجانب المصرى فقد راحوا، بشكل رئيسى، هباءً.

فى هذا الوقت أدار الاتحاد السوفيتى مباحثات مكثفة مع الأمريكيين بهدف إيجاد حلول سلمية للصراع Conflict فى الشرق الأوسط. وقد سارت الأمور بشكل سيئ بسبب الموقف المتعنت الذى اتخذته الولايات المتحدة الأمريكية، والذى كان مؤيدا تماما لإسرائيل. وفى الوقت نفسه، فقد أظهر العرب أيضا تطرفا تجاه الموقف المتشدد من جانب إسرائيل، فلم يوافقوا، كما بدا، على الصياغات المعقولة فى التسوية السياسية.

لقد تراكم عدد من الأسئلة: إلى أى مدى يمكن للمصريين أن يذهبوا فى سبيل تسوية الوضع، الذى ينبغى أن يقوم على انسحاب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضى العربية التى احتلتها عام ١٩٦٧؟ وهل سيتفق الجانبان على "وقف حالة الحرب" أم أنهما سيكونان على استعداد للمضى قُدما من أجل إقرار "حالة السلام"؟ ومتى يمكن لهذه الحالة أن تسود؟ كان من المفترض أن تتم جدولة خطة التسوية، بحيث يتم الانسحاب على مرحلتين. فمتى يمكن أن تحل، فرضا، حالة السلام عند انسحاب آخر جندى إسرائيلى من الأراضى المصرية، أم، ربما، بعد إتمام المرحلة الأولى من انسحاب هذه القوات؟ ثم ما الالتزامات التى ينبغى على الجانب المصرى أن يؤديها بعد الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية، عند صياغة شروط السلام؟ هل يمكن، على سبيل المثال، أن يصل إلى التعهد بعدم السماح بقيام أعمال عدائية من أراضيها ضد إسرائيل؟ وأخيرا، هل كان السؤال مطروحا بشأن مواصلة "حرب الاستنزاف"، فهذه "الحرب" كانت تعوق محاولات التسوية، بل كانت تعوق، فى الواقع، دخول وحدات الدفاع الجوى السوفيتية. فهل كان من الممكن وقفها ولو لفترة محدودة؟.

كل هذه الأسئلة وغيرها كان من المقرر مناقشتها مع ناصر، على الرغم من أن فكرتنا فى السابق كانت تتلخص فى محاولة التوصل أولا إلى اتفاق مع الأمريكيين، ثم إبلاغ ناصر بعد ذلك للحصول منه على موافقته، أو على إجراء بعض التعديلات. كان ناصر يتعامل مع كل الصياغات التى كان يتصور أن من شأنها إضعاف موقف مصر بشعور

من الحسرة والألم. كان وزير خارجيتنا (أندريه جروميكو – المؤلف) يرفض الذهاب إلى مصر، حيث إنه اضطر عدة مرات قبل ذلك للحديث مع ناصر بشأن هذه الموضوعات، ولكنها لم تسر على ما يرام. وقد رشحنى للذهاب إليه وهو ما تمت الموافقة عليه.

وهكذا، حصلت على تفويض بمحاولة الاتفاق مع ناصر على عدد من القضايا المهمة والدقيقة. وقبل أن تحلق الطائرة بى قال لى وزير خارجيتى، إنه إذا نجح التفويض ولو بنسبة ١٠٪ فإن ذلك يعتبر نجاحا. لم تكن الوصية ملهمة كثيرا ! وها نحن ننطلق إلى ناصر.

مارس عام ١٩٧٠، الزيارة الأولى لى للقاهرة. عندما وصلنا علمنا أن والد ناصر قد توفى، وأن من المنتظر أن يستقبلنا بعد يومين. وقد كرسنا هذين اليومين فى محاولة الاتفاق مقدما على جميع القضايا مع وزير الخارجية محمود رياض (*) (ما عدا قضية إمكانية وقف "حرب الاستنزاف" بطبيعة الحال). وقد تباحثنا طويلا معه، وبدا لنا أننا أقنعناه، على الرغم من أنه، كما كان يحدث دائما، كان لديه قدر لا يستهان به من الشك وعدم الثقة فى أى حل سوى الحلول العسكرية كوسيلة للتوصل إلى التسوية. وفى نهاية مباحثاتنا كان الشىء الوحيد الذى استطاع رياض أن يعدنا به هو إبلاغ فحوى حوارنا لناصر ولا شىء غير ذلك.

استقبلنا ناصر فى بيته فى هليوبوليس المقام فى منطقة عسكرية. وكان البيت من الداخل غاية فى البساطة والتواضع.

(*) محمود رياض (١٩١٧ – ١٩٩٢): مدير للإدارة العربية بوزارة الخارجية عام ١٩٥٤. سفير مصر لدى دمشق عام ١٩٥٥، واشترك مع الوفد المصرى فى توقيع الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨.

- مستشار للشؤون السياسية للرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٨ – ١٩٦٢.
- مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة ١٩٦٢.
- وزير الخارجية منذ أوائل ١٩٦٤ وحتى ١٩٧٢.
- مستشار للشؤون السياسية للرئيس أنور السادات ١٩٧٢.
- أمين عام لجامعة الدول العربية يونيو ١٩٧٢، استقال فى مارس ١٩٧٩. (المترجم)

استقبلنا ناصر بكل بشاشة وترحاب. أجلسنى إلى جواره على أريكة وقال لى إنه قرأ الملف الذى أعطاه إياه رياض بشأن المباحثات التى أجراها معى. وأعرب عن موافقته على طرحنا للقضية وأوضح أننا على حق، فإننا إذا تحدثنا عن السلام، فيجب علينا أن نتحدث عنه بصوت مسموع وليس همسا. إنه رجل سلام وليرَ الجميع ذلك، ومن ثم فليس لديه مانع أن يعتبر مصر، فى حالة إذا ما انسحبت القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة، ليست فقط فى حالة إنهاء حالة الحرب، وإنما فى "حالة سلام" مع إسرائيل. وكان يعلم أن قراره هذا لن يلقَ، على أقل تقدير، قبولا جماهيريا لدى البلاد العربية؛ فضلا عن مصر نفسها. ربما يظهر هناك رافضون، لكن الرجل كان على يقين من صحة رأيه؛ فضلا عن صلابة موقفه. وقال إن وضع مصر ومكانة رئيسها يتوقفان على قدرتى على السماح لنفسى باتخاذ حتى هذه القرارات التى قد تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى من جانب الشعب، ومن ثم لا تجد لديه قبولا.

وقال ناصر إنه بالنسبة لفرض حالة السلام فإننى أتفهم قلق الأصدقاء السوفيت جرَّاء إحساسهم برغبة مصر فى سحب البساط من تحت أقدام خصومنا المشتركين وطموحها فى التسلح ورغبتها فى تدمير إسرائيل. فى الواقع فإن البعض يمكنه أن يؤكد أن على إسرائيل ألا تسحب قواتها، لأنها لن تعرف ما سيكون عليه الوضع بعد انسحابها – سلام أم شىء ما آخر. ولكى يزول هذا الشك، فإنه على أتم استعداد للموافقة معنا على أن يحل السلام فورا بعد إنجاز المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية، بشرط ألا تستمر المرحلة الثانية من الانسحاب النهائى لفترة طويلة. عندئذ سيكون بإمكان الإسرائيليين أن يسحبوا، بشكل نهائى، قواتهم فى ظروف سلمية بالفعل، وهو تنازل كبير من جانب العرب، إذ يعنى نظريا أن مصر ستوافق على أن تكون فى حالة سلام مع إسرائيل، على الرغم من أن القوات الإسرائيلية سوف تكون موجودة لبعض الوقت على الأراضى المصرية، ولكنها ستكون فى حالة انسحاب.

أما بالنسبة لمسألة التزامات الجانبين فى حالة قيام السلام، فكان ناصر يدرك أن من الضرورى هنا حرمان العدو من استخدام ورقة عدوانية مصر، ولذلك فهو يوافق على تسجيل هذه النقطة، من بين نقاط أخرى، تفيد أن البلدين سوف لن يسمحا بأية أعمال

عدوانية من أراضى أى منهما ضد أراضى الآخر. وقال ناصر إن من المحتمل أن يهاجمنى الفلسطينيون لهذا السبب، ولكنى لا أخشى ذلك، ما دام الحديث سوف يدور حول "الشروط النهائية للسلام" والذى سيتضمن الحديث أيضا عن حل مسألة الفلسطينيين.

أعربت عن امتنانى لناصر على قراره وأخبرته أنه سوف يساعدنا فى نضالنا المقبل من أجل مصالح البلاد العربية.

بعد ذلك قلت إن لدىّ تكليفا حساسا آخر، لم يكن بإمكانى مناقشته مع محمود رياض. وهنا، عرضت عليه حججنا وتقديراتنا بشأن "حرب الاستنزاف"، وكانت هذه أصعب لحظة واجهتها. كان ناصر يربط هذه "الحرب" بالعديد من شعاراته السياسية، التى كان يستخدمها لتحقيق أهدافه السياسية سواء داخل البلاد أو خارجها.

أنصت ناصر إلى حججى جميعًا باهتمام، وكنتُ قد أعددتها مسبقًا بطبيعة الحال. وفى نهاية حديثى أخبرته أيضا بقرب وصول وحدات عسكرية سوفيتية.

استغرق ناصر فى التفكير، تريث ونظر إلىّ باهتمام مقطبا جبينه على نحو ما لبرهة لم تطل، ثم قال بعدها: "حسنا، موافق على وقف إطلاق النار على ألا يطول الأمر. فإذا لم يتخذ الإسرائيليون والأمريكيون خلال هذه الفترة خطوات عملية فى اتجاه التسوية، فسوف نبدأ الحرب من جديد. وبالطبع لا ينبغى أن يعرف الإسرائيليون والأمريكيون بما دار بيننا من حديث. يمكنك أن تقول لهم إنه إذا أوقفت إسرائيل غاراتها فى عمق مصر فإنك ترى أن مصر قد تشرع فى وقف حرب الاستنزاف. أما إذا سُئلت حول ما إذا كنت موافقا على ذلك فسوف أجيب بأننا لم نتحدث فى هذا الأمر". وهنا، انفرجت أسارير ناصر.

تنفست الصعداء (بينى وبين نفسى بالطبع)، فقد نجح التفويض بنسبة ١٠٠٪.

وطوال الحديث الذى استمر بيننا بعد ذلك راح ناصر يطور فكرة أن الصراع فى الشرق الأوسط لا يُعد صراعًا بين الدول العربية وإسرائيل، وإنما هو فى الواقع صراع بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. وذكر ناصر أن الصراع العربى الإسرائيلى يبدو كما لو كان ناشئا عن هذا الصراع الأساسى العالمى بين السوفيت وأمريكا.

كان من الممكن بالطبع أن يؤدى قبول هذه الفكرة إلى استنتاجات خاطئة على المستوى النظرى؛ فضلا عن المستوى العملى الخالص. وعلى الفور رحت أفكر لماذا طرح ناصر هذه المسألة، ترى هل طرحها لكى يختبر قناعاته الشخصية، وخاصة أن هذه المسألة التى طرحها بنفسه كانت رائجة رواجا كبيرا فى الأوساط ذات النزعة القومية فى مصر.

قلت لناصر "أننى لا أتفق معه فى أفكاره"، فنظر إلىّ دهشا، وقال: "هكذا؟"، ثم عرض علىّ أن أطرح وجهة نظرى.

قلت إن الاتحاد السوفيتى ليس شريكا، ولن يكون، فى الصراع العربى الإسرائيلى، الذى هو صراع بين قوى التحرر الوطنى، القوى التقدمية بقيادة مصر، والقوى الرجعية- إسرائيل، تدعمها الولايات المتحدة. وحيث إن الصراع العربى الإسرائيلى هو صراع بين قوى التقدم والرجعية، فليس من المستغرب أن الاتحاد السوفيتى يدعم القوى التقدمية، بينما تدعم الولايات المتحدة الأمريكية بحكم طبيعتها القوى الرجعية. استمع إلىّ ناصر بانتباه تام وحاول أن يطرح حججا إضافية، ولكنه فى النهاية وافق على ما قلته. ومازلت حتى الآن لا أعرف لماذا طرح ناصر هذه المسألة ليوافق فى النهاية. صحيح أنه قال، فى نهاية حديثنا، إن أحدا فى مصر لم يعارضه حتى الآن، ولعلنى الأول الذى فعل ذلك. قال ذلك فى سياق الدعابة، ولكن الواضح أن قوله لم يكن على سبيل المزاح.

فيما بعد كانوا يقولون لى إن ناصرا كان راضيا عما دار بيننا من حديث وجدل. كان الرجل نفسه لا يحب أن يعارضه أحد بطبيعة الحال، لكن المحيطين به، وهم يعلمون عنه ذلك، اشتطوا فى الأمر، فكانوا يردون دائما بالإيجاب وكان ذلك يثير غضبه.

بانتهاء الحوار، استدعى ناصر المصورين الذين قاموا بالتقاط عدد من الصور للذكرى، ثم رافقنى حتى مدخل البيت وودعنى بحرارة، ثم وقف معنا مرة أخرى أمام المصور. اقترح ناصر علىّ البقاء ثلاثة أيام أخرى لزيارة الأقصر وأسوان لمشاهدة آثار البلاد، حيث إنى أزور مصر للمرة الأولى، لكنى كنت مضطرا للعودة إلى موسكو ووعدته بالحضور مرة أخرى إلى القاهرة.

لم أتوقع بالطبع أن يقول لى محمد حسنين هيكل، بعد مرور ثلاث سنوات ونصف، وهو يتأمل هذه الصورة التذكارية وعليها توقيع ناصر: "لقد قال ناصر عدة مرات بعد سفرك – لا أفهم لماذا قدمت تنازلات كثيرة على هذا النحو لڤينوجرادوف". وأنا أيضا لا أعرف. لقد كانت تنازلات بالفعل، ولكنها كانت لصالح مصر نفسها.

كنت معجبا بناصر بصورة واضحة. كان ثمة قوة ما وثقة تنبعثان منه. لم يكن الأمر هنا مجرد كرم ضيافة نتيجة للتربية أو لكونه رب البيت. كنت أشعر بالحماس يمور بداخله، بل والميل إلى الشجار فى الحديث. كان على ما يبدو راغبا فى كسب مشاعر الصداقة، وربما اختبار محدثه بأن ينعطف بحدة أثناء الحديث، ثم يرى إن كان محدثه سوف يشعر بالارتباك والحيرة.

فى صيف عام ١٩٧٠، جاء ناصر إلى موسكو مرة أخرى للعلاج. وعندما استقبلته فى مطار ڤنوكوڤو أصابتنى هيئته التى تشى بالمرض بالدهشة. كان ناصر عريض المنكبين، طويل القامة، متين البنية، لكن وجهه لم يكن بسمرته، وإنما كان شاحبا بدرجة ما، معتلا، وفى عينيه ألم دفين. كان عليه أن يبتسم وأن يصافح مستقبليه. لا أدرى إن كان قد تعرف علىّ، أظن أنه لم يعرفنى. ألقى نظرة علىّ، صحيح أنه صافحنى، ابتسم، لكنه كان يبتسم للجميع...

إبان المباحثات التى جرت فى الكرملين، كان ناصر يتصرف كما لو كان بين صحبة حميمة، بحرية وفى غير تكلف. كان يستجيب ببساطة للدعابة، كان يقظا، بل كان شديد اليقظة عندما يستمع إلى ما يقوله القادة السوفيت. أما عندما كان الأمر يتعلق بمطالبه فكان يستخدم المنهج التالى: كان يعرض فى البداية الموقف الذى يمثل الأساس لأسباب هذه المطالب، وكان فى سياق ذلك يتحدث بإخلاص يأسر النفوس، فيقول على سبيل المثال: انتبهوا، ليس لدى أسرار أخفيها عنكم. بعدها يكون الوضع على النحو التالى: لقد أخبرتكم عن الوضع برمته، والآن عليكم اتخاذ القرار. كان أسلوبا مُرضيًا فى كثير من الأحيان، ولكنه كان يؤدى إلى نتائج جيدة. وفى الواقع كان هو الأسلوب الضرورى فى سياق هذه العلاقات الودية التى سادت بين الاتحاد السوفيتى ومصر فى تلك الفترة، الإخلاص الحقيقى، وليس الرغبة فى الحصول على أى شىء وبأى وسيلة.

تسنى لى أثناء المباحثات أن أرافقه فى السيارة. كان الحوار معه شيقا دائما، حيث يتيح الفرصة للتعرف عليه كإنسان. لقد سُرَّ سرورا كبيرا عندما علم أن كلينا كان لديه فى فترة الشباب نفس الولع برياضة كرة السلة. وأن لدينا فى الوقت الحالى نفس الهواية وهى التصوير السينمائى. وقد اشتكى لىّ ناصر أنه لم يعد لديه وقت كافٍ لكى يقوم بتنظيم الأفلام التى التقطها، وهى المشكلة المشتركة التى يعانى منها كل هواة التصوير السينمائى.

ذات مرة، تطرق إلى الحديث عن إذاعتنا. قال: "لماذا تفتقد إذاعتكم المهارة فى بث الأخبار الدولية؟، إنها تذيعها متأخرة وغير شيقة، والأهم أنها غير مؤثرة. كم تخسرون بسبب ذلك. إننى أحمل دائما معى راديو ترانزستور مُوجَّه دائما على الخدمة الدولية لبى بى سى. الإنجليز يذيعون الأخبار كل ساعة إيجاز ووضوح لمدة من سبع إلى عشر دقائق. ولهذا فإن العالم بأسره يستمع إليهم. لماذا لا تدبرون أمر هذه الإذاعة؟، سيكون الأمر أكثر أهمية لو استمعنا إلى موسكو بدلا من لندن".

وفى مناسبة أخرى، طرح علىّ سؤالا: قال: "لماذا لا تريدوننا أن نتحدث علنا عن المساعدات العسكرية السوفيتية لمصر؟ إن أعداءنا يعرفون ذلك، فلماذا إذن لا يعرف أصدقاؤنا وأصدقاؤكم بشأنها؟ ما دامت هذه المساعدات معروفة لأعدائنا فمن الضرورى أن يعرف أصدقاؤنا بها. أنا على يقين أننا نخسر سياسيًا بسبب ذلك".

أثناء وجوده فى موسكو تلقى ناصر نبأ مصرع خمسة طيارين من بينهم طيارون سوفيت فى مصر، أسقط الإسرائيليون طائراتهم. كان الأكثر إيلاما بالنسبة له، أن الحادث جاء نتيجة استخدام الطيارين الإسرائيليين لأبسط أشكال المناورات. بعبارة أخرى، فإن طيارينا والطيارين المصريين وقعوا فى فخ بدائى. وكانت المسؤولية فى ذلك تقع على عاتق التوجيه الأرضى. لقد شعر ناصر بالألم الشديد جرَّاء مصرع الطيارين. وكان يقول لىّ دائما إنه كان يعرفهم جميعا شخصيا، وإن مصر لا تمتلك الكثير من مثل هؤلاء الطيارين الأكفاء.

كان ناصر موجودا فى موسكو للعلاج عندما انتهى التحليق القياسي لرائدى الفضاء نيكولايف وسيفوستيانوف فى الفضاء الكونى. وقد تمت دعوة ناصر ومرافقيه إلى حفل

استقبال كبير فى قاعة جيورجيفسكى بقصر الكرملين الكبير. وفى هذا اليوم تلقيت اتصالا هاتفيا يفيد أن ناصرا يود أن ينعم على نيكولايف وسيفوستيانوف بأعلى وسام مصرى وهو "قلادة النيل"، وأن يقلدهما هذه الأوسمة أثناء الحفل. وقد طُلب منى أن أشرح هذا الموقف. وقد حاولت أن أُرتِّب هذا الأمر مع المعنيين لكنهم جميعا كانوا يقابلونه بالرفض: كانوا يزعمون أن التكريم أمر ممكن أن يكون مقبولا، ولكن لا داعى لمنح الأوسمة فى حفل يقام فى الكرملين. وقد أبلغنا ناصر بذلك، ولكنه غضب وقال إنه لن يذهب إلى حفل الكرملين لأنه مريض. وهنا اضطررنا لإرسال سفيرنا سيرجى ألكسندروفيتش فينوجرادوف إلى بارفيخو، حيث يقيم ناصر، ليخبره مباشرة أن ذهابه أمر لابد منه. وقد حضر ناصر حفل الاستقبال، والحقيقة أنه فعل ذلك بعد أن أمر ياوراه أن يحملا معهما الأوسمة على أية حال. وهكذا جاءا يحملان علبتين كبيرتين. حاولت أن أقنع القيادة المنوطة بتنظيم الحفل نفسه، شارحا لهم الموقف، إذ إن ناصرا كان يقف متأهبا فى انتظار السماح له بتقليد الأوسمة للأبطال، وقد نجحت فى ذلك، ولكنهم أخبرونى أن الأمر سيتم بطبيعة الحال، ولكن بعد برهة.

منذ هذه اللحظة لم أر ناصرا مطلقًا.

كان علىّ فقط أن أقوم بمهمة حزينة – أن أشارك فى الوفد الرسمى الذى رأسه الكسىّ كوسيجين لحضور جنازة ناصر، وفى نفس توقيت الوفاة تم تعيينى سفيرا لدى مصر.

فبراير ١٩٧٥، موسكو

مصر: زمن الفتنة

مذكرات سفير الاتحاد السوفيتى

فى حياة الدول التى حصلت على استقلالها منذ زمن غير بعيد نسبيا، هناك فترات صعود وهبوط، حركة سريعة على الطريق إلى أهداف مرسومة، ثم توقف، أو حتى خروج عن الطريق المرسوم. وأحيانا، تتحرك الأحداث إلى الخلف بصورة مؤقتة. أمورٌ كثيرة تتوقف على صلابة السياسة الداخلية للنظام، وعلى مدى تأثير القوى الخارجية المختلفة، وفى بعض الأحيان على رجال الدولة الذين يجدون أنفسهم تحت ضغط الظروف أو بنزوة التاريخ على رأس الدولة. هؤلاء يحصلون على حقوق كثيرة فى التأثير فى سياسة الدولة.

وبسبب ذلك كله يتغير أحيانا منهج السياسة الخارجية تجاه الدول الأخرى.

وبالنسبة لعلاقتنا بمصر - الدولة الأكبر فى الشرق العربى، كانت هناك فترات توقفت فيها هذه العلاقة على التغيرات الداخلية فى مصر ذاتها.

لقد تسنى لكاتب هذه المذكرات أن يشتغل بقضايا العلاقات مع مصر منذ عام ١٩٦٧[1]، منها أربع سنوات تقريبا (١٩٧٠ - ١٩٧٤) عمل فيها سفيرا لدى هذه الدولة، ثم رئيسا مشاركا فى اتفاقية چينيف للسلام فى الشرق الأوسط. أما الانطباعات التى تركتها لدىّ هذه الأحداث فهى كثيرة. كان من الواضح تماما، وبشكل خاص، الدور الذى لا تحسد عليه، الذى قامت به السياسة الأمريكية، باستغلالها للوضع الداخلى لمصر بعد

(١) فى عام ١٩٦٧ عُين ڤلاديمير ميخايلوڤيتش ڤينوجرادوف نائبا لوزير خارجية الاتحاد السوفيتى. (هيئة التحرير).

وفاة ناصر لتتغلغل فى الشرق الأوسط، وفى مصر بالدرجة الأولى. لقد كشف سلوك السياسيين الأمريكيين فى تلك الفترة الأساليب الوقحة التى استخدموها، وبأى قدر من السهولة تخلوا عن التزاماتهم وعن الاتفاقات التى وقعوها. لقد قدم أنور السادات، الذى أصبح رئيسا لمصر بعد الوفاة المفاجئة لجمال عبد الناصر، المساعدة الأكبر للأمريكيين فى سياستهم فى الشرق الأوسط.

لقد أصبح الشرق الأوسط، كما كان سابقا، واحدا من أكثر "النقاط الساخنة" على كوكبنا، وأصبحت أهم المهام السياسية على الساحة الدولية هى تسوية النزاع فى الشرق الأوسط، و"تفكيك التكتلات"، إذا جاز القول، بالطرق السياسية السلمية وضمان حياة سلمية لكل سكان المنطقة.

كانت فكرة حل الصراع بالطرق المنفردة بهدف فرض شروط غير متكافئة على الدول العربية (ومن أجل ذلك كان من الضرورى إبعاد الاتحاد السوفيتى عن المشاركة فى التسوية) فكرة غير واقعية رفضها المجتمع الدولى منذ زمن بعيد، حيث إنها لم تكن لتؤدى إلى سلام حقيقى.

لقد اتفقت الجمعية العامة للأمم المتحدة وأكدت من جديد بالإجماع على أن وسيلة حل الصراع فى الشرق الأوسط تتمثل فى ضرورة عقد مؤتمر دولى للسلام فى الشرق الأوسط تشارك فيه الدول المعنية فى المنطقة — الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، إلى جانب مصر وإسرائيل والدول الأعضاء فى مجلس الأمن.

- ١ -

وصلت إلى بيتى عائدا من وزارة الخارجية ذات مساء بارد موحل يوم التاسع والعشرين من سبتمبر ١٩٧٠. قالت زوجتى: لقد اتصلوا بك للتو يطلبون سرعة الاتصال بهم. اتصلت، وتبين لى ضرورة العودة فورا، لماذا؟ غير معروف. آنذاك، كنتُ أقوم بالإشراف على عمل قسمى الشرق الأوسط والأدنى.

علمت فى غرفة النائب ڤاسيلى ڤاسيليڤيتش كوزنيتسوف، النائب الأول لوزير الخارجية، بالخبر الذى تلقاه على الفور من القائم بأعمال الاتحاد السوڤيتى لدى مصر (كانت تسمى آنذاك الجمهورية العربية المتحدة) ڤلاديمير بروفيرييڤيتش بولياكوف، لقد توفى ناصر فجأة، رئيس مصر ورئيس وزرائها، زعيم الأمة المصرية، القائد التقدمى للعالم العربى، الصديق الكبير للاتحاد السوڤيتى.

كان نبأ مفاجئا ومحبطا. وقد جرى استدعاء بولياكوف على الفور إلى مقر رئيس الجمهورية. كانت حالة من الهرج تسود المكان، ولدهشة بولياكوف، لم يوله أحد اهتماما تقريبا. ثم أخبروه أنه "لا حاجة لوجوده". وعندما عاد إلى السفارة، علم أن ناصر قد توفى. فى هذا اليوم، ودع ناصر رؤساء الدول العربية بعد مؤتمر ناجح أقامته القاهرة أوقف بفضله الصراع الدموى بين الأشقاء الفلسطينيين والسوريين من جانب والأردن من جانب آخر. وقد شعر بوعكة صحية فى المطار. وبعد أن عاد إلى المنزل، ازدادت حالته سوءًا..

لم أصدق ما حدث. أحد الحاضرين فى مكتب كوزنيتسوف رأى أن من المحتمل أن يكون الخبر غير صحيح. ولكن، إذا بهم يحضرون لنا برقية تؤكد رسميا أن الأمر قد وقع بالفعل وأن ناصرا لم يعد بيننا.

تذكرت لقاءاتى مع ناصر فى موسكو، وفى القاهرة. كان يفيض قوة وثقة؛ فضلا عن ذلك حبا للصداقة.

لكن ذلك لم يكن سوى انطباعاتى الشخصية عنه. فما تزال هناك تصورات أخرى تحجب الآن، على غير إرادة منى، تصوراتى السياسية عنه. لقد غادر الحياة القائد العظيم لأكبر أمة عربية، الرجل الذى قاد الثورة وقاد شعبه على طريق التقدم المستقل.

إن التحولات التقدمية فى مصر، سواء فى الريف أو فى المدن، ولصالح العمال، ترتبط جميعها باسم ناصر. وهو الذى أنشأ المنظمة الجماهيرية المعروفة باسم الاتحاد الاشتراكى العربى، وكان يفكر فى تأسيس حزب أراد أن يسميه "طليعة الاشتراكيين".

لقد قاده منطق النضال المخلص من أجل مصالح شعبه، من أجل الاستقلال الوطنى بالدرجة الأولى، قاده إلى الإيمان بضرورة عقد صداقة أخوية متينة بين الشعبين المصرى والسوفيتى، وبأهمية بناء علاقات قوية مخلصة بين مصر وبلادنا.

وبتأثير مصر التقدمية، تم طرد الإمبريالية الأمريكية من منطقة الشرق الأوسط. كان العالم العربى، الذى استيقظ على الاستقلال، مفعما بالعزيمة على تحديد مصيره بنفسه دون مستشارين من الخارج اعتادوا على إدارة شؤون الشرق الأوسط. وكان ناصر واحدا من الذين أسسوا ما عرف باسم "حركة عدم الانحياز". باختصار، كان ناصر رجلا يمتلك سمعة عالمية رفيعة.

لقد طرح رحيل ناصر قضايا عديدة، سواء فيما يتعلق بصمود النظام ومواصلة الخطط الداخلية، أو، من ثم، التطوير المستمر للسياسة الخارجية لمصر والتى كانت قائمة فى ظروف إزالة آثار العدوان ضد الشعوب العربية من الفلسطينيين والمصريين والسوريين والأردنيين واللبنانيين وغيرهم.

فى الحقيقة، كانت سياسة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية من ورائها، ضد مصر، وبالتالى ضد ناصر. كان ذلك، إذا جاز لنا القول، "عدوانًا خارجيًا على الثورة" موجها ضد مصر باعتبارها القوة الأساسية والأكبر والأكثر تأثيرا وتقدمية للشعوب العربية ككل. ولذلك فإن أمورا كثيرة فى نهاية سبتمبر عام ١٩٧٠ أصبحت، برحيل ناصر، متوقفة على مواصلة منهج مصر، أو بتعبير أدق – على من سيرأس البلاد بعد رحيل ناصر...

واصلنا العمل طويلا فى مكتب ف. ف. كوزنيتسوف وتفرقنا بعد منتصف الليل بكثير.

فى صباح الثلاثين من سبتمبر، غادرت مطار فنوكوفو – ٢ طائرة خاصة من طراز إيل – ٦٨ تحمل على متنها وفدا سوفيتيا لحضور جنازة ناصر. كان على رأس الوفد الكسىَ نيكولايفيتش كوسيجين، عضو المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتى. وضم الوفد قائد الأركان العامة للاتحاد

السوفيتى، مارشال الاتحاد السوفيتى م. ف. زاخاروف وأنا، بصفتى نائبا لوزير خارجية الاتحاد السوفيتى، وكذلك الجنرال ف. ف. أوكونيف، كبير المستشارين العسكريين السوفيت، الذى كان قد عُين لتوه فى هذا المنصب. و ف. ب. بولياكوف القائم بأعمال الاتحاد السوفيتى لدى جمهورية مصر العربية والذى كان موجودا آنذاك فى القاهرة. وفى صباح نفس اليوم، تم اتخاذ قرار بطلب موافقة حكومة جمهورية مصر العربية على تعيينى سفيرا للاتحاد السوفيتى لدى القاهرة. وكان القائم بالأعمال المؤقت يرأس السفارة لمدة تزيد على شهر بعد وفاة سفيرنا الدبلوماسى المحنك سيرجى الكسندروفيتش فينوجرادوف.

هبطت بنا الطائرة وسرعان ما بدأ الظلام يزداد حلكة. جمهور غفير أحاط بالطائرة، لم يكن باستطاعتنا أن نتبين من هم. هبطنا سلم الطائرة كيفما اتفق نحو ظلام دامس. لم يكن هناك من ضوء سوى شعاع يصدر من هنا أو هناك من أجهزة الإضاءة الخاصة بمصورى السينما والتليفزيون، عندئذ كانت تتراءى لنا ظلال رؤوس الجمهور القلق. وعلى الفور انتقلت إلينا مشاعر الاضطراب والعصبية التى اكتنفت ليل القاهرة.

استطعنا ونحن على سلم الطائرة رؤية السادات وهو يستقبل الوفد السوفيتى (كان نائبا للرئيس آنذاك) وبصحبته محمد فوزى وزير الحربية وعلى صبرى وشخص آخر. غرق الكسى كوسيجين فى أحضان المصريين الباكين، ثم بدأ الحراس يهرولون إلى الأمام باتجاه ما (لعلهم اتجهوا نحو السيارات). مرة أخرى، وجدنا أنفسنا وسط الزحام فى الظلام. رحت أساعد ماتفى فاسيليفيتش زاخاروف على التماسك. دلفنا إلى سيارة ما كبيرة على زجاجها الأمامى أرقام. جلسنا ثم انحشر شخص ما إلى جوارنا.

- إلى أين؟

- خلف الآخرين. إلى حيث يذهبون.

شقت السيارات طريقها وسط الزحام، واحدة تلو الأخرى، مغادرة المطار لتتخذ طريقها نحو المدينة.

خُيِّل إلىَّ أن القاهرة خرجت عن بكرة أبيها إلى الشوارع. إلى أين هم ذاهبون. كان الناس يلتصقون بالحافلات وعربات الترام. كانوا يصيحون ويهتفون بقوة معبرين عن مشاعرهم بإشارات ما. العديد منهم كانوا يبكون ويرفعون أيديهم إلى السماء. كان الجو حارا ورطبا وخانقا. كانت كل هذه المشاهد والأصوات معا تخلق انطباعا بأن شيئا ما غير طبيعي يحدث.

أنزلونا، كوسيجين وزاخاروف وأنا فى محل إقامة السفير السوفيتى على شاطئ النيل، غير بعيد عن السفارة. بينما نزل باقى الرفاق فى فندق "هيلتون" على الضفة الأخرى للنهر.

وفى نفس الليلة التقى الكسىّ كوسيجين بالسادات، بعدها توجه لتقديم واجب العزاء لأرملة ناصر. ولدى عودة الكسىّ كوسيجين تساءل، وقد استغرق فى التفكير، عما يعنيه هتاف الجماهير المتكرر: "ما تسيبناش". ماذا كانوا يعنون بذلك، أسرة الراحل، الدولة، أم الشعب المصرى؟ لماذا انفجر هذا الرجاء؟.

ذهبت إلى وزير الخارجية محمود رياض، ثم إلى رئيس تحرير جريدة "الأهرام"، وهو فى نفس الوقت وزير الإرشاد القومى محمد حسنين هيكل، الصحفى الشهير، وكانت تربطنى به علاقة قديمة.

كان رياض يبكى. ماذا سيبقى لنا بعد ناصر؟ تعاليمه، حزبه، رفاقه فى الفكر؟ هل سيتحمل الناصريون الخسارة، وهل سننتظر إلى أن يقوم خصوم ناصر ونهجه السياسى بامتلاك زمام الأمور فى الداخل والخارج.

قال هيكل وعيناه مغرورقتان بالدموع: "لا أصدق، لا أصدق. أنتم الأصدقاء الأوفياء لناصر مازلتم هنا، بينما هو توفى لتوه. أمر جيد أن يكون أول من وصل هم أفضل أصدقائه. لقد كان ناصر يفكر منذ فترة قريبة أن يلتقى بك، حتى إنه أعرب عن رغبته فى أن يتم تعيينك سفيرا لدى القاهرة". انتفض جسدى دون رغبة منى. لقد حان الوقت لأن أخبر هيكل بشأن تعيينى؛ كنت أعلم أن كوسيجين موجود الآن لدى السادات وسوف يحدثه فى ذلك.

حضر الجنازة رؤساء الدول ورؤساء الوزراء والشخصيات الحكومية البارزة، وقد طلب معظمهم أن يلتقوا برئيس الوفد السوفيتي. وأخبرني الكسيّ كوسيجين أن السادات وافق على الفور على تعييني سفيرا وأنه قد بات عليّ منذ اللحظة أن أحضر المباحثات جميعًا بوصفي السفير السوفيتي الجديد. كانت الفكرة الرئيسية التي راحت تؤرق كل الشخصيات العربية كما قالوا لنا: إن مصر ينبغي ألا تفقد دورها القيادي أيا كان من سيصبح رئيسا لها. وأن مصر يجب أن تظل زعيما للعالم العربي. ولهذا فإن على المصريين أن يختاروا رئيسا يمكنه أن يواصل قضية ناصر، وفي هذه الحالة فقط لن تسقط الراية العربية المشتركة من يد مصر. فكرة صائبة، ولكن من بخلاف المصريين أنفسهم بمقدوره أن يحل هذه المسألة؟

تلقينا أنباء تفيد بأن الطامحين لمنصب الرئيس هم السادات في المقام الأول وكذلك حسين الشافعي، وهو واحد من القيادات الموجودة ومن ذوي الميول الإسلامية، وعلى صبري السياسي الشهير الذي تم تصنيفه باعتباره "يساريا". كما تردد الحديث عن مرشحين آخرين مثل الدكتور محمود فوزي، أحد أقدم الدبلوماسيين المصريين وأكثرهم خبرة، وزكريا محي الدين الذي يُعد سياسيا برجوازيًا من الجناح اليميني وآخرون.

كان ناصر قد قام، قبيل وفاته، بإدخال بعض التعديلات في المناصب القيادية؛ ويقال إنه لم يكن يحب أن يشغل المسؤول مقعدا واحدا لمدة طويلة، ومن ثم يكتسب نفوذا فائقا. وقد عيّنَ السادات في منصب نائب الرئيس، بعد أن ظل هذا الرجل "غير مَرْضِي عنه" لبعض الوقت. وهكذا شاءت الصدفة أن يكون أنور السادات في هذا المنصب عند وفاة ناصر.

من المعروف أن السادات لم يكن ينتمي إلى السياسيين الذين يتميزون بسعة الفكر. كان عضوا بتنظيم "الضباط الأحرار" الذي كان يرأسه ناصر عند قيام انقلاب عام ١٩٥٢، والذي انتهى بإزاحة الملكية، وهو الانقلاب الذي أيده الكادحون المصريون والذي استحق أن يُسمى بحق ثورة. وعلى الجانب الآخر، كان السادات هدفا لسخرية الضباط نتيجة ثقافته المحدودة وتواضع معارفه، ولهذا فقد راح يحاول تعويض هذا النقص بالتكلف

والاصطناع والتظاهر بالتدين. كان رجل مكائد من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، ولم يكن شخصا مستقيما صريحا، وكان يرى الآخرين متآمرين. كان دسَّاسا ولم يكن ثوريًا. هكذا رآه المصريون الذين كانوا يعرفونه جيدا.

كان اختيار مرشح للرئاسة الأمر الأكثر مسؤولية وخاصة فى ظل الظروف التى كانت تمر بها مصر، حيث تلعب شخصية الزعيم دورا كبيرا لا حدود له، وحيث حقوق الرئيس كثيرة وصلاحياته واسعة وفقا للتقاليد، أوسع بكثير مما فى الدول الغربية على سبيل المثال. ولهذا فقد استمرت اجتماعات السياسيين المصريين مدة طويلة، إذ كان من الضرورى التوصل إلى حل يرضى جميع الأطراف. كان الجميع يدركون شيئا واحدًا، وهو أنه ليس هناك نظير لناصر، وأن خليفته لا يمكن أن يطاوله. استمر الصدام بين المرشحين. وسرعان ما وصلوا، كما أخبرونا، إلى أن القرار يجب أن يكون فى الوقت الحالى قرارا أقل ضررا وأكثر منطقية. وقالوا إن التناول البراجماتى فى هذا الأمر قد لعب فيه عزيز صدقى الدور الأكبر، وصدقى هو رجل اقتصاد موهوب يتمتع بالتفكير الواضح وكان آنذاك هو الوزير الأسبق للصناعة والتجارة. كان أكثر الحلول بساطة، هو ترك الجدل بشأن ترشيح رئيس دائم. وليكن نائب الرئيس، أنور السادات، هو الرئيس ولو مؤقتا، ثم لنبحث الأمر فيما بعد.

وقد أكد لنا السادات أن هذا هو بالفعل القرار الذى اجتمعت عليه القيادة: الرئيس هو أنور السادات، على أن يصبح الدكتور محمود فوزى رئيسا للوزراء. كان فوزى قد عمل مع ناصر (وهو يرضى مصالح القطاع البرجوازى فى المجتمع)، ويكون نواب الرئيس هم على صبرى (المجموعة اليسارية) وحسين الشافعى (المجموعة الإسلامية). وهكذا تم إرضاء الجميع.

كانت الشمس تصب نارها بلا رحمة من سماء مصر الزرقاء الخالدة. بدأت الحرارة في الازدياد منذ الصباح. الأول من أكتوبر هو يوم الدفن. سوف يتم نقل النعش وبداخله ناصر بطائرة مروحية إلى جزيرة الزمالك، حيث مقر مجلس قيادة الثورة السابق الواقع مباشرة على النيل. كان الأمر رمزيا. سوف تصل إلى هنا الوفود الأجنبية، وسوف

يسيرون فى موكب يعبر الجسر إلى الجانب الأيمن من النيل وحتى مبنى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، ثم يتجه الموكب إلى الجزء الشرقى من المدينة – هليوبوليس، إلى مكان الدفن فى مسجد شيد حديثا، ويقع بالقرب من البيت الذى عاش فيه ناصر. على هذا النحو تحددت المراسم.

كانت الظروف المرعبة التى مرت بها القاهرة فى الأيام السابقة ماتزال محسوسة وعلى نحو أقوى من ذى قبل. زحام، جماهير غفيرة تملأ الشوارع. كانت المدينة تعج بضجيج لا يهدأ بسبب الملايين من الحناجر الغاضبة. كان تعداد القاهرة وضواحيها يبلغ ثمانية ملايين نسمة، أضيف إليهم مليونان من البشر جاءت بهم قطارات مزدحمة (اعتلى الناس أسطح العربات والجزارات ودرجات السلم).

اصطف فى محيط سفارتنا خارج السياج جنود يحملون دروعًا من الخشب ويمسكون بعصىً فى أيديهم (فى حالة وقوع هجوم من الجماهير). فكرت، ولماذا يهاجموننا؟ ومن الذى سيهاجمنا؟

كان من المفترض أن يكون الجسر بدءا من ناحيتنا وحتى جزيرة الزمالك معزولا ومفتوحًا للمرور للضيوف الأجانب فقط، لكنه كان مكتظا بالناس، الذين كانوا يتدلون من أسوار الجسر. لم يكن من الممكن فعل أى شىء تجاههم، لا صراخ جنود الشرطة ولا التلويح بالعصى. كان البعض يضرب، والبعض الآخر يكتفى بالتهديد. أما الزمالك فكانت تقع على مرمى حجر منا، عبر المجرى الضيق لنهر النيل الذى لا يزيد عرضه هنا على أكثر من ٤٠ إلى ٥٠ مترا.

وصل هيكل ليلتقى بالوفد السوفيتى، وكان مكلفا بمرافقتنا، لكن وفدنا كان معزولا. كان الجسر الفاصل بيننا وبين الزمالك مقطوعا حتى يبعدوا الجمهور عن الجانب الأيسر للنيل. ظل هيكل والمصريون المرافقون له يواصلون الاتصال تليفونيا دون انقطاع، وفى النهاية، أبلغونا أنهم سيرسلون لنا زورقا وإلا فإننا لن نصل أبدا. قطعنا ما لا يزيد على مائتى متر بواسطة الزورق حتى وصلنا إلى مَرْسى الزمالك أمام المبنى مباشرة، حيث تقرر أن تبدأ الجنازة منه. خصصوا لنا غرفة مستقلة، ثم جاءنا السادات وعلى صبرى

وظلوا معنا بالفعل طوال الوقت. ومن حين لآخر كان رؤساء الوفود الأجنبية الأخرى من الرؤساء آنذاك: الأتاسى (رئيس سوريا)، مكاريوس (رئيس قبرص)، النميرى (رئيس السودان)، بومدين (رئيس الجزائر)، ديميريل (رئيس وزراء تركيا)، هويدى (رئيس إيران)، اعتمادى (رئيس أفغانستان)، حسين (ملك الأردن)، ريتشاردسون (وزير الصحة فى الولايات المتحدة الأمريكية)، عرفات (رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية)، جو مو- چو (ممثل جمهورية الصين الشعبية) وآخرون، كانوا يأتون لتبادل التحية مع الكسىّ كوسيجين.

كنا نسمع أزيز المروحية المحلقة فوق رؤوسنا، وسرعان ما استدعونا إلى الفناء الداخلى للمبنى، حيث وُضع فى وسطه نعش خشبى بسيط مغلق وملفوف بعلم الدولة المصرية، وقد أحاط به عددٌ من الضباط الشبان راحوا يبكون وينشجون بحرقة، وإلى جوارهم عدد من الأفراد فى ملابس مدنية. حاول بعض العسكريين إبعادهم بلا جدوى. كان هناك شخص ما يحاول إعادة انضباطهم مُصدرًا إليهم أوامر ما، لكنهم لم يستجيبوا.

فى نهاية الأمر، تلقت الوفود الأجنبية الدعوة للخروج من المبنى إلى الشارع، وهنا سار الجميع فيما يشبه الطابور، لكن أحدا لم يكن بإمكانه أن يلتزم بالنظام، فكان على الوفد أن يجد موطئ قدم. كان وفدنا فى المقدمة.

وأخيرًا، بدأ موكب الجنازة فى السير من يسارنا. مجموعة صغيرة من الجنود يحملون أكاليل الزهور، خلفهم ستة خيول تجر عربة مدفع وُضع عليها النعش. كان الجنود السائرون يبكون مثلهم مثل رفاقهم فوق ظهور الخيل. راح الموقف يزداد اضطرابًا ومن ثم إثارة للأعصاب حتى أصبح المشهد هستيريًا.

كان من المفترض أن تسير الوفود الأجنبية خلف عربة المدفع، ولكن هيهات؛ لقد اندفعت الجماهير العارمة التى لا يعرف أحد من أين جاءت. كان من المستحيل تدارك الأمر. فى الواقع، كنا نندمج فى الموكب بقوة. وسرعان ما ازداد الزحام. كان الناس يتدافعون وهم يخشون السقوط على الأرض. إن سقوط المرء هنا معناه أن تسحقه الأقدام حتى الموت. حملت الجماهير الكسىّ كوسيجين إلى مكان ما فى الأمام بعيدًا عنّا، أما أنا فقد

احتوانى زحام أشبه ما يكون بالدوامة. وها أنا أرى ثلاثة وجوه شاحبة كساها الرعب أعرفها جيدًا هم رؤساء وزراء تركيا وإيران وأفغانستان – ديميريل وهويدى واعتمادى، دفعت بهم الحشود بعيدًا تمامًا. تماسكت موليًا ظهرى بقوة فى مواجهة القادمين من خلفى مفسحا بمرفقىّ طريقا لنفسى، متشبثا بأقدامى فى الأرض بكل قوة. كنتُ مدفوعا من الخلف، وبفضل دفاعى توفرت أمامى مساحة صغيرة من الأرض اندفع إليها رؤساء الوزراء الثلاثة.

كان موكب الجنازة يتحرك على نحو عشوائى: تارة فى هذا الاتجاه وتارة فى اتجاه آخر، تارة تندفع إلى الأمام، وتارة أخرى تتوقف تمامًا. وقد تعالى الصراخ والعويل. وفجأة يتوقف الموكب من جديد. صيحات قوية. وإذا بنا أمام مجموعة من الأفراد قادمين من الاتجاه المعاكس. كانوا يلوحون بأيديهم يطلبون أن نفسح لهم الطريق. ومن ورائهم بدا جمع آخر يرفع كرسيًا جلس عليه السادات مغمض العينين دون حراك، وقد راحت ذراعاه تتأرجحان فى الهواء. كان على الموكب أن يتوقف إذ كان التقدم أمرا لا جدوى من ورائه. ضاع رفاقنا فى الزحام. تلفَّتُ حولى: السادات حملوه إلى البيت. ترى ما الذى حدث للرئيس الجديد؟ فى الأمام، راحت الجموع الغفيرة الباكية فى التراجع وسط عمود كثيف من التراب. أما خلف الجسر فكان هناك ما يقرب من مليون من البشر لا يزالون يحتشدون.

أُبعدَ الضيوف الأجانب إلى مدخل الجزيرة ونصحوهم بعدم الاستمرار فى السير لخطورة الموقف. أبلغت الكسىَ كوسيجين بما حدث للسادات فعبَّر عن دهشته وأرسل على الفور رئيس قسم المراسم فى وزارة خارجيتنا ب. ل. كولوكولوف وكان ضمن الوفد، للاستعلام عما حدث. لكن المصريين تكتموا الأمر، ثم أبلغونا "سرًا" أن السادات فى حالة سيئة؛ فضلا عن على صبرى أيضًا الذى ساءت حالته قبل ذلك بمجرد وصول النعش وبداخله جثمان ناصر، وأن الأخير تحت الرعاية الطبية، وقد ازدادت حالة السادات سوءًا عندما اكتشف غياب نائب الرئيس. وقد أحضروا السادات إلى الغرفة التى يرقد فيها على صبرى. رقد الرجلان فى غرفة واحدة وكان كل منهما يختلس النظر إلى رفيقه بين الفينة والأخرى. وتوجها بالشكر إلى الرفاق السوفيت على اهتمامهم.

عدنا بعد ذلك إلى السفارة على متن الزورق البخارى.

فى اليوم التالى، الثانى من أكتوبر، عقدت القيادة المصرية لقاءات عمل مع الوفد السوفيتى. أود أن أطرح هنا بعض الملاحظات: فقد أكد الجانب السوفيتى من جديد أن خطنا فى تطوير التعاون قائم بيننا كما كان فى عهد ناصر، قويًا مخلصًا، وأن يكون قادرا على الاستمرار، بطبيعة الحال، فى إطار المصالح المتبادلة. وقد أعرب الكسىّ كوسيجين عن إيمانه بأن القيادة الجديدة للبلاد سوف يكون باستطاعتنا القضاء على الفكرة التى يُروجها أعداء مصر حول إمكانية حدوث فراغ فى كل من السلطة والأفكار والحسم فى اتخاذ القرار. إن النهج الثابت والمستمر لقضية ناصر، إلى جانب التفاف القيادة بأكملها حول هذا النهج الذى يؤيده الشعب واحترام العالم أجمع لمصر والعمل المنسجم للقيادة، سوف يساعد بلاشك على تجاوز كل المصاعب بما فيها إزالة آثار العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧.

وفى معرض رده على الكسىّ كوسيجين أكد السادات أن ناصر هو صديقه وأخوه ومعلمه، وأن القيادة المصرية لن تسمح بوقوع أية صراعات؛ وأن الصداقة مع الاتحاد السوفيتى، وهى ميراث ناصر، سوف تزداد قوة ومَنَعة. وقد تناولت اللقاءات أيضًا عددًا من القضايا العملية التى تمس العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى، وقيام بلادنا بالمساعدة فى حل عدد من المشكلات.

وفى اليوم التالى غادر الوفد السوفيتى مصر فى طريقه إلى موسكو. عدتُ إلى القاهرة فى الثالث عشر من أكتوبر بصحبة زوجتى بصفتى سفيرًا مفوضًا فوق العادة للاتحاد السوفيتى لدى جمهورية مصر العربية. استقبلنى فى المطار معارفى القدامى؛ الرفاق: المستشار السفير ڤلاديمير بولياكوف والمستشاران ڤاديم كيربيتشينكو، ألكسندر أرلوف، باڤل أكوبوف، والملحق العسكرى بحرى نيكولاى إيڤلييف. أود أن أنكر هنا أن هؤلاء الرفاق المخلصين كانوا جميعًا من المختصين البارزين، وإلى جانبهم كان هناك أيضًا عدد من الدبلوماسيين الشباب، ولكنهم كانوا هم أيضًا على درجة كبيرة من الكفاءة، مثل يورى كابرالوف، ڤافا جوليزادى، روبرت توردييف، شكَّلوا جميعا العمود الفقرى

للسفارة، الذى حمل على عاتقه العبء الأكبر للعمل المضنى على مدى السنوات التالية، عندما بات من الواضح تماما أن الرئيس السادات قد انتهج نهجًا مخالفًا للنهج الذى سار عليه ناصر، سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية، فتحول بمصر من معسكر المناضلين النشطاء ضد الإمبريالية إلى داعم لها وخاصة للولايات المتحدة الأمريكية.

لكن إدراك هذا النهج واتخاذ الإجراءات المناسبة تجاهه فى الوقت المناسب لم يكن أمرًا سهلا. كان على السفارة أن تعانى كثيرا من المواقف الصعبة لاحقا.

- ٢ -

بعد عشرة أيام من وصولى إلى القاهرة، وبعد عدد من المذكرات، أبلغتنا وزارة الخارجية المصرية أن الرئيس السادات مستعد لقبول أوراق اعتمادى. تمت المراسم آنذاك فى جو غاية فى البساطة، بل إنه لم يؤخذ فى الاعتبار تبادل الكلمات على النحو التقليدى المتبع. على أن الحدث لفت انتباه وسائل الإعلام فامتلأت قاعة الاستقبال فى قصر القبة – المقر الرسمى للرئيس المصرى – بالمصورين ومصورى السينما والتليفزيون. انتهزت هذه الفرصة لألقى كلمة أوجزت فيها العلاقات الأخوية التى تربط الاتحاد السوفيتى بمصر، وعن تعاطفنا العميق تجاه الشعب المصرى وثقتنا فى استمرار العلاقات بين بلدينا على نفس النحو المثمر كما كانت على عهد الرئيس الراحل ناصر؛ وأكَّدتُ فى كلمتى على استعداد بلادنا لدعم مصر وقيادتها فى المجالات جميعًا، ودفع التعاون بين البلدين قُدُما. وقد رد الرئيس السادات بكلمة مقتضبة أعرب فيها عن تأكيد متانة علاقات الصداقة المصرية السوفيتية.

وفى سياق الحديث الذى أعقب تسليم أوراق الاعتماد عبَّر الرئيس السادات عن رغبته فى استمرار التعاون الوثيق بيننا وعقد لقاءات منتظمة معه.

بعد الانتهاء من تسليم أوراق الاعتماد توجهت بنفس ملابسى الرسمية إلى قبر ناصر فى المسجد الجديد الجميل الواقع على مقربة من بيته الذى عاش فيه، وهناك كان بانتظارى

طاقم دبلوماسيي السفارة بأكمله وقد أحضروا إكليلا من الزهور عليه شريط كُتب عليه باللغتين العربية والروسية: "إلى جمال عبد الناصر من سفارة الاتحاد السوفيتي لدى الجمهورية العربية المتحدة". وقد أثار قيام السفير السوفيتي بوضع إكليل من الزهور على قبر ناصر على إثر قيامه بتسليم أوراق اعتماده للرئيس الجديد اهتماما كبيرا من جانب الصحافة والتليفزيون؛ فضلا عن تجمع العديد من سكان الحي في المكان. كنتُ أود بذلك أن أرسخ تقليدًا وأن أؤكد على تواصل العصور.

وعلى الرغم من أن المصريين يعيشون على مساحة لا تتجاوز من ٣ – ٤٪ فقط من إجمالي مساحة البلاد، على شريط ضيق يمتد بمحاذاة النيل، فإن دلتا هذا النهر تشغل عدة مئات من الكيلومترات؛ بالإضافة إلى أراض شاسعة تقع على تخوم البحر المتوسط مباشرة، فإن البلد ذاتها، شعبها، ماضيها، حاضرها تترك في النفس، بطبيعة الحال، أثرًا هائلا لا ينمحي. لقد بادت إنجازات الحضارتين اليونانية والرومانية على نحو أو آخر، بينما بقيت الحضارة المصرية القديمة ظاهرة في آثارها الخالدة. وعن هذه المعجزات التاريخية خُطّت مئات الكتب، ولا يزال بالإمكان كتابة مجلدات أخرى. ولهذا، وعلى الرغم من رغبتي في مشاركة الآخرين إعجابي بهذه الحضارة، فإنني لن أفعل ذلك، فهو أمر يدخل في اختصاص أناس آخرين. أشير هنا إلى انطباع لشدة ما أبهرني مفاده أن المصريين المعاصرين لا يشعرون أنهم ورثة هذا الماضي التليد. إن الكثير منهم يفتخر وحسب أنه يعيش في هذا البلد الذي تصادف أن ظهرت فيه في زمن ما أشياء عجيبة من شأنها أن تجذب إليها الناس من شتى أنحاء العالم.

وفي نفس الوقت، كان هناك أمر آخر أثار إعجابي أيضًا وهو الإحساس الواضح بشعور المصريين، حتى البسطاء منهم، بأنهم سادة هذا البلد، وكان هذا الشعور يتجلى في الكثير من الأمور، سواء الكبيرة أو الصغيرة، وخاصة في السلوك اليومي وفي الأحاديث العادية والحميمة وفي كرم الضيافة التلقائي البعيد عن التكلف، وكذلك في التفاؤل وعزة النفس، وأخيرا في القدرة على تحمل المصائب بروح ساخرة. ليس من قبيل المصادفة أن شاعت هذه الطرفة الساخرة التي تقول إن نابليون هُزم في مصر بفضل النكات التي استهدفه بها المصريون. وفي هذا السياق، راح المصريون يلاحقون السادات بالنكات منذ

أن تولى منصب الرئيس. واحدة منها ذات مغزى خفى تقول: إن الرئيس السادات استقل سيارة الرئيس الراحل ناصر، وعند مفترق الطرق سأله السائق:

– إلى أين نتجه؟ يمينًا أم يسارًا؟

فسأله السادات باهتمام:

– وفى أى اتجاه كان يسير ناصر؟

أجاب السائق:

– "يسارًا"

عندئذ قال السادات:

– "حسنا، اعط إشارة الدوران إلى اليسار، ثم... انطلق يمينًا".

كان مما أثار دهشتى أيضًا هذه المشاعر الودية الجارفة التى يكنها المصريون للروس، وخاصة تجاه الخبراء الذين كانوا يشاركونهم العمل فى بناء محطة القوى الكهرومائية العملاقة فى أسوان وفى بناء مجمع الحديد والصلب فى حلوان بالقرب من القاهرة وفى المصانع الأخرى والمشروعات الزراعية وفى الجيش بطبيعة الحال. كان سد أسوان يبدو من الطائرة على هيئة مشط نصف دائرى مغروس وسط صحراء صفراء حارة مترامية الأطراف تتدفق المياه منه بلون الصلب الرمادى ومن خلفه ترامت بحيرة عملاقة هى "بحيرة ناصر"، ومن الناحية الأخرى امتد نهر النيل شريطًا قاتم اللون.

فى فبراير عام ١٩٧١ تم الاحتفال رسميا بانتهاء العمل فى السد ومحطة الكهرباء التى راحت تعطى آنذاك نصف الطاقة الكهربائية التى تنتجها أفريقيا كلها. عزفت الأوركسترا ورفرفت الأعلام وعُلقت الملصقات وعُقدت اللقاءات الجماهيرية. انتهى بناء المشروع العملاق الذى حاولت الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الاتحادية إفشاله، وذلك بفضل المساعدة النزيهة التى قدمها الاتحاد السوفيتى، الذى كان عليه القيام بحل المشكلات العلمية والفنية. لقد أقدم ناصر فى شجاعة على التعاون الوثيق مع الاتحاد السوفيتى، وها

هى أسوان وقد أصبحت تمثل قمة هذا التعاون. لقد باتت أسوان رمزا للحكمة الاقتصادية وإصرار ناصر؛ فضلا عن أنها جسَّدت رؤيته السياسية.

لقد تسنى للسادات افتتاح السد ومحطة القوى الكهربائية. وعلى اللوحات التذكارية التى أُقيمت على السد ومحطة الكهرباء تخليدًا لهذا الحدث البارز اختفت أية إشارة للاتحاد السوفيتى ودوره فى تشييدها، فقد كُتب: "بمشيئة الله ومساعدة أصدقائنا قمنا ببناء السد العالى الذى افتتحه الرئيس محمد أنور السادات". من هؤلاء الأصدقاء؟ لعل أحفاد المصريين يبحثون بأنفسهم. لكننا رأينا مقدار الفرحة الصادقة التى حيا بها البناة المصريون أصدقاءهم الروس أثناء الاحتفال: كان المصريون يعلمون جيدًا ما الذى قدمه الاتحاد السوفيتى: مصدرًا هائلا للطاقة، ضوءا فى البيوت، أمانا من الجفاف والفيضانات، وفرة فى صيد الأسماك، آلاف الفرص للعمل...

وبنفس مشاعر الفرح الصادق، قابل المصريون السوفيت لحظة تدشين أول سفينة صيد بُنيت فى مصر فى ترسانة الإسكندرية التى أنشئت بمساعدة الاتحاد السوفيتى، حتى إن المصريين قاموا بتسلق أبراج الأوناش والجلوس على الخطاطيف المتأرجحة.

وأمام الساحة الصغيرة التى جرت فيها مراسم تدشين السفينة ذبح المصريون، وفقًا لتقاليدهم الشعبية، عجلا وراح العشرات من العمال يغمسون أكفهم فى الدم الطازج ابتهاجا بهذا الحدث الكبير.

لعل المهمة الأولى التى يحرص كل سفير جديد على القيام بها هى إقامة العلاقات والروابط مع الشخصيات القيادية المحلية ورؤساء البعثات الدبلوماسية وهؤلاء عددهم ليس بالقليل، وهو ما يعنى فى الواقع زيارات تتلوها زيارات؛ فضلا عن ضرورة استقبالهم عندما يقومون برد الزيارة. إنه جهد غير عادى خاصة عندما تقع أحداث أو تنفجر مشكلات لا تحتمل الانتظار وهذه كانت تزداد يوما بعد الآخر.

لقد نجحت فى وقت قصير فى التعرف، بالدرجة الأولى، على غالبية الشخصيات القيادية فى البلاد ومن بينهم على صبرى وحسين الشافعى، نائبا الرئيس، والدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء (وهو واحد من أقدم السياسيين منذ عهد الملك السابق

فاروق)، ومحمود رياض وزير الخارجية، ومحمد فوزى وزير الحربية، ولبيب شقير رئيس مجلس الأمة، وشعراوى جمعة أمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ووزير الداخلية، وسامى شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية (وكان فى الواقع المنسق لنشاط المخابرات ومكافحة التجسس)، وعدد آخر من الشخصيات. كان هؤلاء هم المقربون من ناصر فى سنواته الأخيرة.

كانوا أناسا ودودين للغاية، بعث بهم ناصر عدة مرات إلى موسكو وكانوا يشاركونه فى المباحثات وقد توطدت بينى وبينهم علاقات عمل جيدة.

لم يكن ذلك كافيا، بطبيعة الحال، لكى أحيط بالأوضاع فى البلاد بشكل تام. لقد كانت معظم الأمور تتوقف على الرئيس نفسه. جدير بالذكر أن السادات أكد لألكسىَ كوسيجين ولى أيضًا أن العلاقات بين بلدينا لن يمسها أى تغيير، بل إنها ستزداد قوةً ورسوخًا.

على أنه سرعان ما تراكمت السحب فى الأفق. وفى لمح البصر اختفت لدى الرئيس الجديد الصراحة والثقة فى علاقاته بنا، تلك الصفات التى ميَّزت ناصر ليحل محلهما الشك والسخط لسبب أو آخر.

كانت ظاهرة غريبة استمرت لفترة ما دون تفسير، فالاتحاد السوفيتى آنذاك لم يغير سياسته الودية البناءة تجاه مصر، ولم يكن هناك تصرف واحد ملموس يمكن أن يعكس أى شكل من أشكال التغير.

ترى هل كان ذلك يعنى تغيرا فى مزاج ونهج وسياسة الرئيس الجديد؟ لم يكن من السهل مطلقًا الإجابة آنذاك، بشعور بالمسؤولية، على هذا السؤال بالغ الأهمية بل والحاسم إذا جاز التعبير. وتمثلت صعوبة الإجابة أيضا فى أن غالبية الشخصيات السياسية ورجال الدولة الذين ظلوا فى مناصبهم بعد رحيل ناصر كانوا متمسكين بعلاقاتهم الودية تجاه الاتحاد السوفيتى. على أنه وبعد مرور شهرين أو ثلاثة، بدأ جزء من هؤلاء المسؤولين -وهو جزء ضئيل فى الواقع – فى ترديد أقاويل السادات المتعسفة وافتراءاته على الاتحاد السوفيتى، وهى أقاويل لا تقوم على أساس وخاصة فيما يتعلق بالمسائل العسكرية. وفجأة، إذا بنا أمام مقال فى صحيفة أو فى إحدى المجلات، حيث يعمل نفر من أصدقاء السادات

أو شركائه فى الفكر، يتحدث عن نقص صفقات الأسلحة السوفيتية أو عن تدنى المستوى الفنى لها، ويخلص "الخبير المجهول" إلى أن أجهزة الكومبيوتر توصلت إلى أن "حالة اللاسلم واللاحرب" القائمة مع إسرائيل لا يستفيد من ورائها سوى الاتحاد السوفيتى. لم تكن هذه الحملات لتهدف إلا إلى بذر روح الهزيمة لدى المصريين وتشكيكهم فى قواتهم المسلحة وإهالة التراب على أصدقائهم. كان هذا التوجه الملفق والمصطنع واضحا تمام الوضوح. فالمصريون، فضلا عن أعدائهم ذاتهم، كانوا يعلمون جيدا قدر المساعدات الهائلة التى قدمتها بلادنا من أجل رفع القدرة الدفاعية للجيش المصرى والمساهمة الحاسمة فى دعمه والوصول بها إلى مستوى قتالى رفيع.

على أن البعض لم يدرك على الفور أن هذا التوجه قد بدأ مبكرا للغاية بهدف تبرير تراجع مصر عن نضالها ضد الإمبريالية والقيام بتلك التغييرات فى السياسة الداخلية والخارجية التى أضمرها السادات ثم أقدم على تنفيذها مؤخرا.

وفى الوقت نفسه، أصبح الخلاف واضحًا بين الرئيس والغالبية الكبرى من القيادات، التى كانت تشغل مناصب بارزة فى الحكومة وفى الاتحاد الاشتراكى العربى. وفى الشأن الداخلى، قاد الرئيس اتجاها يهدف إلى التقليص الحاد لنشاط ومهام الاتحاد الاشتراكى العربى، الذى كان هو المنظمة السياسية الجماهيرية الوحيدة فى مصر، والتى كانت قائمة على أسس أيديولوجية تقدمية. وإذا كان ناصر يحلم بأن يخرج من رحم هذه المنظمة تنظيم سياسى باسم "طليعة الاشتراكيين" فإن السادات قد سعى إلى حله.

أدرك السادات بسرعة أنه لن يستطيع أن يُخضِع بمفرده اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى، فقد تشكلت داخل هذه اللجنة منذ ناصر ما يمكن اعتباره قيادة سياسية جماعية. وعلى سبيل المثال، فقد انتهت واحدة من أفكار السادات الطموحة فى اتخاذ خطوات عملية نحو إقامة وحدة فيدرالية تجمع كلاً من مصر وسوريا وليبيا (الجمهوريات العربية الفيدرالية) تحت قيادة مصر، بطبيعة الحال، انتهت بالنسبة له فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى بحالة من الفوضى. كانت هذه الفكرة الفجة والتى طُرحت، علاوة على ذلك، دون تشاور مع أيٍ من قيادات البلاد، مثارا للسخرية

بين أعضاء هذه اللجنة. وهو ما أثار سخط السادات بالطبع الذى رأى أن على الجميع أن يمتثلوا لكل ما يقول.

تسنى لى حضور مؤتمرين عجيبين عقدهما الاتحاد الاشتراكى العربى. الأول فى نوفمبر عام ١٩٧٠، حضره أعضاء اللجنة المركزية للاتحاد الذين تم انتخابهم فى عهد ناصر. امتلأت قاعة الاحتفالات الكبرى فى جامعة القاهرة، حيث عُقد المؤتمر، بجمهور ارتدى غالبيته ملابس بسيطة راحوا يتصرفون بحرية ودون تكلف، بينما تصاعدت فى القاعة أعمدة دخان السجائر، وعبر هذا الدخان وعلى نحو فنى تسللت أشعة المصابيح المصاحبة للكاميرات التى أخذت فى التقاط الأفلام التسجيلية وصور الوجوه والشخصيات الحاضرة فى المكان. كان الموقف بأكمله يخلق انطباعا مباشرا بأن الحضور هم بالفعل ممثلو الشعب الذى نال استقلاله غير بعيد، وربما، لم يكونوا يمثلونه بدقة كما كان ينبغى، ولكنهم كانوا أناسا واثقين من أنفسهم بعد أن أصبحوا سادة فى بلادهم وأنهم ماداموا كذلك فسيجدون حتما الطريق الصحيح.

فى يوليو من عام ١٩٧١، كان الجمهور الذى حضر مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى فى قاعة الاحتفالات الكبرى مختلفًا تمامًا. كان أغلبهم من الذين يميلون فى الواقع لنهج السادات المعادى لعبد الناصر. نفس القاعة تشهد الآن أناسا يرتدون ملابس فاخرة، معتدين بأنفسهم على نحو ظاهر، على الرغم من حضور شخصيات أخرى فى ملابسهم الشعبية، وتعكس ملامحهم روح البساطة، وإن كانوا هنا يمثلون أقلية لا تأثير لها. اتسمت كل الكلمات التى أُلقيت بالرتابة والسطحية واتفقت على تمجيد السادات، وبالطبع فقد جاءت خالية من كل مضمون، على الرغم من أن المؤتمر كان مُطالبا بتبنى برنامج للعمل القومى، قام على إعداد وثيقته عزيز صدقى ومحمد حسن الزيات، وكلاهما كانا من قيادات الاتحاد الاشتراكى العربى.

ألقى السادات الخطاب الرئيسى. كان خطيبا متكلفا. قرأ الجزء الأكبر من خطابه بشكل استعراضى تمثيلى بارع، بينما راح يلقى بكل ورقة جانبا وإن لم يستطع أن يتلاعب بالبرنامج، حتى راحت الأوراق تقع من على المنصة إلى الأرض. ولم يكن السادات يلاحظ

ذلك. ساد الصمت، وإذا به ينظر إلى الأوراق نظرة بليدة ويقلبها ذات اليمين وذات اليسار بطريقة توحى بوضوح أنه يسخر من البرنامج. كان من المعروف أن السادات غير راضٍ فى قرارة نفسه عن هذا البرنامج الذى كان يستشرف دعم قدرات القطاع العام واتخاذ إجراءات إصلاحية وتقدمية أخرى. وفى النهاية غمغم قائلا: "مادام مشروع البرنامج موجودا بين يدى الأعضاء فلا حاجة للحديث عنه". وهكذا لاذ السادات بالصمت ولم يطرح أى رقم.

بالمناسبة، تم استبدال "بالبرنامج" برنامج آخر تمامًا عضّده مساعدوه الجدد بشدة باعتباره الدواء الناجع والشامل وهو برنامج "الانفتاح" أمام رأس المال الأجنبى والمحلى.

والآن لنعد إلى أحداث نهاية عام ١٩٧٠ ومطلع عام ١٩٧١.

أشخاص بعينهم هم الذين يصنعون السياسة، وهم الذين يضعونها موضع التنفيذ، أى إن السياسة تنعكس من خلال تصرفات أشخاص محددين، وكان من الواضح منذ الأيام الأولى لتولى السادات منصب الرئيس أن جماعة من الذين كانوا يشغلون مناصب قيادية فى عهد عبد الناصر قد اتخذوا موقفا مخالفا لنهج السادات. وعلى رأس هؤلاء على صبرى نائب الرئيس، وشعراوى جمعة وزير الداخلية وأمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، ومحمد فوزى وزير الحربية، ولبيب شقير رئيس مجلس الأمة، وضياء الدين داود أمين الدعوة والفكر باللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، وسامى شرف وزير شؤون رئاسة الجمهورية، ومحمد فايق وزير الإعلام وآخرون من قيادات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى وأمناء التنظيم فى القاهرة والمدن الكبرى. وعلى الرغم من التباين والاختلاف تنظيميًا بين كل هؤلاء، فإن المجموعة كانت تمثل عقبة أمام طموحات الرئيس الشخصية والتى كان يخفيها حتى عن أقرب المقربين له.

كان على صبرى يمثل الخطر الأكبر بالنسبة للسادات بسبب تفوقه الواضح عليه فى الثقافة والتعليم والأفق السياسى. وفى ٢٨ مارس ١٩٧١ أصدر السادات قرارًا جمهوريًا أزاح بموجبه ودون سبب واضح على صبرى من منصبه نائبًا للرئيس. وكان السادات قد أبلغنى بهذا القرار قبل نشره بيومين فى محاولة منه لمعرفة رد فعلى تجاهه. وقد أخبرته

أن "من الصعب عليّ التعليق على قرار اتخذه الرئيس. الأمر الوحيد الذى وددت أن أفعله هو أن أذكركم بالأمنيات الطيبة التى أبداها كوسيجين منذ نصف عام للقيادة المصرية عن ضرورة العمل بألفة وتضافر وتفادى الانشقاق فى القيادة". وعندها أخبرنى السادات بلهجة حازمة أن القرار تم اتخاذه بالفعل.

لم يبد السادات أى اهتمام بالقضايا الداخلية، وعلى رأسها التنمية الصناعية والزراعية والنقل ورفاهية السكان وتطوير الثقافة. كانت القضايا الخارجية هى شاغله الشاغل، وأهمها قضية إزالة آثار العدوان الإسرائيلى وكل ما يرتبط بها من قضايا.

كان السادات يرى فى نفسه خبيرًا عسكريًا أيضًا، ولكنه كثيرا ما كان يستخدم المعلومات الخاطئة التى كان جنرالاته يمدونه بها.

لم تتوقف حدة الخلافات بين السادات والقيادات الأخرى على القضايا الداخلية بقدر ما احتد حول القضايا الخارجية. فعلى أثر توليه منصب الرئاسة طرح السادات شعار "ليكن عام ١٩٧١ عاما للحسم". وقد فعل ذلك بصورة منفردة ودون تشاور مع أى من القيادات الأخرى. ويعنى الحسم هنا إعادة شبه جزيرة سيناء، التى احتلتها إسرائيل نتيجة لعدوان ١٩٦٧، إلى مصر. وحيث إن الإسرائيليين لم ولن يفكروا فى إعادة الأراضى التى احتلوها طواعية، فقد كان السبيل الوحيد هو إعلان الحرب على إسرائيل.

وواقع الأمر أن ذلك كان بمثابة إعلان مسبق من السادات أن مصر ستخوض الحرب ضد إسرائيل عام ١٩٧١. كان السادات يسعى من وراء هذا الشعار إلى ابتزازنا أيضا: "لقد أعلنت هذا الشعار وعلى الاتحاد السوفيتى أن يساعدنى فى تحقيقه". وعندما قلنا له: "إن الاتحاد السوفيتى صديق لمصر، ولكننا كنا نود لو أن الرئيس قاسمنا الخطط المحددة المتعلقة (بعام الحسم)، وهل تم وضع كل شىء فى الحسبان؟ وما مستوى القدرات القتالية الذى وصلت إليه القوات المسلحة المصرية؟ وما إلى ذلك". كان السادات يجيب فى ضيق وإيجاز: "هذا مجرد شعار سياسى، أما باقى القضايا الأخرى فهى من اختصاص العسكريين المحترفين". من المستحيل أن نَصف هذا التصرف من جانب الرئيس بالتصرف الجاد. وفى هذا السياق، قال لىّ هيكل فى تلك الأيام: لم يحدث مطلقا فى التاريخ أن دولة

أعلنت أنها ستشن حربًا على دولة أخرى فى العام الفلانى. إما أن هذا الأمر من قبيل الهزل وإما أنه جريمة. أما المصريون فقد صموا آذانهم عن الأمر. فكم من شعارات أطلقت!

لقد بلغ الخلاف ذروته بين القيادات المصرية عندما تطرق الأمر إلى العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية. لقد تم بالفعل طرد الإمبريالية الأمريكية من منطقة الشرق الأوسط فى عهد الرئيس عبد الناصر. أما بعد رحيله، فأصبح معروفا للجميع هذه الاتصالات التى يجريها السادات مع المسؤولين الأمريكيين دون أن يطلع بها قيادة البلاد الآخرين. كانت هذه الاتصالات تتم بمساعدة عملاء المخابرات الأمريكية CIA المتسترين وراء لافتة "قسم رعاية المصالح الأمريكية" التابع للسفارة الإسبانية. فبعد قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة أوكلت رعاية المصالح الأمريكية إلى السفارة الإسبانية، وتم رفع العلم الإسبانى فوق مبنى السفارة الأمريكية، حيث راحت مجموعة من الأمريكيين، محسوبين على كوادر السفارة الإسبانية، تعمل بداخلها. لكن الأسرار لا تختفى طويلا. فقد أخبرنى بذلك بعض القادة المصريين فى سياق لقاءات العمل معهم، وقد اعتراهم إحساس بالخوف عن إمكانية عودة الأمريكيين إلى الشرق الأوسط مجددًا. وكان أكثر ما يخيفهم هو خبر الزيارة المرتقبة لروجرز وزير خارجية أمريكا إلى القاهرة. كان من الواضح أنهم يربطون بين هذه "المبادرة" وبين حدوث تحول ما فى نهج السادات. وعند لقاءاتى بالرئيس كنت أنكر له، بطبيعة الحال، ما دار بينى وبين القيادات المصرية الأخرى. وكان السادات يسارع بالقول: "أعلم، أعلم، لقد أحاطونى علمًا بذلك". كان علىّ أن أتوخى الحذر وقد استشعرت وجود خلافات على مستوى القيادة فى البلاد. وفى نهاية لقاء جرى بينى وبين السادات فى شهر مارس، وربما فى شهر أبريل عام ١٩٧١، سألت السادات على نحو يبدو عارضا: "قل لىّ من فضلك من هم أفضل أصدقائك الذين يمكننى التحدث معهم بصراحة تامة؟"، فأجاب السادات قائلا: "محمد فوزى (وزير الحربية)، شعراوى جمعة، سامى شرف" (وكان قبل ذلك يذكر على صبرى أيضًا). وقد سألنى بدوره: "ولماذا تسألنى يا سيادة السفير؟" أجبت: "أردت ببساطة أن أكون على ثقة فيمن أتعامل معهم". كان السادات، بالمناسبة، يرسل فى هذه الفترة إلى موسكو على صبرى ومحمد فوزى وشعراوى جمعة وسامى شرف لإجراء مباحثات مهمة هناك مُقدِّما إياهم كل مرة للقيادة السوفيتية باعتبارهم أصدقاءه المخلصين.

عندما وصل روجرز إلى القاهرة أصبح من الواضح أن السادات قد تعمد أن يجرى معه، على نحو استعراضى، محادثات منفصلة؛ مما اضطر وزير خارجية مصر آنذاك محمود رياض إلى الجلوس ما يقرب من ساعتين فى غرفة جانبية. ومن القاهرة توجه روجرز رأسا إلى تل أبيب، بينما وصل منها فى نفس الوقت إلى القاهرة سيسكو نائب وزير الخارجية الأمريكية وبصحبته موظف صغير فى الخارجية الأمريكية يدعى ستيرز، وقد التقى بهما السادات وعلى انفراد أيضًا. وقد نالت صيحة الدهشة التى أطلقها روجرز بعد أن أعلن الرئيس السادات موقفه من قضايا الشرق الأوسط شهرة واسعة والتى قال فيها: "لا أستطيع أن أطلب المزيد من مصر!" وقد حملت هذه العبارة معنى ملتبسا.

كان السادات يدرك أن "مغازلته" للأمريكيين لا يمكن أن تمر مرور الكرام، فقد طرح علىّ السادات عدة مرات أثناء أحاديثه معى اقتراحا بعقد اتفاقية صداقة وتعاون بين الاتحاد السوفيتى ومصر، وطلب منى أن أبلغ موسكو بهذا الاقتراح (بالمناسبة فقد ظهرت هذه الفكرة للمرة الأولى فى عهد الرئيس عبد الناصر). على أن نبرة الرئيس آنذاك كانت تشى بأنه لا يعقد آمالا كبارًا على الإطلاق على قبول اقتراحه وأنه لا يولى أهمية لقبول اقتراحه فى ظل الوضع الراهن آنذاك. كان من الواضح أن الرجل يبنى حساباته على الرفض، إذ كان الرفض يمثل له، لسبب ما، أهمية ما.

فى الحادى عشر من مايو ١٩٧١، كنتُ فى ضيافة السادات فى مقر إقامته فى الجيزة القائم على ضفة النيل بالقرب من سفارتنا. مكثت هناك لساعة متأخرة من الليل. رحنا نتبادل الحديث، بينما راحت رجال الرئيس المحببة لديه تركض حولنا وتقفز على الأريكة حيث نجلس متلمسة أطراف أقدامنا. كان السادات يقوم بإبعادها بكسل واضح وقد راح يشتكى من المصاعب والإجهاد اللذين يعانى منهما قائلا لىّ إنه يحب الجلوس وحيدًا فى الظلام ليلا بالقرب من المياه مستسلما للتفكير. تطرقنا للحديث إلى موضوعات عديدة. عند نهاية اللقاء، طرحت عليه مرة أخرى سؤالى السابق حول أصدقائه الثقاة، فابتسم قائلا: "يمكنك أن تضع ثقتك، مثلى تماما، فى شعراوى جمعة، ومحمد فوزى وسامى شرف. هؤلاء (دائرتى المقربة)". حدث ذلك فى الحادى عشر من مايو.

فى الثالث عشر من مايو، وبناء على اتفاق مسبق مع سفير جمهورية ألمانيا الديموقراطية (الشرقية) مارتين بيرباخ، قمنا بتنظيم حفل مشترك تأكيدا على الصداقة بين السفارتين. أقيم الحفل فى سفارة ألمانيا الديموقراطية. كان الجو حارا وخانقا وقد بذل الرفاق الألمان جل اهتمامهم لعمل برنامج جيد يتسم بالمرح. على أن السفير لم يستطع أن يفلت من أفكاره وخاصة أنه كان يستشعر (وكان هناك ما يوحى بذلك) أن أحداثًا جسامًا على وشك الوقوع، ولكن ملامحها لم تتضح كاملة بعد.

فى منتصف الحفل، تغيب السفير برهة لاستدعائه لأمر ما، وعندما عاد همس فى أذنى قائلا: "لقد أخبرنى سائقى أنه كان يستمع للراديو وأنهم أذاعوا نبأ استقالة أمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ووزير الداخلية شعراوى جمعة!".

أعدت سؤال السفير: "استقالة؟ وما الأسباب؟ أجاب: غير معروف، لم يعلنوا أكثر من ذلك. إما أنه هو الذى تقدم باستقالته، وإما أنهم عرضوا عليه الرحيل. وربما يكون السائق أخطأ السمع.

بالطبع كان الخبر يحمل فى طياته أمورًا فائقة الأهمية.

اضطررت لمغادرة الحفل. كان علىّ أن أعود إلى البيت وأن أعرج بعد ذلك للأهمية على دار الأوبرا، حيث يعرض باليه "دون كيخوت" من إعداد المخرجين والأساتذة السوفيت. كانوا ينتظروننى هناك، وإذا لم أذهب فربما يتم تأويل الأمر وخاصة فى ضوء أحداث هذه الليلة. قررنا الذهاب إلى المسرح مع بداية الحفل لمجرد الظهور إذا جاز التعبير. وبطبيعة الحال، لم نع شيئا من العرض.

تعلمت من خبرتى الطويلة فى العمل الدبلوماسى أن الحدس كثيرا ما يؤدى دورا مهما. وهو أمر ليس بمستغرب، حيث إن الحدس يعكس على نحو غير واع الخبرة المتراكمة. شعرت أن أمرًا جللا سيقع حتما فى هذه الليلة. غادرت الحفل مستترا بالظلام...

كان الوقت متأخرا، لكن رفاقى كانوا بانتظارى فى السفارة. كانوا قد استمعوا من الإذاعة إلى خبر استقالة شعراوى جمعة. والآن، تبث الإذاعة المارشات والأغانى الوطنية وهى إشارة على وقوع حدث ما مهم.

وما هى إلا برهة بعد إذاعة خبر قبول الرئيس لاستقالة شعراوى جمعة، حتى توالت أنباء الاستقالات. فقد قدم استقالته وزير الحربية محمد فوزى، ورئيس مجلس الأمة لبيب شقير، ووزير الإعلام محمد فائق، وأمناء اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى عبد المحسن أبو النور وضياء الدين داود وغيرهم. وقَبِلَ السادات استقالة كل من تقدم ذكره، وقام على الفور بتعيين رئيس الأركان اللواء محمد صادق وزيرا للحربية، كما عيَّن محافظ الإسكندرية ممدوح سالم وزيرا للداخلية.

بدأ الأمر فى الوضوح، يبدو أن الاستقالة الجماعية كانت بالفعل محاولة لممارسة الضغط على السادات حتى يعود للسير فى خط القيادات المصرية. ويبدو أيضًا أن أحدًا من هذه القيادات لم يفكر فى عواقب الأمور. فبعد أن عاد "المتآمرون"، كما أُطلق عليهم فيما بعد، إلى منازلهم بعد أن تقدموا باستقالتهم، خلدوا إلى النوم على أَسِرَّتهم. لم تكن هذه، بالطبع، محاولة انقلاب. فالانقلابات لا تتم على هذا النحو مطلقًا.

لكن هذا السلوك أدهش السادات. كان كما لو أنه هو الذى قام بنفسه باستثارة كل من تستهويه طريقته فى القيادة لتقديم استقالته. وها هو يجد على وجه السرعة بديلا لقيادتين ولقوتين حاكمتين – الجيش والشرطة. وهو ما يعنى أن هذين المرشحين كانا مُعدين له سلفًا. عندئذ تذكرت الكلمات التى قالها السادات لىّ منذ أقل من يومين فقط مضيا: "يمكنك أن تضع ثقتك – مثلى تماما – فى شعراوى جمعة، ومحمد فوزى وسامى شرف. هؤلاء دائرتى المقربة". لماذا قال لىّ ذلك؟ ثم عدتُ أفكر – ألم يقل لىّ السادات هذا وهو يضمر فى نفسه فكرة محددة؟

هزت الأحداث فى مصر العالم العربى بأسره، وشدت إليها انتباه العالم كله. وراحت صحافة الدول الغربية، لسبب ما، تؤكد بشدة على أن ضربة قاصمة أصابت العلاقات بين مصر والاتحاد السوفيتى. هذا ما كانت تتمناه الدول الغربية وكل من كان استقلال مصر استقلالا حقيقيا على غير هواه.

بعد يوم من اعتقال "المتآمرين" (وهى الصفة التى أُطلقت عليهم رسميا) استقبلنى السادات فى قصر الطاهرة. كان السادات، خلافا لعبد الناصر، يستقبل السفراء عادة فى

أماكن متعددة. لم يكن الرئيس الجديد يستقر فى مكان أكثر من يوم واحد. كان يستقبلنى تارة فى بيته فى القاهرة، وتارة فى قصر الطاهرة وفى المقر الرسمى لرئاسة الجمهورية الذى لا يفصل بينه وبين بيتى سوى شارع. (كان السادات قد أصدر أمرا بتحويل أحد المتاحف إلى بيت ضمه إلى بيته) وفى مقراته المختلفة فى هليوبوليس وحلوان والإسكندرية والمعمورة وبرج العرب، وفى بيته فى قريته فى مسقط رأسه، وفى مقر الاتحاد الاشتراكى العربى، بينما لم يكن ناصر يمتلك مسكنا خاصا به. كان يعيش هو وأسرته فى بيت متواضع تابع لإحدى الوحدات العسكرية. أما السادات فقد استغل وضعه واشترى بثمن بخس منزلا على شاطئ النيل وأثثه بأثاث فاخر باهظ الثمن ولكنه يفتقد إلى الذوق، ثم أغلق جزءا كبيرا من الكورنيش أمام عبور المواطنين.

لم تكن التفسيرات التى قدمها السادات مقنعة على الإطلاق، وإنما كشفت النقاب أكثر عن نهجه. كان وجهه يبدو شاحبًا ضامرًا وقد أحاطت عينيه هالات سوداء، وكان العرق يتصبب من وجهه طوال الوقت فلا يكاد يتمكن من تجفيفه بالورق. كان "تبريره" يتلخص فى أن على صبرى والقيادات الأخرى "أساءوا إلى هيبة السلطة، وأنهم تدخلوا بشكل سافر فى حقوق الرئيس"، وضرب مثالا على ذلك بقيام الاتحاد الاشتراكى العربى بإحباط فكرة إنشاء اتحاد فيدرالى يضم الدول العربية (مصر، سوريا، ليبيا، السودان). هذا كل ما فى الأمر! ثم حكى بعد ذلك القصة الوهمية التى دأبت أجهزة الإعلام على إذاعتها عن أن "شابا مجهولا" حضر ذات يوم إلى بيته يحمل أشرطة تسجيل عليها تسجيلات للسادات وأحاديث لشعراوى جمعة مع علىّ صبرى ومحمد فوزى وآخرين. وقد أدرك السادات من هذه التسجيلات مدى الشعور "العدائى" لديهم تجاهه. يقول السادات: "وعندما أردت أن أخاطب الشعب بعد أن قبلت استقالة هذه المجموعة لم يسمحوا لىّ بدخول مبنى الإذاعة والتليفزيون". وأكد السادات على أن الأحداث داخل القيادة المصرية لا يجب أن تنعكس بشكل سلبى على العلاقات مع الاتحاد السوفيتى.

كانت هذه إشارة لتهدئة الاتحاد السوفيتى، والهدف هو تقديم الأمر على أن العلاقات مع الاتحاد السوفيتى تسير سيرًا حسنًا، وهو ما حرصت على إبرازه الصحف الكبرى فى اليوم التالى حول مباحثات السادات مع السفير السوفيتى.

وفى محاولة منه لكسب تعاطف الشعب، جرى الترويج لقضية الشرائط باعتبارها واحدة من الجرائم الأساسية "للمتآمرين" الذين قاموا بالتنصت على "الآلاف" من المصريين. وقد بث التليفزيون مشهدا للسادات وبصحبته وزير الداخلية الجديد ممدوح سالم وقد بدت الجدية على وجهيهما وهما يقفان فى فناء وزارة الداخلية وقد راحا يلقيان فى النار بصناديق من أشرطة التسجيل. أما المصريون الذين اشتهروا بميلهم للفكاهة فتساءلوا: ولماذا يتم حرق أشرطة تسجيل مستوردة؟ كان من الممكن مسح التسجيلات التى عليها؛ فضلا عن ذلك فإن هذه الأشرطة تمثل الأدلة المادية "للجرائم" التى ارتكبت.

وحتى انتهى من قصة التنصت، أذكر هنا واقعة نادرا ما تحدث فى عالم الدبلوماسية. بعد شهرين من حرق الشرائط التقيت صدفة على أحد الشواطئ فى الإسكندرية بالكاتب الصحفى هيكل. وبطبيعة الحال دار الحديث عن الأحداث التى وقعت مؤخرا. لم يكن هيكل متعاطفا مع "المتآمرين"، وكان يرى فى تلك الفترة أن السادات يُوليه قدرا من الثقة على نحو أو آخر. وذكر لىّ هيكل أن السادات حدَّثه عن اتصالاتى "بالمتآمرين"، وكان أكثر ما أثار فضولى هو أن هيكل لم يكمل حديثه فى هذا الأمر حتى النهاية. أخبرت هيكل أننى كنت بالفعل ألتقى بهم فى إطار أدائى لمهام عملى بطبيعة الحال، وقد كانوا جميعا يشغلون مناصب حكومية رفيعة. بل إن السادات نفسه طلب منى مناقشة أمور معينة معهم، وهو الذى كان يقوم بتكليفهم بالذهاب إلى موسكو للتفاوض حول بعض القضايا المهمة، فما المدهش فى الأمر؛ أضف إلى ذلك أننى كنت دائما أحيط السادات علما بوجه عام بلقاءات العمل التى أعقدها معهم وكان دائما ما يسارع بالقول بأنه يعلم بذلك. وبالمناسبة، فقد أخبرت هيكل أننى سألت الرئيس فى شهرى مارس وأبريل، ثم مؤخرا قبل يومين من واقعة إحراق الشرائط عن أكثر المقربين إليه الذين يمكننى التحدث إليهم بصراحة وكان الرئيس يذكر لىّ فى كل مرة أسماء هذه الشخصيات التى سرعان ما اتهمها بالتآمر، والذين زجَّ بهم خلف القضبان؛ لماذا أوصانى بهذه الأسماء تحديدًا؟

تردد هيكل فى الحديث ولم يُجب، ولكنه فى الوقت نفسه قصَّ علىّ أن السادات سمح له بالاستماع إلى شريط تسجيل لمحادثة تمت بينى وبين سامى شرف فى التاسع من مايو ١٩٧١.

راودنى الشك فى صحة الأمر، لكن هيكل اقترح علىّ الذهاب إلى مكتبه حتى يُسمعنى الشريط. رفضت، بطبيعة الحال، لرغبتى فى عدم التورط فى هذه القصة، حتى إنى لم أُبد أى اهتمام بها، على الرغم من أننى كنت على ثقة أن ما دار فى تلك الأحاديث المسجلة لا يمكن أن يتضمن ما يمكن اعتباره إدانة للسفير السوفيتى. على أية حال، فقد أردت أن أتحقق من هيكل فسألته:

- وماذا دار من حديث آنذاك؟

- أكد سامى شرف أن تصرفات السادات لم تعد مفهومة، وأنه ماضٍ فى طريقه نحو التفاهم مع الأمريكيين، وأنه ليس من المعروف ما الذى سوف يُقدم عليه بعد ساعة أو ساعتين، ثم سأل السفير: ما الذى ينبغى علينا عمله معه الآن؟

- حسنا، وماذا كان رد السفير؟

أجاب هيكل ضاحكًا:

- أجاب السفير أن هذه ليست قضيته، السادات رئيسكم وعليكم الالتفاف حول الرئيس حفاظا على وحدة الإدارة داخل القيادة.

لقد ذكر هيكل ما حدث بالفعل.

ثم إذا بهيكل يضيف قائلا:

- عند هذه الفقرة من التسجيل الذى كان السادات يستمع إليه باهتمام ضرب كفا بكف على الطريقة العربية بأسف ثم صاح قائلا: "يا سلام! أفلت السفير وكان على شفا حفرة!".

- ماذا تعنى كلمة "أفلت" هنا؟ وعلى أى نحو كان علىّ أن أجيب عن هذا السؤال؟

راوغ هيكل فى الإجابة قائلا:

- لا أعرف، أظن أن الرئيس كان يُعوِّل بشدة على أن يسمع إجابة أخرى...

بعبارة أخرى: كان السادات يود لو استطاع أن يزج بالاتحاد السوفيتى فى هذه القصة وأن يربط بينه وبين "المتآمرين".

... لم يحظ السادات، استنادا إلى مظاهر كثيرة، بالتأييد الواسع أو الشعبية الجارفة التى كان عبد الناصر يتمتع بها. لقد حققت ثورة ١٩٥٢ بقيادة عبد الناصر كثيرًا من الإنجازات للكادحين، فقامت بالإصلاح الزراعى وأتاحت إمكانية التعليم والتأمين الاجتماعى وسنت قوانين للعمل وما إلى ذلك، لكنها لم تتمكن من القضاء على الفروق الاجتماعية... كما أن الغالبية العظمى من الشعب المصرى بقت على حالها من الأمية. والأمىّ، بحسب تعبير لينين، خارج السياسة. ولهذا فإن غياب الجماهير عن المشاركة الفعَّالة فى إعادة بناء البلاد، والسلبية تجاه ما يحدث فى الشأن السياسى كانا يمثلان الخطر الأكبر المحدق بثورة ١٩٥٢ الوليدة والتى إن لم يكتمل نموها لانتقلت السلطة بطريقة أو أخرى إلى الأقوى، والأقوى كان ولا يزال هو البرجوازية، وكان السادات هو التعبير الأمثل لمصالحها. لم تتخذ أغلبية الشعب موقفًا تجاه التصرفات التى اتخذها السادات ضد أنصار ناصر والتى وصلت إلى حد مطالبة النيابة بإعدامهم. على أن غالبيتهم صدرت ضدهم أحكام بالأشغال الشاقة، بينما حُكم على الباقين بالسجن لمدد طويلة.

ظل كثير من المصريين لا يعرفون جوهر الخلافات بين السادات والقيادات السياسية التى تبقت من العصر الناصرى، كما لم يعرفوا نياته فى التوجه نحو التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية والاتصالات السرية التى جرت بين الأمريكيين والرئيس السادات الذى نجح فى إخفائها. وعلى عجل راح الأمريكيون يفسحون المجال لقوى اليمين ويضاعفون من ضغوطهم على السادات. كانت هاتان القوتان – اليمين المصرى والأمريكيون – يستهدفان إبعاد مصر عن الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى، ومن هنا ظهرت كل أشكال الشائعات المغرضة والافتراءات فى حق بلادنا، كما جرت محاولات تدريجية من أجل خلق مناخ معادٍ للسوفيت فى البلاد. كان من الضرورى، بطبيعة الحال، الحيلولة دون ذلك.

أستطيع أن أقول إن الشعب المصرى لا يزال يكن مشاعر المودة العميقة للاتحاد السوفيتى وللمواطنين السوفيت. لقد أتيحت لنا العديد من الفرص للاقتناع بأن "رشاش الوحل" العدائى الذى أطلقه السادات أو جزء من الصحافة المصرية على بلادنا لم يجد دعما كبيرا أو حتى انتشارا بين الطبقات العريضة من الشعب المصرى. إن أهم ما يميز الشعب المصرى هو حبه للعمل والحياة، وعلى الرغم مما يكتنف حياته من مصاعب، وهو دائم الشك والسخرية من كل المسلمات التى تفرض عليه من أعلى، فإنه شعب لا يحب البديهيات ولا يؤمن بها وإنما يتناولها بحذر وريبة. إن الغالبية العظمى من الشعب تعانى من الأمية، لكن السواد الأعظم يعلم جيدًا أن أصدقاءه السوفيت وأن الدولة السوفيتية وقفا بجانبه فى أوقات الشدة.

ولا يزال المثال واضحًا بالنسبة للمصرى البسيط الذى يتذكر الثرى الإنجليزى المتعالى؛ والذى كان يتصرف فى بلادهم تصرف صاحب البيت، وهو الآن يرى الخبير السوفيتى المتواضع وهو يعمل إلى جانبه فى المصنع وموقع العمل، أو الضابط المستشار العسكرى الرفيق الذى يقاسم الجنود المصريين متاعب الحياة العسكرية. كان على السادات أن يدرك الظرف الموضوعى المتمثل فى مزاج المصريين وميولهم، وهو ما يفسر تصريحاته أحيانًا وكلماته الطيبة تجاه الاتحاد السوفيتى وإلحاحه بصورة استعراضية على توقيع اتفاق صداقة بين البلدين ودعوة قيادات سوفيتية رفيعة لزيارة القاهرة.

كان توقيع مثل هذا الاتفاق يلبى على نحو موضوعى مصالح دعم العلاقات بين الشعبين المصرى والسوفيتى ووقف أعداء هذه العلاقة من توجيه ضربة قاصمة إليها.

وقد رد الاتحاد السوفيتى على اقتراح السادات بشأن توقيع اتفاق الصداقة والتعاون بالموافقة. وتمت إبان المباحثات التى جرت فى القاهرة الموافقة على المقترحات جميعًا التى تقدم بها الجانب المصرى.

وفى السابع والعشرين من مايو ١٩٧١، جرى توقيع الاتفاق فى القاهرة، الأمر الذى أثار قلقًا واضطرابًا لدى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الفور وصل إلى القاهرة المبعوث الأمريكى ستيرنر قادما من واشنطن. وكان على السادات أن يؤكد لهذا الموظف الصغير أنه لا ينوى إدخال أية تغييرات على علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية.

بالنسبة للظروف التى تم فيها عقد هذا الاتفاق فإننى أُنكِّر هنا بشكل خاص، بصفتى شاهد عيان على الأحداث، أن السادات تحدث أكثر من مرة فى خُطبه أن الاتفاق كان "مفروضا" عليه من الجانب السوفيتى، وأن نَصه لم يراع الملاحظات وما إلى نلك. والحقيقة أن الأمر لم يجر على هذا النحو إطلاقًا.

لقد ظهرت هناك بوادر فتور فى العلاقات المصرية الأمريكية، وكان السادات فى حاجة إلى مزيد من الوقت ليجد حجة ما يثبت بها للولايات المتحدة الأمريكية وفاءه للعهد الذى قطعه على نفسه. وقد وجد السادات هذه الحجة فى مجموعة من الخبراء العسكريين والفنيين السوفيت الذين كانوا يقومون على تدريب العسكريين المصريين وعلى إعداد وحدات الدفاع الجوى.التى كانت مهمتها حماية الأجواء المصرية إبان الإعداد العاجل للأطقم المصرية، وهؤلاء جاؤوا إلى مصر بناء على طلب من ناصر والقيادة المصرية، التى كان السادات واحدًا منها. وهنا ظهرت سلسلة من الممارسات العدائية استهدفت إهالة التراب على النشاط المتفانى للعسكريين السوفيت الذين قاموا بنزاهة وشرف على إنجاز مهامهم العسكرية الأممية فى ظروف استثنائية بالغة الشدة.

أُورد هنا بعض الأمثلة فحسب. فى سبتمبر عام ١٩٧١ بدأت المخابرات الأمريكية التى كانت تعمل هى وعملاؤها على نحو سافر للغاية فى العمل المكثف ضد القوات المسلحة المصرية، وانتهى الأمر باكتشاف القضية التى عُرفت باسم "قضية راندوبولو" وهو مواطن مصرى كان يعمل مقاولا فى تشييد بعض المنشآت العسكرية تم تجنيده من قِبل الأمريكيين. وفى كتابه "الطريق إلى رمضان"، كتب هيكل يقول إن التى قامت بتجنيده فتاة اسمها "مس سوين"، كانت تعمل ضمن أعضاء بعثة رعاية المصالح الأمريكية التى ترفع العلم الإسبانى. وقد ألقت المخابرات المصرية القبض على راندوبولو وسوين. وفى هذا الوقت قام الجانب المصرى بإبلاغنا أن راندوبولو يعمل بالتجسس لصالح إسرائيل، وحاول المصريون اتهام العسكريين السوفيت بافتقاد اليقظة والحذر، ومن ثم، مساعدة الإسرائيليين!. من ناحيتنا نفينا وبشكل منطقى هذه الادعاءات المضحكة وأعلنًا أن مكافحة التجسس تقع مسؤولية الجانب المصرى وحده. فيما بعد قرأت باهتمام بالغ ما ذكره هيكل فى كتابه: "أن يوجين ثرون رئيس المخابرات المركزية فى مصر كتب خطابًا صريحًا، بعد

أن تكشفت أبعاد القضية، إلى رئيس المخابرات المصرية ورئيس جهاز مكافحة التجسس آنذاك الفريق أحمد إسماعيل، يقول فيه "إن أى من المعلومات التى حصلنا عليها من هذه الفتاة لم تصل قط إلى يد الإسرائيليين.. وأنها كانت لصالح الولايات المتحدة فقط، وبالمناسبة فربما تكون فى صالح مصر أيضًا، إذ يمكن بفضلها للحكومة الأمريكية أن ترد على الحكومة الإسرائيلية التى تبالغ فى تقديرها لحجم الأسلحة التى يقدمها الاتحاد السوفيتى لمصر والتى تتعلل بها لدى الولايات المتحدة الأمريكية لطلب صفقات جديدة من الأسلحة. وأود أن تعلموا أن مصر لم تكن هى الهدف من وراء عملية التجسس هذه، فكما تعرفون فإن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى منغمسون فى مواجهة شديدة.. ونحن نتجسس عليهم لا عليكم".

قرر السادات أن يطلق سراح الجاسوسة الأمريكية، وفى هذا السياق، أشار هيكل إلى أن ذلك كان بهدف مواصلة دعم هذه الفتاة للاتصال والتى أصبحت تمثل له (أى السادات) أمرًا غاية فى الأهمية: السادات – المخابرات المصرية – المخابرات المركزية – المجلس الأمريكى وكيسينچر.

فى مطلع عام ١٩٧٢، تعرضت مجموعة كبيرة من الضباط السوفيت، كانوا فى طريق عودتهم إلى الوطن، لتفتيش مهين فى مطار القاهرة. وكان الهدف من وراء ذلك، كما صرح موظفو الجمارك المصريون، إثبات صحة الشائعات السائدة التى تقول إن الروس يقومون بتهريب كميات كبيرة من الذهب... وبالطبع لم يسفر التفتيش عن وجود أى ذهب. كان علينا أن نتخذ إجراءات حاسمة فى هذا الشأن بما فيها مخاطبة الرئيس نفسه. وفى مساء نفس اليوم اتصل بىّ السادات وكنت وقتها فى ضيافة رئيس الوزراء عزيز صدقى فى بيته للتحدث فى بعض الأمور، قال لىّ السادات عبر الهاتف إنه يشعر بالخجل أن يقرر شخص ما فى مصر "مكافأة" العسكريين السوفيت على هذا النحو غير اللائق على ما بذلوه من جهد مخلص، وطلب اعتبار هذا الحادث منتهيا وكأنه لم يكن، أى إنه بهذا قد قدم اعتذاره بالفعل.

وفى حديث صحفى أدلى به السادات لمجلة "نيوزويك" الأمريكية اشتكى من أن عليه أن يدفع مبالغ مالية هائلة بالعملة الصعبة للاتحاد السوفيتى تمثل مرتبات العسكريين السوفيت العاملين فى الجيش المصرى. ولما كانت هذه المزاعم بعيدة تمامًا عن الواقع، فقد قلت للسادات مداعبًا فى أحد لقاءاتى به مستندًا إلى هذا الحديث إن العسكريين السوفيت مندهشون لعدم حصولهم على العملة الصعبة حتى الآن. تجهم وجهه ثم قال فى غضب مفتعل: هذه من بنات أفكار الصحفيين.

ومع ذلك، فقد صرح النائب الجديد لوزير الخارجية إسماعيل فهمى للصحافة أن الاتحاد السوفيتى حليف لا يركن إليه وأنه لن يذهب مع مصر "حتى النهاية" (أى نهاية؟)، وقد وصل الاستياء بوزير الخارجية المصرى والسفير السابق لدى موسكو مراد غالب إلى حد أنه سعى لعزل إسماعيل فهمى من منصبه نائبًا لوزير الخارجية (الذى حدث أن مراد غالب هو الذى تم عزله من منصبه ليصبح إسماعيل فهمى وزيرا للخارجية).

وأخيرًا حزم السادات أمره.

فى يوليو عام ١٩٧٢، تسلم السادات رسالة من نيكسون. وعندما التقيت به بعد عدة أيام بناء على طلبه، طلب منى فجأة وهو فى حالة شديدة من الاضطراب أن أبلغ موسكو، دون إبداء أسباب، أنه ليس بحاجة إلى خدمات العسكريين السوفيت فى مصر. هكذا دون كلمة شكر واحدة على ما قدموه من جهدٍ متفانٍ وإنكار للذات ودون كلمة عن أسباب هذا القرار المفاجئ، الذى لا يمكن تفسيره بصورة رسمية والذى ستكون له، دون أدنى شك، عواقب سياسية هائلة. لم تكن نبرة الرئيس تشوبها أدنى رغبة فى التعاون وقد شمل "قراره" بملاحظات لاذعة وحادة تمس العسكريين السوفيت، وهى ملاحظات لم أستطع، بطبيعة الحال، أن أرد عليها.

عندما أدركتُ أن الرئيس، على الرغم من كل محاولاتى، لا يريد أن يتطرق إلى لب الموضوع. كان علىّ أن أُذكره أن العسكريين السوفيت جاءوا إلى مصر نتيجة الإلحاح والطلبات المتكررة من الرئيس عبد الناصر، ومنه هو شخصيًا فيما بعد وبأمر من الحكومة السوفيتية وأنهم، وبغض النظر عن المصاعب التى واجهوها، قد أدوا واجبهم الأممى

بشرف وهم يضعون نصب أعينهم هدفًا واحدًا هو أن تكون مصر دولة قوية، وأنهم لا يستحقون هذه الكلمات التى قالها عنهم الرئيس، وإننى لن أفهم هذه الكلمات. ولما وجدت لديه الرغبة فى الاستمرار مرة أخرى فى إهانة العسكريين السوفيت، قلت له إنه إذا لم يكن لديه شىء آخر يقوله، فسوف أبلغ موسكو بما أعلنه. ودعته بإيماءة من رأسى وأنا أغادر المكان.

بعد خروجى، قام السادات، كما حكى لىّ هيكل فيما بعد، باستدعائه هو ورئيس الوزراء عزيز صدقى ووزير الحربية محمد صادق وأبلغهم "بقراره".

صاح هيكل: لماذا فعلت هذا؟ هل فكرت فى عواقب ذلك على الجيش؟ على البلد؟، وقال هيكل إنه شعر بطعنة لأن ناصر هو الذى ألحَّ على القيادة السوفيتية فى وجود السادات تحديدًا لإرسال عسكريين سوفيت إلى مصر، والآن يأتى السادات ليلغى بمفرده ما عمل ناصر بدأب على تحقيقه. لم أكن على علم آنذاك، بطبيعة الحال، بما كتبه هيكل فى كتابه "الطريق إلى رمضان" حول الرسالة السرية التى بعث بها رئيس الولايات المتحدة نيكسون إلى السادات والتى يقول له فيها: الآن يمكنكم أن تنعموا بالراحة وأن تفعلوا ما يحلو لكم. ولكن عليكم أن تتذكروا أن مفتاح حل مشكلة الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة الأمريكية. ليس عبثًا أن كتب كيسينجر فى مذكراته حول قرار السادات بإبعاد الخبراء العسكريين السوفيت – "لقد حصلنا منه على كل شىء ولم نعطه شيئًا".

بالطبع فقد غادر المستشارون العسكريون السوفيت ومعهم الفنيون مصر على نحو منظم، أما مشاهد الوداع فى الجيش المصرى فكانت مؤثرة للغاية. كثير من الضباط والجنود انخرطوا فى البكاء واعترفوا بهول الشعور المفاجئ بالوحدة و... الخجل لما أقدم عليه رئيسهم.

فكرت كثيرا فى ذلك القرار الذى اتخذه السادات. لا شك أن هذا القرار قد جرى اتخاذه قبل ذلك بكثير. ما الذى دفعه لاتخاذ هذه الخطوة التى أضعفت مصر سياسيًا وعسكريًا؟ لقد دَعَمَ وجود العسكريين السوفيت الجيش المصرى حتى وصل به إلى المستوى المطلوب من الإعداد؛ فضلا عن ردع إسرائيل عن القيام بعمليات عسكرية كبرى ضد مصر. يكفى

أن نذكر التوقف الكامل للغارات الجوية التى كان الإسرائيليون يقومون بها على المناطق المأهولة بالسكان بعد أن أصبحت مُؤمَّنة تماما.

بعد عدة أيام من إعلان قرار السادات بإبعاد العسكريين السوفيت أخبرنى السفير البريطانى لدى مصر بصراحة مذهلة قائلا: "كنا فى السابق نسعى بشكل أو آخر لتسوية أزمة الشرق الأوسط بسبب وجود العسكريين السوفيت فى مصر، الذين كنا نرى ضرورة مغادرتهم مصر. أما الآن وقد غادرها عسكريوكم، فلم يعد لدينا الحافز بتسوية المشكلة". وهكذا تخلى السادات عن ورقة الضغط التى كان العرب يملكونها، والتى كانت ستساعد على تسوية الصراع فى الشرق الأوسط.

إذن، فقد كانت لدى السادات خطط ما فى علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية، وكانت تصرفاته هذه تلويحًا له يقول: "أنا معكم!". لكن التقارب بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية، والذى راحت إسرائيل تؤيده بنسبة ١٠٠٪ كان بحاجة إلى ما يدعمه ويبرره. لم يكن ذلك ممكنا إلا فى حالة ما إذا ظهرت الولايات المتحدة بمظهر مختلف تبدو فيه صانعة للسلام أو، إذا جاز التعبير، "السمسار الشريف". لنتذكر: هنا مكمن الخطورة فى تصرفات السادات وهو ما رآه الناصريون تحديدًا.

كان عام ١٩٧٣ موعدًا لحدث ذى مغزى عالمى وقع فى الشرق الأوسط ألقى بالضوء على طريق ظهور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. لقد اشتعلت العمليات العسكرية الضخمة التى كان أطرافها مصر وسوريا وإسرائيل، والتى عُرفت باسم حرب أكتوبر أو حرب رمضان.

- ٣ -

كان التوصل إلى حل الصراع العربى الإسرائيلى أو، بتعبير أدق، استعادة الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل، بما فيها الأراضى المصرية، وكذلك ضمان حقوق الشعب العربى الفلسطينى هو القضية الأساسية أمام السياسة الخارجية لمصر؛ فضلا عن كونها

القضية الكبرى التى حددت مسار الوضع السياسى الداخلى للبلاد. لقد كان نفاد صبر الدوائر صاحبة التوجه الوطنى الحقيقى تجاه تحقيق العدالة على وجه السرعة أمرًا له ما يبرره. ولهذا السبب عمل ناصر على دعم الوضع الاقتصادى لمصر وإعادة بناء القوات المسلحة المصرية بمساعدة الاتحاد السوفيتى واتخاذ خطوات سياسية كبرى على الساحة الدولية، واستطاع أن يكسب لمصر فى مجال العلاقات الخارجية العديد من الأصدقاء المخلصين وعلى رأسهم الاتحاد السوفيتى.

بعد وفاة ناصر، كان من الواضح أن قضية إزالة آثار العدوان أصبحت موضوعًا للمضاربة السياسية الداخلية والتى تجلت فى صراع السادات مع خصومه. أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فقد أصبحت وسيلة من وسائل الضغط إما على الاتحاد السوفيتى (بهدف إلقاء مسؤولية عدم التوصل إلى تسوية على عاتقه، وفى نفس الوقت فى السعى للمطالبة بالحصول على مساعدات متميزة)، وإما على الولايات المتحدة الأمريكية (بهدف لفت الانتباه إلى نية السادات فى تغيير النهج السياسى للبلاد والتلويح باتخاذ حليف له).

كان الرئيس الجديد، شأنه شأن سلفه، يدرك جيدًا أن التوصل إلى حل لقضية الصراع فى الشرق الأوسط دون مصر، الدولة العربية الأكبر والأكثر تقدما والأقوى من الناحية العسكرية، أمر مستحيل. وأنه ما دامت إسرائيل تحظى بدعم مطلق من الولايات المتحدة الأمريكية وأن لها اليد الطولى على الأراضى التى تحتلها، فإن التوصل إلى حل سلمى للصراع فى الشرق الأوسط بالنسبة للعديد من الدول العربية وحكوماتها هو أمر يجافى الواقع، وأنه لم يبق أمام هذه الدول سوى الاعتماد على القوة، التى يعد استخدامها شرعيًا مادام الحديث يدور عن استرداد ما أخذته إسرائيل بالقوة، وهى التى تعترف بذلك علنًا فى كل مكان. لم يكن بمقدور الدول العربية الأخرى بطبيعة الحال، أن تخوض غمار الحرب ضد إسرائيل دون مشاركة مصر.

ومما لاشك فيه أن السادات شعر بتفرد وضع مصر وخاصة أن التوصل إلى عقد اتفاق تعيد إسرائيل بمقتضاه الأراضى المصرية المحتلة فى شبه جزيرة سيناء مقابل السلام كان أمرًا أكثر سهولة بالنسبة لإسرائيل من إعادة حقوق الفلسطينيين

وإعطاء العرب قطاع غزة وتحرير الضفة الغربية لنهر الأردن وإعادة مرتفعات الجولان إلى سوريا والانسحاب من الأراضى اللبنانية. كان باستطاعة مصر دائما استعادة أراضيها مقابل الصلح المنفرد مع إسرائيل، ولكن هذا كان يعنى خيانة المصالح العربية المشتركة وعلى رأسها مصالح الفلسطينيين وسوريا والأردن ولبنان. لم تراود ناصر مطلقًا فكرة هذه "الإمكانية"، بينما قرر السادات أن يمضى قُدمًا فى طريق الاستفادة من ورائها. فما أن يقف على هذا الطريق، حتى يمكنه الاعتماد على دعم الولايات المتحدة الأمريكية. كان عليه فقط أن يجد الوسيلة لظهور الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ظهورًا "منطقيًا".

كانت العلاقات المتطورة بين مصر والاتحاد السوفيتى هى التى تقف حجر عثرة أمام دعم العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. وها هو السادات، كما رأينا، يعمل على إضعاف العلاقات مع الاتحاد السوفيتى على الرغم من ذلك أدى إلى إضعاف مصر والصف العربى بأكمله. ومن ثم فإن الاحتفاظ بالعلاقات السوفيتية المصرية ودعمها كانا ضروريين من أجل مساندة القضية العربية العادلة بوجه عام ولصالح مواجهة ضغوط القوى الإمبريالية العالمية على الدول العربية.

تمثلت صعوبة اتخاذ الإجراءات العملية فى علاقتنا بمصر فى أنه كان علينا ونحن ننفذ خطنا الثابت فى سياستنا الخارجية العامة أن نراعى بلباقة التأثيرات التى كانت تتعرض لها مصر والحكمة تجاه التصرفات السلبية غير اللائقة والعدائية من جانبها تجاه الاتحاد السوفيتى والتى أصبحت أمرًا مميزًا لسياستها الخارجية فى عهد السادات.

كانت العلاقات بيننا وبين مصر كثيفة للغاية وهو ما شكّل إحدى المهام الصعبة أمام عملنا الدبلوماسى الذى كانت السفارة السوفيتية جزءًا مهمًا فيه. على سبيل المثال، فمنذ نهاية عام ١٩٧٠ وحتى نهاية عام ١٩٧٣ زار الاتحاد السوفيتى ثمانية وفود مصرية رفيعة المستوى (ثلاثة منها كان على رأسها السادات نفسه)، بينما وصلت إلى مصر سبعة وفود سوفيتية رفيعة المستوى. وخلال هذه الفترة القصيرة تسنى لىّ بالمناسبة السفر من القاهرة إلى موسكو اثنى عشر مرة والعودة بطبيعة الحال.

... بعد القرار الذى اتخذه السادات بإبعاد العسكريين السوفيت من مصر، وهو ما مَثَّل دليلا على التحدى، سألنى كثير من الرفاق فيما بعد، عندما أصبح سقوط السادات أكثر وضوحًا: ألم نكن نرى وجهه الحقيقى، ألم يكن توجهه معروفًا؟ بالطبع. لكن كثيرًا من التفاصيل، المهم منها تحديدًا، تم إخفاؤها بإحكام ولم يتم الكشف عنها إلا مؤخرا. لكن تصوراتنا عن الخط الجديد للقيادة المصرية كانت صائبة، وهو ما أكدته الأحداث التى جرت بعد ذلك. إن سياستنا لا تقف على هذا الشخص أو ذاك، وإنما على القضية الأساسية التى نعمل من أجلها. صحيح أننا نضع فى اعتبارنا خصائص الشخصيات وتوجهاتهم عند اتخاذ الإجراءات العملية، لكن هذه الإجراءات تكون موجهة بالدرجة الأولى بحيث نحافظ من خلالها على نهجنا العام آخذين فى الاعتبار الظروف الموضوعية المحددة.

لقد كان نهجنا الذى اتبعناه فى الشرق الأوسط وسيبقى هو تحقيق السلام العادل لكل دول المنطقة، وهذا السلام لا يمكن تحقيقه دون عودة الأراضى العربية التى احتلتها إسرائيل وضمان الحقوق المشروعة للفلسطينيين، بما فى ذلك حقهم فى إقامة دولتهم المستقلة وضمان أمن وسلامة شعوب ودول المنطقة جميعًا، بما فيها إسرائيل. كل هذا لا يمكن تحقيقه إلا بالتخلص من تأثير القوى الإمبريالية التى تتمثل مصالحها فى تحويل الشرق الأوسط إلى رأس جسر لها للاعتداء مستقبلا على استقلال الدول الأخرى، لكى تصبح هذه الدول ذاتها رأس جسر ضد الاتحاد السوفيتى وعلى الحدود الجنوبية القريبة من بلادنا. إن نهجنا فى الشرق الأوسط قائم من أجل الصداقة مع الدول العربية وغيرها من الدول والشعوب على أساس مبدأ التعاون المشترك معها.

... منذ اللحظة الأولى على تقلده سدة الحكم، وكما ذكرنا من قبل، أطلق السادات شعار: عام ١٩٧١ هو عام الحسم فى الصراع العربى الإسرائيلى ! كيف، ومتى، وبأى وسيلة، وعلى أى أساس. لم تكن هناك إجابة. "الحسم" وكفى. على الفور بات واضحا أن الأمر مجرد شعار وحسب. ومن ثم فهو غير قابل للتحقيق. فيما بعد اضطر المحيطون بالسادات إلى تقديم تفسير على النحو التالى: إن عام ١٩٧١ هو عام "الحسم" بمعنى أنه ينبغى فيه اتخاذ القرار، الذى يجب اتخاذه لحسم المشكلة. لم يزد الأمر على أن يكون مراوغة لفظية. ثم جاء عام ١٩٧٢ ليصبح أيضا عام "الحسم"، وهنا أسقط السادات فشله

على الاتحاد السوفيتى مُدَّعيًا أنه انشغل بتقديم الدعم... إلى الهند!. ثم حل العام ١٩٧٢ لتشهد كواليس الاتصالات بين السادات والأمريكيين تصاعدًا محمومًا.

تَمثَّل النهج الأمريكى فى زيادة الضغط على مصر؛ أو بالأحرى على رئيسها وفى الإلحاح المستمر عليه بفكرة أن الولايات المتحدة الأمريكية وحدها هى القادرة على دفع قضية التسوية فى الشرق الأوسط نحو التحرك، أى "بالتأثير" على إسرائيل. ولكنهم راحوا يؤكدون فى الوقت نفسه على أن الولايات المتحدة لن تنفذ ذلك "دون مقابل" وأن الثمن يتلخص فى تقليص، ثم القضاء الكامل على ما يعرف بـ "الوجود السوفيتى" فى الشرق الأوسط، وفى مصر بالدرجة الأولى، وخاصة الوجود العسكرى. كان ذلك، بطبيعة الحال، مضاربة بحتة تأكدت فيما بعد. لكن هذه المضاربة كان لها التأثير الأكبر على شخص الرئيس نفسه.

فى نهاية عام ١٩٧٢ سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومى حافظ إسماعيل، الذى أجرى عددًا من اللقاءات السرية مع نيكسون وكيسينجر، وللتمويه على هذه الزيارة قام حافظ إسماعيل بزيارة لندن وموسكو. وفى زيارته لواشنطن تم الاتفاق على شىء ما.

وبحلول مايو عام ١٩٧٣ قام السادات بتركيز كل السلطات المكنة فى يديه. لم يكتف بأن يكون رئيسا له كل الصلاحيات، وإنما شغل أيضا مناصب رئيس الوزراء والقائد الأعلى للقوات المسلحة ورئيس الاتحاد الاشتراكى العربى ولقب آخر هو الحاكم العسكرى الأعلى. لا أظن أنه فى تاريخ مصر الحديث والقديم كان هناك من تجمعت لديه كل هذه السلطات القوية.

تراجع التعاون بيننا وبين المصريين، كما تراجعت من جانبهم مشاعر الإخلاص والصراحة.

فى الثانى والعشرين من سبتمبر عام ١٩٧٣ وبعد عودتى من الإجازة، قمتُ بزيارة السادات. فى هذه المرة أخبرونى أنه سيستقبلنى فى برج العرب، وهو مكان يقع فى قلب الصحراء غرب الإسكندرية.

كان من اللافت للنظر أن الساحة المحيطة بهذا البيت الصغير الضائع فى الصحراء قد امتلأت بعدد من السيارات تحمل لوحات تشير إلى أنها مخصصة للشخصيات الحكومية الأجنبية رفيعة المستوى. وقد اتضح أن السادات كان يستقبل نيلسون روكفلر وبعض الشخصيات الأمريكية الأخرى. رافقنا بعض الحراس إلى قاعة استقبال جانبية وفيها كان يتناهى إلى أسماعنا صوت ضحكات الأمريكيين المجلجلة. مضت عشرون دقيقة وأكثر على الموعد المحدد، وعندها أخبرنا الضابط المكلف أنه إذا كان الرئيس مشغولا اليوم إلى هذا الحد، فسوف نغادر المكان وليحدد لنا موعدا آخر. خرج الضابط إلى مكان ما وبعد أن عاد أخبرنا أن الرئيس مستعد للقائنا الآن.

كان الرئيس لا يزال واقعا تحت تأثير الحديث الذى انتهى منه للتو. كان ينظر باتجاه ما بالقرب منا، وكان من الواضح أنه لم يستعد تركيزه للتحدث معنا بعد. وفى النهاية بدأ حديثه متخيرا كلماته بدقة قائلا: إن الوضع المتعلق بتسوية قضية الشرق الأوسط بات "غير محتمل". ثم ماذا سيحدث لو أنه (السادات) "فجَّر الموقف"؟ ما الذى يمكن للآخرين أن يفكروا فيه؟

على الفور خطرت على بالى فكرة: هل يمكن أن يكون السادات قد قرَّر البدء فى العمليات العسكرية؟ وأين ذهبت تأكيداته بأنه مرتبط ارتباطا وثيقا فى هذا الشأن بالاتحاد السوفيتى، وإنه سوف يتبادل الرأى والمشورة معه، فالعمليات العسكرية هى الخطوة الأخيرة فى السياسة، وفى الغالب لا يمكن التنبؤ بنتائجها. وفى سياق العمليات العسكرية دائما ما يؤمن كل طرف بأنه هو الذى سيحرز النصر، وفى النهاية ينتصر طرف واحد، بينما يخسر الآخر. وغالبا ما يكون المهزوم هو من بدأ الحرب. لم يقدم لنا الرئيس أية تفسيرات، وإنما ظل، كما يقولون، "يداور ويناور".

دفعنى الحديث مع الرئيس دفعا إلى أن أعاود النظر مليًا فى الموقف فى البلاد مرة أخرى. لم تكن هناك أية مؤشرات مباشرة بشأن بدء العمليات العسكرية فى القريب العاجل، لكن المؤشرات غير المباشرة كانت محسوسة، لكن ذلك لم يكن كافيا للوصول إلى استنتاجات محددة. فذات يوم توقف رتل من السيارات كان يسير فى أحد شوارع

القاهرة لمدة طويلة، وكانت السيارة التى تُقلنى واحدة من بين هذه السيارات. كان الهدف فتح الطريق لرتل آخر من سيارات النقل العسكرية تحمل زوراق مخصصة لعبور الموانع المائية. فكّرت أنه لو كانت هناك استعدادات تجرى لخوض الحرب، فلماذا ينقلون هذه المعدات على هذا النحو الاستعراضى ليعلنوا عن عبور قناة السويس؟ ناهيك عن أن الضباط المصريين بدأوا فى الظهور بملابس الميدان. وإذا كانت هناك استعدادات تمت ملاحظتها داخل القوات المسلحة، فإن شيئا من الاستعدادات تجاه وقوع أية عمليات عسكرية لم يلاحظ فى العمق.

فى الثالث من أكتوبر، كنتُ فى زيارة للسادات فى منزله الخاص القريب من السفارة. وفى سياق الحديث الذى دار بيننا، تحدث السادات عن الاستفزازات المستمرة التى تقوم بها إسرائيل، وعن إمكانية قيام المصريين برد عسكرى ضد ما أسماه "الاستفزاز الكبير"، وأردف قائلا "وليكن ما يكن". وردا على سؤالى حول ما إذا كانت هناك تصورات بشأن موعد ومستويات هذا الرد، أكد السادات أنه سيخبرنى حتما عندما تقتضى الحاجة ذلك "فى حينه"، ومرة أخرى لم يذكر شيئا محددا، ولكنه طلب منى ألا أغادر القاهرة، وأن أظل فى انتظار مكالمة هاتفية منه.

فى اليوم التالى أبلغت السادات بأن موسكو اتخذت قرارا بنقل زوجات العاملين السوفيت وأطفالهم وطلبتُ منه مساعدة السلطات المصرية فى ذلك، وقد وافق السادات.

نجحنا فى زمن قصير للغاية فى نقل أكثر من ٢٧٠٠ امرأة وطفل، وكذلك حوالى ألف شخص من عائلات العاملين فى السفارة وغيرهم من الخبراء من الدول الاشتراكية الأخرى. كان النقل يتم دائما ليلا فى حافلات إلى الإسكندرية ثم إلى السفن السوفيتية أو على رحلات جوية خاصة من القاهرة (فى حالة ما إذا لم يكن المطار معلقا). وقد خصصنا فى السفارة هيئة خاصة للإخلاء. جدير بالذكر أن المستشار الاقتصادى ن. ل. لوباتين والممثل التجارى أ. إ. لوباتشيف والمستشار ب. س. أكوبوف والسكرتير الأول ف. ن. يودين قد بذلوا جهودًا مضنية فى هذا الصدد.

وعلى الرغم من أن السادات تجنب مرة أخرى التصريح لىّ بأية معلومات محددة، مع أننى حاولت تغيير دفة الحديث إلى موضوعات أكثر تحديدًا، فقد أصبح من الواضح تماما أن أعمالا عسكرية سوف تبدأ اليوم. عندئذ خطرت ببالى فكرة: على أى نحو سوف يخبرنى الرئيس عند وقوع الحدث الأهم "فى حينه" كما أخبرنى من قبل ! وما هذه "المعلومات"؟ أضف إلى ذلك أنه سيخبرنى بها قبل وقوعها بساعات أربع. وأين هو من وعوده بالتشاور وهلم جرا. [١]

أسرعت عائدًا إلى السفارة حيث وصلتها ظهرًا تقريبًا. وبعد أن تعاملت مع المعلومات العاجلة، قررت أن أتناول غداءً خفيفا متوقعا أن أوقات الطعام والنوم سوف تتضاءل فيما بعد. وفى الثانية ظهرًا تقريبًا دق جرسُ الهاتف المنزلى العادى. طلبت من السكرتيرة ڤافا جوليزادى أن ترد، فإذا بها تعود لتخبرنى: "الرئيس يريد التحدث معك" راودنى الشك. الرئيس يطلبنى على الهاتف العادى؟ أمسكتُ بالسماعة فإذا بصوت السادات يأتينى متهللا: "سيادة السفير ! ... نحن الآن على الضفة الشرقية للقناة ! والعلم المصرى يرفرف عاليًا على الضفة الشرقية ! لقد عبرنا القناة !".

هكذا بدأت حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهى حرب تستحق وصفًا مستقلا وتحليلا تفصيليًا وافيًا، بما فى ذلك تلك الأحداث كما رآها شهود العيان، الذين كنت من بينهم ومعى العاملون بالسفارة السوفيتية فى القاهرة. ونظرًا لأن ما نُشر هنا فى الوقت الحالى لا يسمح بذلك فسوف أكتفى ببعض الجوانب العامة، التى بإمكانها، من وجهة نظرى، أن تلقى الضوء على نحو ساطع على ما وقع من أحداث، أو تعرض حقيقة عدد من الظواهر تم تزييفها بعناية فيما بعد على يد الأمريكيين أو على يد السادات نفسه.

على مدى شهر أكتوبر ومطلع شهر نوفمبر تسنى لىّ مقابلة الرئيس السادات عمليًا مرة كل أسبوع، وأحيانًا عدة مرات فى الأسبوع الواحد. كما تعددت أحاديثى معه بواسطة

---

(١) يذكر هيكل فى كتابه "الطريق إلى رمضان" إن مسألة إبلاغ السفير السوفيتى أو عدم إبلاغه عن بدء الأعمال العسكرية المقبلة، كانت موضوعا لنقاش واسع. وقد اتخذ فيه هيكل موقفا إيجابيًا، أما السادات، كما سنرى لاحقا، فقد تصرف على نحو آخر– ملاحظة للمؤلف.

هاتف خاص مغلق بيننا، تم تركيبه بأمر من السادات من طراز "بى. بى. إكس". كما استمر الاتصال بينى وبين موسكو عبر خطوط الهاتف والراديو. اتخذت السفارة آنذاك كل إجراءات التعتيم والتمويه الصارمة وأعدت مخبأ محصّنًا، كما تم تخزين احتياط كاف من المواد الغذائية ومياه الشرب وبطاريات الإضاءة والشموع والكبريت والأدوات المكتبية والأدوية والمهام الطبية. وبمساعدة من تبقى من النساء تم تنظيم وجبات جماعية فى مبنى المدرسة. باختصار، اتخذت حياتنا طابع المعسكرات. كنا ننام من ثلاث إلى أربع ساعات فى اليوم.

شهدت الأيام الأولى للحرب، كما هو معروف، نجاحًا مطردًا لصالح المصريين؛ ففى خلال عدة ساعات تمكنوا من عبور قناة السويس على امتدادها ليتمركزوا على الضفة الشرقية لها. كانت الخطة الموضوعة تقضى بأن يستغرق هذا الجزء من العملية لا أقل من يوم بأكمله، وتفترض أن تصل خسائر القوات المصرية المشاركة على نحو مباشر فى عبور القناة إلى ثلث هذه القوات. على أن الخسائر تراوحت بالفعل ما بين ١٠ إلى ١٥٪. باء الهجوم المضاد الذى شنته القوات الإسرائيلية بالفشل، كما أن قوة المقاومة لدى الإسرائيليين لم تكن ذات أهمية. ظهرت منظومة الصواريخ المضادة للطائرات باعتبارها قوة فعّالة مثّلت حاجزًا منيعًا تهاوت أمامه الطائرات الإسرائيلية، كما شكّلت هذه المنظومة "مظلة" واقية وفّرت الحماية للقوات المصرية المقاتلة.

وعلى الأرض أظهرت الصواريخ المضادة للدبابات، المعروفة باسم "ماليوتكا"(*)، كفاءة عالية ودقة متناهية فى إصابة الهدف، وهو ما أنزل بالإسرائيليين على الفور خسائر فادحة. كما أثبتت الأسلحة والمعدات الأوتوماتيكية الخفيفة والمعدات ذات الحركة الذاتية التى كانت ضمن تسليح الجيش المصرى قدرة فائقة فى ظروف القتال فى الصحراء المكشوفة.

(*) ماليوتكا: تعرف اختصارا باسم آر. بى. جى – صواريخ محمولة باليد مضادة للدبابات. (المترجم)

كان السادات فى أوج سعادته من جراء الكفاءة الرفيعة للأسلحة، وكان دائمًا فى أحاديثه معى يوجه الشكر للاتحاد السوفيتى بعبارات جزلة. وقد قال لىّ ذات مرة وقد أخذه الحماس: - "سيأتى اليوم الذى أتحدث فيه عن المساعدة العظيمة التى قدمها لنا الأشقاء السوفيت!". لم يكن الأمر متوقفًا على مجرد الكفاءة العالية للمعدات العسكرية السوفيتية التى أثبتت تفوقها على نظيرتها الأمريكية الموجودة فى يد الإسرائيليين، وإنما بتأثير الجهد الطويل الدؤوب الذى بذله المستشارون العسكريون السوفيت وإلى جوارهم الخبراء الفنيون المختصون الذين عملوا على النهوض بالجيش المصرى من كبوته التى مُنِى بها فى عام ١٩٦٧، وفى إعادة الثقة له ثم تدريبه تدريبا رفيعا تحت شعار "التدريب الشاق يجعل المعركة سهلة". وهو ما حدث بالفعل دون أدنى شك. لكن أمورا كثيرة كانت مثارا للحيرة. كيف عجز الإسرائيليون، وهم يملكون جهاز استخبارات ذى كفاءة عالية، عن ملاحظة تمركز القوات المصرية عند قناة السويس (لن أتحدث هنا عن المخابرات الأمريكية وما تملكه من أجهزة فنية متطورة)، وهل كانت العمليات العسكرية التى قامت بها القوات المسلحة المصرية والسورية مفاجئة إلى هذا الحد بالنسبة للقوات المسلحة الإسرائيلية؟ لماذا كانت القوات الأساسية الإسرائيلية متمركزة فى الشمال بالقرب من الحدود السورية، بينما كانت القوة الرئيسية العربية — القوات المسلحة المصرية — مرابطة عند الجنوب؟ لماذا رفض السادات دخول الملك حسين ملك الأردن المعركة، وكان من الممكن أن تقوم القوات المسلحة الأردنية بتنفيذ مهمة غاية فى الأهمية؛ وهى قطع الطريق أمام القوات الإسرائيلية القادمة من الشمال، من الجبهة السورية، متجهة إلى الجنوب، إلى الجبهة المصرية؟ لماذا لم تبد القوات الإسرائيلية المرابطة شرق قناة السويس مقاومة حاسمة فى مواجهة الهجوم المصرى، بل وصدرت لها الأوامر بعد فترة قصيرة بالانسحاب وبحسب التقديرات التى يراها قادتها؟ كيف يمكن تفسير، على سبيل المثال، ما نشرته وكالة أنباء الشرق الأوسط المصرية فى الثانى من أكتوبر عن إعلان حالة التأهب القصوى فى الجيشين الثانى والثالث اللذين عبرا قناة السويس؟ ألم تنتبه وسائل الإعلام الإسرائيلية إلى ذلك؟ مثلما لم تنتبه إلى عملية الإخلاء الضخمة للنساء والأطفال الأجانب من مصر؟ إن العديد من الأسئلة المتعلقة بحرب أكتوبر لا تزال بلا إجابة حتى الآن، ومن ثم فإنه ليس من قبيل المصادفة أن كثيرًا من

الباحثين فى شؤون حرب أكتوبر قد طرحوا سؤالا يقول: "هل كانت العمليات العسكرية التى جرت بين مصر وإسرائيل "مخططا" لها مسبقا؟" إذا كان الرد بالإيجاب لوجدنا عندئذ كل الإجابات المنطقية للأسئلة التى طرحناها، ولأصبحت المحصلة السياسية النهائية للحرب هى ما حدث مؤخرا – إحباط مؤتمر چينيف الدولى للسلام ومعاهدة "كامب ديڤيد" وغيرها – أمرا أكثر وضوحًا.

لقد تسللت هذه الأفكار، بطبيعة الحال، إلى رأسى. لكن الأمر العاجل فى هذا الوقت كان مختلفا تمامًا. لقد راحت العمليات العسكرية تتصاعد على نحو جاد، وفى لحظات الحرب كان من المهم أن تكون هذه العمليات واضحة أكثر من أى وقت آخر...

... لقد شن الجيش السورى هجومه الناجح فى نفس الوقت مع الجيش المصرى، واستطاع استرداد مرتفعات الجولان من أيدى القوات الإسرائيلية. وبينما كان المصريون يطورون هجومهم إلى الأمام، إذا بهم... يتوقفون. وهنا ركزت القوات المسلحة الإسرائيلية كل جهودها على الجبهة السورية، وسرعان ما استردت الأراضى التى حررها السوريون لتتقدم باتجاه دمشق ولتبدأ فى شن غارات جوية مكثفة على المدن والموانئ السورية. وهكذا أوقف الجيش المصرى عملياته القتالية، على الرغم من أنه بات واضحا أن المناورة الاستراتيجية للإسرائيليين تمثلت فى تفتيت خصومها إلى جزأين – سوريا أولا، ثم مصر من بعدها. كان من المنطقى – من وجهة النظر العسكرية – أن يواصل المصريون تقدمهم، إذ كان من الصعب على إسرائيل أن تعيد الإمساك بزمام الأمور لو أن الحرب جرت بصورة فعلية على الجبهتين المصرية والسورية معا. لو أن... كل القضية كانت معلقة بهذه الـ "لو أن".

وردا على سؤالى حول الخطط العامة للعمليات العسكرية، أجاب السادات بعصبية بالغة قائلا إنه "لا ينوى الجرى فى سيناء"، وأن تكتيكه يتلخص فى إنزال أكبر خسائر ممكنة بالإسرائيليين وليس فى "الاستيلاء" على الأرض، وإنه سوف ينتظر قدوم قواتهم المسلحة الرئيسية (!) ليطحنها. إنه لمنطق عسكرى وتكتيك غريبين بعد أن أوشك المصريون على الاقتراب من ممرى "الجدى" و"متلا" فى سيناء وأصبح الطريق مفتوحا وممهدا إليهما. ومن المعروف أن من يمتلك هذين الممرين يمتلك بالفعل سيناء بأكملها.

فى التاسع والعاشر من أكتوبر بدأ السوريون فى التراجع. بينما توقفت القوات المصرية عن الحركة تماما. كانت هذه هى السياسة. وهى سياسة خلقت انطباعا لا إراديا أن القوات المصرية كما لو كانت قد "نفذت" ما كُلفت بفعله، وأن هذه القوات ليس لديها خطط أكثر. فى الواقع لم تكن هناك، ربما، أية خطط. ولكن كانت هناك خطط أخرى سياسية.

منذ اندلاع الصراع والنشاط السياسى العاصف يزداد أواره بين جدران الأمم المتحدة وفى عواصم معظم دول العالم. وانشغل مجلس الأمن بهذا الصراع، عندما طرح عليه مشروع القرار الأمريكى، الذى يطالب بسرعة وقف إطلاق النار وانسحاب القوات المتحاربة إلى مواقعها التى كانت عليها قبل السادس من أكتوبر. كان من الواضح أن الولايات المتحدة نفسها كانت تدرك عدم الشرعية السياسية فى طلب عودة القوات إلى مواقعها التى كانت عليها قبل نشوب الحرب يعنى موافقة العرب على "شرعية" احتلال إسرائيل لأراضيهم. فالعرب إنما قاموا بتحرير أراضيهم ولم يحتلوا أراضى غيرهم. وبطبيعة الحال فقد رفض العرب وأصدقاؤهم المشروع الأمريكى. وقد اتضح أن المشروع قد تم تقديمه على هذا النحو كسبا للوقت اللازم حتى تتمكن الولايات المتحدة من إرسال صفقات كبيرة من الأسلحة إلى إسرائيل. وهو ما تحدث عنه هنرى كيسينچر بعد ذلك فى مذكراته.

ناقشت الأمم المتحدة اقتراحًا بشأن اتخاذ قرار يطلب من الأطراف وقف إطلاق النار مع بقاء القوات المتحاربة فى مواقعها الحالية، وفى الوقت نفسه تم النظر فى تنفيذ قرارات الأمم المتحدة السابقة بشأن وقف احتلال إسرائيل للأراضى العربية. والآن، إذا ما نظرنا للماضى، يمكن أن نتصور أن قبول هذا القرار فى هذه اللحظة، وبعد أن استعادت سوريا بالفعل كل الأراضى التى احتلتها إسرائيل، كما قامت القوات المسلحة المصرية باستعادة ١٢ – ١٥ كيلومترًا على الضفة الشرقية بامتداد الجبهة على قناة السويس، أمرا فى صالح العرب، وخاصة أن وقف العمليات العسكرية فى هذا الوقت كان من شأنه أن يوفر فرصا جيدة لتسوية مجمل الصراع العربى الإسرائيلى على أسس عادلة. على أن هذا القرار قوبل بمعارضة شديدة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية و... مصر! لقد بدا "توافق" هذين الموقفين أمرا غريبا، فقد توقفت القوات المصرية تماما عن العمليات العسكرية، ولو

أنها كانت تواصل تقدمها فى تحرير أراضيها، لكان موقف مصر مفهوما.[1] أما موقف الولايات المتحدة الأمريكية فكان مفهوما، إذ كانت تنتظر هجوما إسرائيليا ضخما وكانت تواصل هى إمداداتها لصالح إسرائيل. فلماذا إذن لم توافق مصر على هذا المشروع؟

وقت طويل استغرقناه أنا والسادات فى بحث القرار الأفضل لمجلس الأمن بالنسبة لمصر وسوريا: كان الصمت يخيم على الجبهة المصرية فى تلك الفترة، بينما راحت إسرائيل مستندة إلى الجسر الجوى الأمريكى وعلى القواعد الأمريكية فى أوروبا فى الحصول على صفقات عسكرية ضخمة توجه آلتها العسكرية بكل ضراوة نحو سوريا. وكان السادات يرد قائلا: إذا كانت سوريا عاجزة عن الهجوم، فلتأخذ موقف الدفاع (وكأن اتخاذ موقف الدفاع أمر سهل) أو فلتشن حربا شعبية فلديها أراض واسعة.. وهلم جرا. لم يكن الوضع على الجبهة السورية يهمه فى قليل أو كثير. كان من الواضح أنه كان يمط الزمن منتظرا أمرا ما. ما هذا الأمر؟ ها هم الإسرائيليون يبدأون فى قصف المعابر المصرية على القناة.

فى السادس عشر من أكتوبر وردت إلينا أخبار مفاجئة تفيد بعبور خمس أو ست دبابات إسرائيلية إلى الضفة الغربية لقناة السويس!!

وقبل هذا اليوم بأسبوع تقريبا، وبعدما أصبح خط الجبهة على الضفة الشرقية واضحا، لفتنا انتباه القيادة المصرية على الفور بوجود فاصل كبير بين الجناح الأول للجيش الثانى والجناح الأيسر للجيش الثالث عند البحيرات المرة خلف القناة. كان هذا معناه أن جناحى الجيش عرضة لهجوم الإسرائيليين الذين يستطيعون فصل الجيشين عن القناة. ومن المعروف أنه لم يكن هناك فى هذه الفترة مستشارون عسكريون سوفيت فى الجيش المصرى. وقد أجاب العسكريون المصريون على أسئلتنا بأنها من "متطلبات تنظيم القتال". وهكذا تسللت الدبابات الإسرائيلية تحت جنح الليل لتعبر القناة إلى الشاطئ

---

(1) اتضح لنا فيما بعد من مذكرات كيسينجر والسادات على وجه الخصوص أن المباحثات الأمريكية المصرية كانت تجرى على قدم وساق فى الكواليس. – ملاحظة المؤلف.

المصرى الأفريقى لتتمركز تحديدا عند هذا الفاصل، عند حلق مدخل القناة فى البحيرات المرة.

وقد شرح لنا السادات الموقف بقوله: إن هذه الدبابات ما هى إلا "مجموعة تخريبية" وأن مصيرها "الهلاك"، ثم أردف قائلا لسبب ما أن هذه مناورات "سياسية" (؟) من جانب الإسرائيليين.

وفى مساء السادس عشر من أكتوبر وصل إلى القاهرة الكسىّ كوسيجين للتشاور مع السادات. وبينما كنا فى انتظار هبوط الطائرة فى المطار سألت حافظ إسماعيل مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومى عن الدبابات الإسرائيلية التى تسللت إلى غرب القناة، فأجاب بأنها "حكاية سخيفة" يتعامل معها العسكريون على النحو المطلوب وأنه لا داعى للقلق. وقد اتضح فيما بعد أن "العسكريين" لم يتخذوا فى الواقع أى إجراءات للتخلص من الثغرة بأوامر من "أعلى". وهكذا، أصبح الموقف الآن على الجبهتين لغير صالح العرب. فالمصريون لم يعد باستطاعتهم – حتى وإن أرادوا – تقديم أى دعم للجبهة السورية، حيث تم إيقاف هجوم الإسرائيليين على مقربة من دمشق بصعوبة بالغة.

وعلى الرغم من أن زيارة كوسيجين كانت تعتبر "سرية" فإن المصريين أعطوا للوفد تصريحا لدخول مطار القاهرة الدولى، الذى تحول إلى قاعدة لـ B.B.C، كُتب عليها "بمناسبة زيارة رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى"، كما وضعوا عند مقدمة السيارة المخصصة له العلمين المصرى والسوفيتى، ورافقتها الدراجات النارية.

راح الكسىّ كوسيجين ينظر باهتمام شديد من خلال نافذة السيارة إلى القاهرة فى الليل والتى من المفترض أنها تعيش، إذا جاز التعبير، "حالة حرب". وقد لاحظ الإهمال فى التعتيم على مصادر الإضاءة، كما شاهد عددا كبيرا من الشباب يتسكع، وغيابا كاملا، فى رأيى، لما يمكن أن نسميه "حالة حرب". كانت الحرب بالنسبة لكثير من المصريين البسطاء تبدو وكأنها تجرى بعيدا فى مكان ما بالقرب من القناة، يديرها عسكريون محترفون، أما لماذا تدور وما هى أهدافها، فهو ما لا يعرف عنه المصرى البسيط الأمىّ إلا قليلا. لم تكن أسماء أبطال الحرب معروفة (وهؤلاء لم يكن عددهم بالقليل) ولم تكن هناك إشارة واحدة

فى الصحافة أو الإذاعة والتليفزيون حول موقف الاتحاد السوفيتى (أبلغنى السادات أن كل ذلك كان متعمدا إخفاؤه "لأسباب أمنية". يا لها من رحب غريبة.

اجتمع السادات وكوسيجين لتبادل الرأى على انفراد، وأحيانا فى حضور السفير السوفيتى ومستشار الرئيس للأمن القومى. وكان السادات يعبر "ظاهريًا" عن مشاعر الود، لكنه نفى بعناد حدوث أية تغييرات سلبية فى الموقف العسكرى وطلب "ضمانات" ما فى حالة استمرار العمليات الحربية الإسرائيلية. ومرة أخرى يعود ليصف الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون ووصولهم إلى الضفة الغربية للقناة بأنها أمر تافه لا قيمة له، وأنها مجرد "مناورة سياسية".

وبعد نقاش طويل مستفيض استهدف استيضاح الوضع السياسى المصرى بدقة، أعلن السادات أنه قد وافق على وقف إطلاق النار، إذا ما قامت إسرائيل بتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٦٧ الخاص بانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى العربية المحتلة. وإلى أن يتم الانسحاب الإسرائيلى طلب السادات وضع قوات سوفيتية وأمريكية "عازلة"، من قبيل الضمان، بين القوات الإسرائيلية والمصرية، وأن يتم عقد مؤتمر دولى لتسوية مشكلة الشرق الأوسط (ومشكلة الفلسطينيين ومصير الضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة وغيرها من المشكلات).

بعد مغادرة كوسيجين القاهرة تلقينا أخبارا أخرى مزعجة: لقد عبرت ما بين ٣٠ إلى ٤٠ دبابة إسرائيلية إلى الضفة الغربية لقناة السويس ثم تزايدت أعدادها إلى أن وصلت إلى ١٥٠ دبابة احتلوا مطارا عسكريا ميدانيا وسرعان ما أقاموا رأس جسر وخاصة نحو الجنوب ودمروا نقطة مهمة من شبكة الدفاع الجوى تغطى الجيش المرابط فى الضفة الشرقية للقناة دون مقاومة تذكر. لم يتحرك الجيشان الثانى والثالث على الضفة الشرقية واللذان كان يتمركز فى مؤخرتهما على الضفة الغربية الجيش الأول أيضا.

فى سياق مباحثاتى مع السادات والتى جرت يومى ١٩ و ٢٠ من أكتوبر سألته بإلحاح عن الثغرة، إذا كان الإسرائيليون قد بدأوا بالفعل فى بناء جسر ترابى عبر القناة سرعان ما عبرته وحدات إسرائيلية جديدة إلى مصر، إلى أفريقيا، وهو ما أكدته الصور

الجوية التى التقطت. ما الذى ينوى الرئيس اتخاذه من إجراءات عسكرية وسياسية فى هذا الصدد؟

تملص السادات من السؤال فى ضجر، وقال: إن الثغرة التى فتحها الإسرائيليون "لا تساوى شيئا من وجهة النظر العسكرية، وإنما هى ذات مغزٍ سياسى وحسب (مرة أخرى!)، وعلى أصدقائنا السوفيت "ألا يشعروا بالقلق من ذلك، فالقيادة العسكرية المصرية تقوم باتخاذ الإجراءات اللازمة"!.

انطلاقا من هذا التصرف الغامض أصبح الأمر برمته أكثر وضوحا، فالسادات قد عقد العزم على المضى فى أمور لا يفصح عنها، وهى أمور تتناقض مع منطق تصرفاته الغامضة على المستويين السياسى والعسكرى. أى مع إعلانه أن مصر لا تزال تواصل تمسكها بمواقفها السابقة المناهضة للإمبريالية. وهو ما يعكس حدوث تغييرات جذرية. فها هو الرئيس يضحى من أجلها بحياة الآلاف من الجنود والضباط المصريين.

... فى ليلة الحادى والعشرين من أكتوبر، وكان الجو حارا مشبعا بالرطوبة، وفى حوالى الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة أيقظنى من نومى رنين الهاتف. طلب منى الرئيس سرعة التوجه إليه فى قصر الطاهرة.

انطلقت فى ليل القاهرة وبصحبتى ف. جوليزادى، وكنا نتبادل الحديث بشأن ما يمكن أن يكون الرئيس قد أعده لنا هذه المرة. صادفنا فى الطريق عددًا من طوابير السيارات العسكرية دهنت مصابيحها باللون الأزرق، وعلى ضوء القمر كانت سيارات بيضاء تمرق كالأشباح وعلى أسطحها لمبات زرقاء دوَّارة. كانت سيارات إسعاف قادمة من الجبهة محملة بالجرحى. كثير منهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة. من أجل ماذا؟

دلفنا إلى القصر الغارق فى الظلام. اصطحبنا بعضهم إلى إحدى قاعات الاستقبال كما جرت العادة، وإنما إلى شرفة فى الدور الأول لها درابزين من الرخام على جانبها بعض التماثيل. لم تكن هناك إضاءة فى الشرفة على الإطلاق، بينما كان القمر يلقى بضوئه على الجزء الأمامى من الشرفة المطل على حديقة صغيرة لتفرش أشعته الممرات الخالية بين الأشجار. وعلى الأرضية الرخامية شعاع آخر مائل من ضوء أخضر آتٍ من خلال باب مغلق إلا قليلا.

كان السادات يجلس خلف منضدة صغيرة بالقرب من الدرابزين وإلى جواره جلس عبد الله عبد الفتاح وزير الإنتاج الحربى ممسكا كعادته بدفتر كبير وقد استعد لتسجيل الحديث. أما حافظ إسماعيل فقد وقف إلى جوار الدرابزين يدخن بعصبية وقد أدار ظهره للحديقة.

لم يكن الرئيس مهتما بمظهره، كان يرتدى سترة عسكرية فاتحة اللون مكرمشة، كثيرة الثنيات وقد فتح ياقتها وترك زراريها العلويين مفتوحين، أما ملامحه فكانت تشى بأنه يبذل جهدا ليبدو متماسكا بل وشديد الثقة بنفسه.

بدأ حديثه معى بالإنجليزية قائلا: "عند منتصف الليل دعانى العسكريون إلى مركز القيادة وأبلغونى بالموقف وبعدها قررت استدعاءكم على الفور".

توقف برهة ثم جذب نفسا من غليونه وواصل حديثه:

"أستطيع أن أحارب إسرائيل، ولكنى لا أستطيع محاربة الولايات المتحدة الأمريكية. مصر لا تستطيع مواجهة الولايات المتحدة".

وكعادته عندما يتحدث بالإنجليزية، كان السادات ينطق بالكلمات على نحو واضح مستخدما التراكيب اللغوية السهلة. كان صوته فى البداية معتدلا، ثم إذا به يتحدث وقد غلب عليه التأثر الظاهرى.

"لا أستطيع التغلب على هذا السيل المتدفق من الطائرات والدبابات الأمريكية. إننا نعمل على تدمير هذا الكم الهائل، ولكن، يبدو لىّ، أن هذا السيل لا ينتهى. بالأمس فقط دمَّرنا مائتى دبابة، ولكن دبابات أخرى تظهر من جديد، إننى لا أستطيع مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية...".

ومرة أخرى يجذب نفسا من غليونه ويطلق دخانه.

ثم أردف قائلا: "أرجوكم أن تبلغوا موسكو فورا بضرورة العمل على وقف إطلاق النار بأقصى سرعة ممكنة. إن لديكم علاقات مع الأمريكيين. أرجو أن تتصرفوا بأسرع ما يمكن".

أما حافظ إسماعيل فعاد للتدخين مجددا بعصبية مبتعدا قليلا عن الدرابزين.

قلتُ للسادات بقدر ما استطعت من هدوء: "مفهوم" (يا لها من نهاية مفاجئة!) "أود أن أكرر: أنتم تطلبون وقفا فوريا لإطلاق النار بأقصى سرعة ممكنة مع بقاء القوات المتحاربة فى مواقعها الحالية".

أومأ السادات برأسه: "نعم"

عدتُ أتحدث مدققًا: "وكيف ستتصرفون مع المجموعة الإسرائيلية التى تسللت إلى الضفة الغربية للقناة؟ وهل ستبقى فى مواقعها هناك؟".

أجاب السادات: "نعم، على الرغم من اعتبارها "متسللة"، فإنه لم يعد هناك خيار آخر".

أسرعتُ عائدا إلى السفارة.

فى تلك الليلة لم يغمض لىّ جفن بطبيعة الحال. وسرعان ما اضطررت للانطلاق مرة أخرى بعد ساعتين عائدا إلى الرئيس لتدقيق بعض القضايا حول موقف مصر المقبل، على الرغم من علمى أن الرئيس لابد وأنه استغرق فى النوم (!). أحس الياور بالفزع من جراء إصرارى على إيقاظ الرئيس ولكنه استجاب فى النهاية لطلبى. استقبلنى السادات مرتديا روب فوق البيچامة فى غرفة مجاورة لغرفة نومه. جلس متربعا على الأريكة. كان وجهه متوردا يفيض بالصحة، وكانت عيناه متألقتين. ابتسم، ولم يكن هناك ما يشى بإدراكه لخطورة القرار التاريخى الذى اتخذه، ولا بالساعات الحاسمة التى تمر الآن، أو بالذين يستشهدون. كان مظهره وكأنه يقول إن الحرب قد انتهت بالنسبة له...

بعد مباحثات سوڤيتية أمريكية معقدة حاول فيها الأمريكيون أن يطيلوها عن عمد حتى يعطوا الفرصة للقوات الإسرائيلية أن تتوغل أكثر فى الأراضى المصرية، ومن ثم وضع مصر فى موقف أكثر صعوبة. صدر فى الثانى والعشرين من أكتوبر قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨ بشأن وقف إطلاق النار فى خلال مدة لا تتجاوز ١٢ ساعة (كان كيسينچر يصر أثناء المباحثات على أن يتم إقرار وقف إطلاق النار خلال ٤٨ ساعة، خفضها نتيجة

إصرارنا إلى ٢٤ ساعة، ثم وافق فى النهاية على أن تكون ١٢ ساعة). وقد تضمن القرار أيضا الدعوة إلى ضرورة الإسراع الفعلى لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وتقرر إجراء مباحثات لإقرار السلام فى الشرق الأوسط. وطوال فترة المباحثات كنتُ على اتصال دائم بالسادات، الذى أعرب عن رضائه التام بنتائجها.

إننى أود هنا أن أُنكِّر بهذه الأحداث من حرب أكتوبر حتى أكشف الأكاذيب التى راح السادات وعدد من المقربين منه فى ترويجها فى وقت لاحق حول موقف الاتحاد السوفيتى. لقد راح هؤلاء يؤكدون أن الاتحاد السوفيتى لم يقدم أى مساعدة لمصر، وإنه كان "يضغط" عليها ليضطرها لوقف العمليات العسكرية "الناجحة" و"فرض" موقف إطلاق النار عن طريق اتخاذ مجلس الأمن قرار رقم ٣٣٨، الذى "أضاع" على مصر انتصارها.

الحقيقة أن الاتحاد السوفيتى وعلى الرغم من أن مصر لم تتشاور معه بشأن بدء العمليات العسكرية، وأنها لم تقم بإبلاغه بموعدها مسبقا، فقد استمر الاتحاد السوفيتى فى دعمه لمصر، لإيمانه بأنها كانت تمارس حقوقها فى تحرير أراضيها التى أُحتلت بالقوة. وقد قدم الاتحاد السوفيتى دعما عاجلا متنوعا (لا يزال سكان القاهرة يتذكرون جيدا أزيز طائرات النقل السوفيتية من طراز أنتينوف وهى تحلق فى سماء مدينتهم كل نصف ساعة، عندما كان مطار القاهرة مغلقا) [1]؛ وأن المشاورات ظلت مستمرة مع الرئيس فى الموضوعات السياسية وثيقة الصلة بالصراع، وعندما بادر الرئيس بنفسه بطلب وقف إطلاق النار بصفة عاجلة، وعلى الرغم من أن الظروف آنذاك كانت أسوأ مما كانت عليه من قبل، فقد استطاع الاتحاد السوفيتى أن يحقق هذا المطلب مستخدما كل إمكاناته ومكانته الدولية.

والآن لنعد إلى لحظة اتخاذ القرار رقم ٣٣٨، الداعى لوقف إطلاق النار. لقد قرر الإسرائيليون، كما اتضح، بمباركة الأمريكيين أن يضربوا عرض الحائط بهذا القرار

(١) فى واحد من خطبه ذكر السادات أن كل ما حصل عليه من مساعدات سوفيتية فى تلك الأيام لم يكن سوى «حقيبة قطع غيار».

واستمر تدفق قواتهم إلى الضفة الغربية، وخاصة باتجاه الجنوب، حيث نجحوا فى اختراق الجيش المصرى الثالث الذى يزيد قوامه على أربعين ألف فرد على الضفة الشرقية. وهنا ازداد الوضع العسكرى والسياسى تأزما وأعلنت إسرائيل تحديها للعالم بأسره.

فى الثالث والعشرين من أكتوبر اتصل بى السادات تليفونيا مرتين يطلب رسميا سرعة "تدخل القوات السوفيتية عسكريا"، حتى يجبر إسرائيل على تنفيذ قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.

أدت المباحثات الصعبة بين موسكو وواشنطن إلى قيام مجلس الأمن فى الرابع والعشرين من أكتوبر بإصدار القرار رقم ٣٣٩، والذى يطالب بسرعة وقف إطلاق النار وعودة القوات المتحاربة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر. كان قرارا مهمًا للغاية. ومع ذلك فقد استمر الإسرائيليون فى تجاهلهم له حتى وصلت وحداتهم المتقدمة إلى حدود مدينة السويس. ومرة أخرى يعود الرئيس ليؤكد فى حديث تليفونى معى أنه يصرُ رسميًا مرة أخرى على أن يقوم الاتحاد السوفيتى هذه الليلة بإرسال قواته أو مراقبيه. كما توجه بنفس الطلب إلى نيكسون. وقد بثت إذاعة القاهرة هذين الطلبين صراحة.

وفى سياق المباحثات المكثفة التى دارت بين موسكو وواشنطن، كما اتضح من المواد المنشورة مؤخرا تحايل الأمريكيون فى إعطاء ردود واضحة مستخدمين فى ذلك شتى الحجج، بينما أظهر السادات نفاد صبره ووصف الأمريكيين بالكذابين بعد أن تبين له على نحو واضح أنهم تلاعبوا به، أو راحوا "يعاقبون" مصر على العمليات العسكرية الناجحة للغاية التى قام بها جيشها. ومرة ثالثة وبعد أن حاصرت القوات الإسرائيلية مدينة السويس تماما واتخذت موقعا جنوب هذا الميناء المهم، يتوجه السادات إلى الاتحاد السوفيتى بطلب إرسال قوات سوفيتية أمريكية مشتركة عاجلة لتأمين تنفيذ قرارات مجلس الأمن، وفى حالة رفض الولايات المتحدة الأمريكية التدخل فإن الرئيس يطلب من الاتحاد السوفيتى العمل منفردا.

كان الوضع حرجا للغاية. وقد أعلن الجانب السوفيتى بشكل واضح وقاطع للإدارة الأمريكية عن استعداد الاتحاد السوفيتى تنفيذ طلب مصر فورا. ومن الواضح أن واشنطن

وتل أبيب أدركتا أن الاتحاد السوڤيتى لا يهزل فى مثل هذه المواقف. وبعد هذا الإعلان الحازم قام الإسرائيليون على الفور بوقف عملياتهم العسكرية... وهكذا قدَّم الاتحاد السوڤيتى مرة أخرى مساعدة لا تقدر بثمن لمصر لتضع الحرب أوزارها.

ولكى تغطى الولايات المتحدة على فشلها أعلنت بعد فوات الأوان... حالة التأهب القصوى فى جميع قواعدها العسكرية فى الخارج دون التشاور أو حتى إحاطة حكومات الدول التى أقيمت على أراضيها هذه القواعد علما. وفى لقائى به فى الخامس والعشرين من أكتوبر سخر السادات من هذا التصرف الذى قام به الأمريكيون واعتبره نوعا من الابتزاز. قليلون – سواء فى مصر أو فى غيرها من الدول – هم الذين أخذوا هذا "التأهب" مأخذ الجد. وعلى ضوء الحقائق فإن تأكيدات كيسينچر الدرامية المتكلفة التى قصد بها أن حالة "التأهب القصوى" هذه هى التى أجبرت السوڤيت على "التراجع" لم تعن لأحد شيئا. عن أى تراجع يتحدث – لا نعرف. فنحن، كما هو معروف، لم نتراجع إلى أى مكان. فيما بعد جاء كيسينچر إلى القاهرة عدة مرات، وفى أحد لقاءاتنا سألته: على أى أساس أعلنتم "حالة التأهب" فى القواعد الأمريكية فى الخارج، بينما لم يكن هناك من يهدد الولايات المتحدة الأمريكية وقد ضحك الناس هنا فى القاهرة على هذه الخطوة؟ فأجاب كيسينچر فى تثاقل: "لقد فقد نيكسون أعصابه آنذاك".

فى السابع والعشرين من أكتوبر أبلغنى حافظ إسماعيل بأن وزير الخارجية الأمريكى كيسينچر بعث إليه برسالة يدعو فيها مصر لزيارة الولايات المتحدة الأمريكية. على هذا النحو بدأت الولايات المتحدة دون مواربة فى فرض دورها بوصفها وسيطا. وكان إبلاغى بهذه المعلومات يعنى بشكل واضح معرفة رد فعل الاتحاد السوڤيتى تجاهها.

قلتُ لحافظ إسماعيل: إذا كانت مصر ستتخلى فى المستقبل عن الاعتماد على الاتفاق السوڤيتى – الأمريكى بشأن ضمان وقف إطلاق النار، فإن موقف مصر سيصبح ضعيفا بدرجة كبيرة، فالولايات المتحدة ملتزمة أمام الاتحاد السوڤيتى وليس أمام مصر. ولسبب ما راح حافظ إسماعيل يؤكد بحرارة على ضرورة منع محاولات الأمريكيين أن يصبحوا وسطاء بين مصر وإسرائيل.

فى هذا الوقت تحديدا أرسل السادات إلى واشنطن على وجه السرعة إسماعيل فهمى، الذى جرى تعيينه توا قائما بأعمال وزير الخارجية، ولم يكن وزير الخارجية المصرى محمد حسن الزيات، الموجود فى الولايات المتحدة آنذاك، قد غادر منصبه بعد!. كان من الواضح أن "الدبلوماسية المزدوجة" التى بدأ السادات فى انتهاجها قد راحت تتعاظم فى هذه الفترة. وبالطبع لم يكن ليفكر فى الدخول فى العديد من التفاصيل، التى من بينها وجود وزيرين للخارجية فى وقت واحد!.

فى الأيام الأولى من شهر نوفمبر وصل إلى القاهرة ف. كوزنيتسوف، النائب الأول الأسبق لوزير خارجية الاتحاد السوفيتى فى زيارة تستهدف التشاور بشأن الدعوة لعقد المؤتمر الدولى للشرق الأوسط. وقد أكد السادات أكثر من مرة على ضرورة قيام مصر بالتنسيق مع الاتحاد السوفيتى فى هذا الشأن، وأعرب عن رغبة بلاده فى مشاركة ممثلى الدولتين العظميين – الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة – فى كل مستويات المباحثات المنتظرة. وهكذا أعلن السادات، قولا، ضرورة وجود الاتحاد السوفيتى فى هذه العملية.

أما ما حدث فعلا ... فقد ظلت مباحثات إسماعيل فهمى فى واشنطن طى الكتمان.

وفجأة يذاع الخبر التالى: إلى القاهرة يصل كيسينچر فى السابع من نوفمبر! وفى نفس اليوم يلتقى السادات بكيسينچر مرتين على انفراد، وفى المساء تعلن إذاعة القاهرة نبأ التوصل إلى اتفاق بشأن إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية. هل هذه إذن محصلة الحرب؟! هل هذا هو ثمن حياة آلاف المصريين والسوريين والإسرائيليين الذين سقطوا فى المعارك من أجل المناورات السياسية للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط؟!

وفى نفس اليوم أقام إسماعيل فهمى مأدبة غداء تكريما لكيسينچر حضرها كل أعضاء الحكومة المصرية تقريبا. كما دعا فهمى أيضا سفراء كل من الاتحاد السوفيتى وإسبانيا (التى كانت ترعى مصالح الولايات المتحدة) وبريطانيا وفرنسا ومحمد حسنين هيكل. الحقيقة لم تكن لدىّ الرغبة فى الذهاب إلى هذا الغداء، على الرغم من أن الأمريكيين

أبلغونى أن كيسَينچر يود التحدث معى. فقد تعامل المصريون معنا فى الأيام الأخيرة بصلف وعلى نحو عدائى بما فيهم إسماعيل فهمى نفسه.

لهذا السبب كنتُ آخر من حضر إلى الحفل. وعندما دخلت إلى القاعة الصغيرة فى شقة إسماعيل فهمى، رأيت الضيوف واقفين بجوار الجدران وقد علا الملل وجوههم وبأيديهم كؤوس الويسكى وقد أصبح دافئا من طول الانتظار. فى وسط هذه القاعة الصغيرة وقف كيسينچر وقد راح يتبادل الحديث مع السفير الإسبانى فى فتور. قدمونى إلى كيسينچر فإذا به ينتعش وتدب فيه الحيوية، وبعد عبارات الترحيب أبدى اهتمامه بتقديرى للوضع فى منطقة الشرق الأوسط.

أجبته بأنه، وعلى الرغم من وقف إطلاق النار، فإن الوضع لا يزال معقدا وقابلا للانفجار، ومن ثم فإن من الضرورى اتخاذ إجراءات عاجلة وأخرى على المدى الطويل. أما الآن فمن الحتمى أن تتوقف إسرائيل عن إدعاء "البلاهة" مؤكدا على أن "أحدا لا يعرف مواقع القوات المتحاربة فى الثانى والعشرين من أكتوبر، أى إلى أين يجب أن تنسحب القوات الإسرائيلية طبقا لقرارى مجلس الأمن رقمى ٣٣٨ و ٣٣٩. وهذه الحدود يمكن تحديدها بدقة على الخريطة. وعندما يسحب الإسرائيليون قواتهم إلى حيث كانت يوم الثانى والعشرين من أكتوبر، عندئذ تنتهى تلقائيًا مشكلة إمداد الجيش الثالث المصرى والسويس. وينبغى أن يتم ذلك على وجه السرعة.

أما عن الخطة طويلة المدى، فالفرصة مهيأة الآن لبذل كل الجهود من أجل تسوية شاملة حقيقية لمشكلة الشرق الأوسط برمتها".

سألنى كيسينچر باهتمام بالغ: "ولماذا تعتبرون أن الآن تحديدا هو الوقت الأنسب لبذل الجهود للتسوية الشاملة فى الشرق الأوسط؟"

أجبته أنه وبناء على ملاحظاتى هناك عدد من العوامل:

١ – لقد باتت إسرائيل مقتنعة أن مقولة "جيش إسرائيلى لا يهزم" هى مجرد خرافة، وأنه جيش يمكن هزيمته. ولهذا فإن على القيادة الإسرائيلية أن تغير من نهجها، إذا كانت

مهتمة بمصير شعبها ومستقبلها. لقد أصبح واضحا للجميع أن العرب لن يستسلموا مطلقا، وهو ما تقيم إسرائيل حساباتها عليه. قد يفشل العرب ولكنهم لن يستسلموا. وقد بات الأمر واضحا لإسرائيل.

٢ – لقد أدرك العرب أنهم أقوياء وهو ما يعطيهم الآن إمكانية الدخول فى مفاوضات سياسية، بعد أن كانوا فى السابق لا يملكون مبررا.

٣ – لقد استعاد العرب وحدتهم، التى لم تكن موجودة من قبل، وأكبر دليل على ذلك هو قرارهم بحظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها.

٤ – فى الواقع فإن الرأى العام العالمى يقف الآن إلى جانب العرب ولا أحد يتهمهم بالعدوان على إسرائيل، على الرغم من أنهم هم الذين بدأوا بالعمليات الحربية الواسعة.

٥ – إن طابع العلاقات الحالى بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة يسمح لنا، على الرغم من وجود خِلافات فى وجهات النظر، بمناقشة أية قضايا مطروحة والتعاون بدلا من المواجهة.

وفى الختام، قلت له: إن كل هذه العوامل المؤثرة إيجابا ذات طابع مؤقت وقد يطرأ عليها، أو على بعضها، بمرور الوقت، تغييرا يفقدها أهميتها، ولهذا يصبح عنصر الوقت عنصرا حاسما. لا يزال من الممكن تسوية مشكلة الشرق الأوسط على نحو عادل للجميع، إذا ما أخذنا على عاتقنا بشرف حلها، وإلا فسوف تنشب الحرب من جديد.

استمع إلىّ كيسينچر باهتمام بالغ وأعرب عن موافقته على العديد مما جاء فى حديثى، باستثناء ما ذكرته عن حظر تصدير النفط. أما فيما يخص نشوب حرب جديدة فى المنطقة، فإنه من الممكن ألا تقع هذه الحرب، إذا ما توقف الاتحاد السوفيتى عن البحث فيها عن مكاسب له ولم ينشغل بإثارة الفتن (to make monkey business).

كان علىّ أن أجيبه هنا بحِّدة مذكرًا إياه بأن ذلك ليس من شيمتنا، وإنما هى الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا، التى تؤازر المعتدى، بينما نقوم نحن علنا بمساندة قضية عادلة وهى إعادة أراضٍ احتلها المعتدون.

وعندها أسرع إسماعيل فهمى يدعو الجميع إلى المائدة.

عند افتراقنا بعد انتهاء حفل الغداء قال لىّ كيسينچر أن أحدا أخبره فى وقت سابق أن سفير الاتحاد السوفيتى لدى القاهرة رجل صعب المراس "tough guy" . ولكنه يرجو على أية حال أن يتم التعاون مع سفير الولايات المتحدة الأمريكية الذى تم تعيينه للتو لدى مصر هيرمان إيلتس (وهو من أصل ألمانى مثل كيسينچر وكان سفيرا قبلها للولايات المتحدة لدى المملكة العربية السعودية ومستعرب).

فأجبته قائلا: "حسنا. إننى على استعداد للتعاون مع 'لورانس العرب' الأمريكى، بشرط ألا تنشب مشكلة بين الـ (monkey business) والجانب الأمريكى". انفجر كيسينچر ضاحكا. لقد كانت المزحة مُفحمة.

وفى اليوم التالى نشرت الصحف عددا من عناصر الاتفاق التى تم التوصل إليها بين السادات وكيسينچر وخاصة ما يتعلق منها بانسحاب القوات الإسرائيلية إلى مواقع الثانى والعشرين من أكتوبر وذلك فى إطار "اتفاق شامل" حول "فك الاشتباك" بين القوات المصرية والإسرائيلية. ولم يكن هناك ثمة شىء جديد فى ذلك. فبدلا من تنفيذ قرار سحب القوات دون قيد أو شرط، تم الاتفاق على مفاوضات فى إطار اتفاق ما حول "فك الاشتباك". وبذلك دخلت المفاوضات بل والتسوية أيضا فى طريق موحل ملتوٍ، إلى هاوية لا يسبر غورها.

لم يبلغنا المصريون بشىء عن جوهر هذا الاتفاق. وبعد مرور أربعة أيام بعد ما نشرته الصحف المصرية لبعض ما تضمنه الاتفاق فى هذا الشأن دعانى إسماعيل فهمى وقدم لىّ ورقة تحتوى على نفس ما نشرته الصحف. تناولتها وبعد أن قرأتها، قلتُ له دون اهتمام: إننى علمت بكل ذلك منذ فترة بعيدة من الصحف. وقد استشاط فهمى غضبا من ردى.

بدأت المفاوضات الصعبة الخاصة بالإعداد الفعلى لمؤتمر السلام العالمى، التى دارت حلقاتها بين موسكو وواشنطن ونيويورك والقاهرة ودمشق وتل أبيب. وكان علىّ فى هذه المدة أن أواصل الاتصالات بشكل مستمر، ليس فقط مع إسماعيل فهمى، وإنما مع السفير الأمريكى لدى القاهرة هيومان إيلتس الذى وصل إلى العاصمة المصرية على وجه

السرعة. وذات يوم من أيام ديسمبر هاتفنى إيلتس قائلا: إن كيسينچر سيصل مرة أخرى إلى القاهرة وهو يود أن يلتقى بكم سواء عند وصوله إلى المطار أو عند مغادرته.

كانت اللعبة مكشوفة، فوزير الخارجية الأمريكى يريد أن يخلق انطباعا مفاده أن السفير السوفيتى يستقبل كيسينچر أو يودعه فى المطار.

أجبت إيلتس أن "فرصة" لقائى بوزير الخارجية لا تناسبنى، لا من حيث المضمون ولا من حيث الشكل. فما الذى يمكن مناقشته بجدية فى المطار؟ إن كيسينچر قادم لزيارة الحكومة المصرية. فما علاقة السفير السوفيتى بلقائه أو توديعه. ارتبك إيلتس وأجاب قائلا: إنه هو نفسه قد أدرك مدى ما فى هذا الاقتراح من فجاجة، وأنه سوف يسعى للاتصال بكيسينچر مرة أخرى والاتفاق معه على مكان ما آخر. وبعد أربع ساعات أخبرنى إيلتس أن كيسينچر يقترح أن نلتقى فى مقر إقامته فى فندق "هيلتون" على أن يتم اللقاء عند منتصف الليل تقريبًا بعد انتهاء مباحثاته مع السادات. أجبت بالموافقة فلا فرق عند الدبلوماسيين بين ساعات الليل أو النهار.

فى تلك الفترة، راحت وسائل الإعلام فى كل مكان تكيل آيات المديح والثناء لكيسينچر على وساطته الناجحة، بل إنها عقدت مقارنة بينه وبين ميتيرنيخ. ويبدو أن ذلك أعجبه وأن اللقاء مع السفير الروسى قد تم إعداده لمجرد الاستعراض وكرسالة للصحافة لخلق انطباع بأن هناك "عملا مشتركا".

فى لقائى معه، لم يذكر كيسينچر شيئا عن مباحثاته مع المصريين. لم يقلع "ميتيرنيخ زماننا" عن عادته غير الدبلوماسية فى تسليك أسنانه بإصبعه بعد تناول الطعام، وانهمك فى التحدث بشكل عام حول ضرورة التعاون السوفيتى الأمريكى فى الشرق الأوسط والتنسيق طبقا للاتفاقات وهلم جرا. انتظرت حتى انتهى من حديثه ليمسح إصبعه ثم سألته: كيف يمكن الجمع بين هذه الأفكار الصحيحة واستبدال "اتفاق الكيلو ١٠١"، الذى أعطى عمليا إسرائيل حل كل القضايا من جانب واحد، بقرارات الأمم المتحدة التى جرى إعدادها بالتشاور بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة خاصة القرارين ٣٣٨ و ٣٣٩. أين التعاون هنا مع الاتحاد السوفيتى؟ وأين أهميته التى تحدث عنها للتو وزير الخارجية؟ وعموما ما "اتفاق الكيلو ١٠١" هذا؟

توقف كيسينچر عن لعق إصبعه ونظر باهتمام إلىّ، ثم راح يتبادل النظر مع مساعده سيسكو الذى كان حاضرا اللقاء ثم... قال مراوغًا وهو يشير بيده: "كل هذا من ابتكار سيسكو... اسأله هو، أما أنا فلا أفقه فى هذه الأمور شيئا" . وهنا أغمض سيسكو عينيه من فرط السرور...

كان علىّ أن أعمل ليل نهار فى الأيام التى تلت زيارة كيسينچر فى الشرق الأوسط، والذى تقرر أن يشارك فيه ممثلون عن الاتحاد السوڤيتى والولايات المتحدة، وقد تم اختيارى رئيسا لوفد الاتحاد السوڤيتى.

- ٤ -

لم تكن الدعوة لعقد مؤتمر للسلام فى الشرق الأوسط بالأمر الهين. وقد اكتسب كل موضوع من موضوعات المؤتمر: المباحثات، المشاركون، جدول أعمال المؤتمر وتوقيتاته مغزى سياسيًا مهمًا ومحددًا تمامًا. وكانت القضايا المزمع مناقشتها فى المؤتمر قد تم إعدادها فى سياق المفاوضات التى جرت بين موسكو وواشنطن بمشاركة الأمين العام للأمم المتحدة، وبعدها تم عرض الاتفاق الذى تم التوصل إليه على القاهرة للتنسيق مع المصريين. وفى هذا المجال كان على السفيرين السوڤيتى والأمريكى أن يعرضا موقفهما المشترك على وزير الخارجية المصرى إسماعيل فهمى، وبعدها يدافعان، بطبيعة الحال، عن هذا الموقف المشترك، على الرغم من أنه يعد نتيجة للحل الوسط الذى توصل إليه الجانبان السوڤيتى والأمريكى.

كثيرا ما كان الجانب الأمريكى يقوم بإبلاغ الجانب المصرى بآراء لم يتم الاتفاق عليها بناءً على المفاوضات السوڤيتية الأمريكية، وإنما بالصيغة الأولية التى طرحت علينا فى موسكو أو واشنطن والتى كنا نرفضها. كان المصريون يوافقون الأمريكيين، عندما كان هؤلاء يطرحون علينا إعادة النظر فى الموقف الذى تمت الموافقة عليه بزعم أنها "طلبات" المصريين. كان علينا أن نفضح هذه الألاعيب الأمريكية. لا يطيب لىّ هنا أن أذكر أن وزير الخارجية الجديد كان يعلق فى بيته صورة فوتوغرافية كبيرة له مع نيكسون فى

البيت الأبيض، ويبدو فيها راضياً عن نفسه كل الرضا، بعد أن تعاون بشكل واضح مع الأمريكيين، وليس معنا، فى الإعداد للمؤتمر. وكان خنوعه لهم بلا حدود. كم كان الأمر مختلفا عندما كانت العمليات الحربية لا تزال مشتعلة منذ فترة غير بعيدة.

كان موقف المصريين مدهشا، عندما بدأ الحديث عن مشاركة الفلسطينيين فى المؤتمر. ومن المعروف أن مصير الشعب العربى الفلسطينى، الذى فقد وطنه قسرا، هو جوهر الصراع فى الشرق الأوسط. وقد سمعت من العرب مقولة تقول "لا يمكن للعرب أن يحاربوا بدون مصر، ولا يمكن للسلام أن يسود بدون الفلسطينيين". كان الاتحاد السوفيتى ينطلق دائما من أن الفلسطينيين ينبغى حتما أن يشاركوا فى المؤتمر. أما إسرائيل فكانت تتعمد أن تغلق عينيها عن رؤية وجود الشعب العربى الفلسطينى. وبطبيعة الحال كانت تعارض مشاركته فى المؤتمر، بينما راحت الولايات المتحدة الأمريكية تؤيدها فى هذا الصدد. لم تكن الدول العربية حتى هذا الوقت قد اتخذت قرارا بشأن مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى. وقد أشير فى الوثيقة التى جاءت نتيجة للمفاوضات إلى ضرورة إشراك ممثلى الشعب الفلسطينى فى المؤتمر فى الوقت المناسب. كان المصريون يشاركوننا الرأى فى الموافقة، إلا أنهم بدأوا ، تحت ضغط الولايات المتحدة الأمريكية، فى المطالبة بصيغة أخرى اتفقوا بشأنها، كما أخبرونا، مع الأمريكيين: "مسألة وقت مشاركة الفلسطينيين فى المؤتمر سوف يتم دراستها فى المرحلة الأولى من أعمال المؤتمر". وقد قَبِلَ الفلسطينيون هذه الصيغة، ومن ثم قبلناها نحن أيضا، وهو ما أثار قلق الأمريكيين.

ذات يوم دعانى إسماعيل فهمى للقائه، وعندما ذهبت إليه وجدت السفير الأمريكى إيلتس قد سبقنى إليه. كان أمرا خاليا تماما من اللياقة من جانب إسماعيل فهمى الذى لم يخبرنى بذلك، والأهم أنه لم يطلب منى مسبقا موافقتى على هذا اللقاء الثلاثى.

ناولنى إسماعيل فهمى ورقة نُسخ نصها على آلة كاتبة، كما لاحظت، فى السفارة الأمريكية، بعد أن قال لىّ إن هذه هى الصيغة الجديدة التى وافقت عليها الولايات المتحدة الأمريكية. قرأت الورقة وكانت تتضمن "أن مسألة مشاركة الفلسطينيين سوف يتم

مناقشتها فى المرحلة الأولى من أعمال المؤتمر". كانت صيغة مختلفة، محتوى آخر، أغنية أخرى. كانت الصياغات القديمة تتحدث عن مشاركة الفلسطينيين، كحقيقة واقعة لا يتطرق إليها الشك. أما الصيغة الجديدة فكانت مبهمة تماما، لا يعرف منها هل سيكون للفلسطينيين الحق فى المشاركة أم لا (فيما بعد ظهرت صيغة أخرى أقل تمييزا، لم يُذكر فيها الفلسطينيون عموما: "مسألة مشاركة ممثلين عن بلدان المنطقة سوف تُبحث فى المرحلة الأولى من أعمال المؤتمر").

قلت لفهمى إن الصيغة الجديدة تُغير جوهر القضية وأننى لا أستطيع الموافقة عليها. وأكدت له أن من الضرورى، أولا وقبل كل شيء، أن أعرف رأى الفلسطينيين فيها.

راح إسماعيل فهمى يؤكد بحماس أنه اتفق شخصيا مع الفلسطينيين بشأنها ومع المشاركين الآخرين فى المؤتمر. كانت هذه هى المسألة الأخيرة التى تأخر بسببها إرسال الدعوة الرسمية للدول المشاركة فى المؤتمر (فيما بعد أخبرنى الفلسطينيون أن المصريين لم يعقدوا معهم أى اتفاق).

كان من المقرر أن يعقد المؤتمر فى الحادى والعشرين من ديسمبر عام ١٩٧٣ فى قصر الأمم بچينيف، وقد تمت دعوة الدول المشاركة فى الصراع: مصر، سوريا، الأردن، إسرائيل، ورأس المؤتمر كل من الاتحاد السوڤيتى والولايات المتحدة الأمريكية وعُقِدَ تحت رعاية منظمة الأمم المتحدة التى ساعدت فى تنظيمه وتمويله.

فوجئتُ عشية مغادرتى للقاهرة بخبر امتناع سوريا عن المشاركة فى المؤتمر، وذلك بعد زيارة كيسينچر مباشرة لدمشق. وقد تعامل إسماعيل فهمى مع هذا الخبر بلامبالاة. كثيرا ما تراودنى فكرة كيف أمكن أن يحدث ذلك، وفى هذا السياق أتساءل لماذا راح كيسينچر يردد مرارا (على مسامع نفس الأشخاص) على نحو ساخر كيف أن الرئيس الأسد أخبره فجأة أثناء حديثه معه أن سوريا، ودون إبداء الأسباب، لن تشارك فى المؤتمر. كما أن كيسينچر نفسه لم يوضح موقفه من هذا الأمر، وإن لم يلق باللوم على أية حال على السوريين، وكان واضحا أنه سعيد بذلك.

فى التاسع عشر من ديسمبر سافرنا من القاهرة إلى چينيف على طائرة شركة مصر للطيران بدعوة من إسماعيل فهمى بصحبة الوفد المصرى كاملا بالإضافة إلى مجموعة من المراسلين الأجانب المعتمدين.

شد انتباهنا فى مطار چينيف ما رأيناه من إجراءات أمنية صارمة شملت دوريات عسكرية ومئات من أفراد الشرطة مسلحين بالرشاشات؛ فضلا عن وجود الاستحكامات حول المطار والتصاريح الخاصة. وفى نفس هذا اليوم وصل إلى چينيف وزير خارجية الاتحاد السوڤيتى أندريه جروميكو. وبعده وصل الأمين العام للأمم المتحدة كورت ڤالدهايم، ثم وزير الخارجية الأمريكى هنرى كيسينچر ووزير خارجية إسرائيل أبا إيبان ورئيس وزراء الأردن زيد الرفاعى.

فى مساء اليوم التالى، التقيت كيسينچر الذى أفاد بأن لديه "خطة" لخصها على النحو التالى: حيث إن انتخابات الكنيست ستجرى فى إسرائيل فى الحادى والثلاثين من ديسمبر، فسيكون من "الصعب" على الإسرائيليين الدخول فى مفاوضات قبيل تشكيل الحكومة الجديدة، ومن ثم يمكن افتتاح أعمال المؤتمر فى الحادى والعشرين من ديسمبر ثم يتفرق الجميع عائدين إلى بلادهم، على أن يعود رؤساء المؤتمر المشاركون (السفيران ڤينوجرادوف والأمريكى بانكر) إلى چينيف فى السابع من يناير وعندئذ يمكن العودة لأعمال المؤتمر فى الخامس عشر من يناير.

اعترض أندريه جروميكو على كيسينچر قائلا إننا اجتمعنا فى چينيف لا للاحتفال وإنما للعمل. ينبغى على المؤتمر ألا يقطع أعماله وإنما عليه أن يواصلها، فإذا لم يحدث ذلك على مستوى الجلسات العامة، فليكن على مستوى مجموعات العمل. باختصار، على المؤتمر أن يواصل العمل سياسيًا وقانونيًا. ومع هذا لم يوافق كيسينچر. وقد اتضح فيما بعد أن الأمر كله كان حيلة.

جاء الحادى والعشرين من ديسمبر، موعد افتتاح المؤتمر، يوما تاريخيا. للمرة الأولى يجتمع ممثلو هذه البلاد فى مؤتمر واحد. مؤتمر بإمكانه أن يحمل السلام إلى الشرق الأوسط. وهو ما كنا نتمناه بشدة. كان الوضع مُبَشّرا أكثر من أى وقت مضى.

هاهم العرب والإسرائيليون يلتقون معا أخيرا خلف طاولة المفاوضات، على الرغم من أن لدى كلا منهما وجهة نظر تختلف عن الآخر. لكن هذه الصعوبة يمكن التغلب عليها من ناحية المبدأ إذا وجدت الرغبة فى تحقيق السلام، وإذا صدقت النية فى تقديم الدعم لتحقيقها، وهى إحدى المهام التى تقع على عاتق الدولتين العظميين، والتى ترتفع إلى مستوى المسؤولية التاريخية الكبرى. ترى هل يفكر المشاركون فى المؤتمر جميعهم على هذا النحو الذى يفكر به ممثلو الاتحاد السوفيتى؟ هل يريد الجميع الوصول فى نهاية المؤتمر إلى سلام عادل؟

وصل كورت ڤالدهايم قبل افتتاح المؤتمر. تناقشنا معه بخصوص ترتيب جلوس المشاركين حول طاولة المفاوضات فى قاعة الاجتماعات واتفقنا على طريقتين: الأولى، وتخضع للتسلسل الأبجدى، فيجلس الأمين العام للأمم المتحدة فى المنتصف وعلى يمينه الاتحاد السوفيتى، وعلى يساره الولايات المتحدة، ومن عندها فى اتجاه عقارب الساعة سوريا، إسرائيل، الأردن، مصر. أما الطريقة الثانية فسياسية وفى اتجاه عقارب الساعة أيضا فيلى الولايات المتحدة إسرائيل، الأردن، سوريا ثم مصر.

اعتلى الحراس سطح قصر الأمم، بينما ضجت القاعة بأصوات الصحفيين الذين يمثلون كل الدول. كان الإرسال من هنا مباشرا إلى كل أنحاء العالم، حيث يشاهده الناس فى القاهرة وتل أبيب، فى موسكو وواشنطن، فى دمشق وعمان، فى بيروت ولندن، فى باريس وطوكيو. فى كل مكان تقريبا كان الجميع بانتظار لحظة افتتاح المؤتمر.

وفجأة دخل ڤالدهايم إلى الغرفة المخصصة للوفد السوفيتى. كانت لديه مشكلة فى ترتيب جلوس المشاركين: فالأردنيون يرفضون الجلوس إلى جانب الإسرائيليين، ومن ناحية أخرى سوف تكون هناك أماكن شاغرة كانت مخصصة للسوريين الذين رفضوا الحضور. وعند تطبيق الطريقة الثانية رفض الإسرائيليون أن تكون الأماكن التى بجوارهم شاغرة. وهنا اقترح ڤالدهايم "أن تجلس إسرائيل إلى جانب الأمين العام للأمم المتحدة ثم، وباتجاه عقارب الساعة، يجلس الاتحاد السوفيتى ثم سوريا والأردن والولايات المتحدة ومصر". كانت هذه فى الواقع رغبة الأمريكيين.

أجاب أندريه جروميكو قائلا: "لسنا أطفالا. موافقون. وأضاف ساخرا: على أن نستبدل أماكن الرؤساء المشاركين".

على هذا الأساس اتخذ المشاركون أماكنهم على النحو التالي: الأمين العام للأمم المتحدة، إسرائيل، الولايات المتحدة الأمريكية، سوريا، الأردن، الاتحاد السوفيتي، مصر. وافق ڤالدهايم بسرور ثم غادر الحجرة مسرعا. لم تمض بضع دقائق وإذا بكيسينچر يدخل إلى غرفتنا مضطربا ممتقع الوجه، وخلفه مباشرة دخل ڤالدهايم. تقدم كيسينچر ممسكا بورقة توزيع الأماكن متوجها بالحديث إلى أندريه جروميكو بصوت غليظ متهدج قليلا: إن الولايات المتحدة ترجو بشدة من الوفد السوفيتي أن يتبادل مقاعده مع الوفد الأمريكي، وإلا سيصبح هذا الجانب إسرائيليا بحتا (إسرائيل، الولايات المتحدة)؛ كانت عينا وزير الخارجية الأمريكي مليئة بالتوسل وكأن أمرا جللا سوف يقع.

تعمد أندريه جروميكو أن يتحدث بصوت يسمعه الجميع، وإن بدا واضحا أنه يمزح قائلا: "إننى أطلب من الأمين العام للأمم المتحدة تسجيل رفض الولايات المتحدة الأمريكية الجلوس بجانب الإسرائيليين".

انفجر الجميع فى القاعة ضاحكين، ثم أضاف أندريه جروميكو قائلا وقد راح الجميع يصفقون: "الأمر بالنسبة لنا سيان. فقد جئنا إلى هنا للعمل لا للعب". راح ڤالدهايم يجفف عرقه، بينما علت الحمرة وجه كيسينچر الذى ابتسم بصعوبة متوجها بالشكر إلى جروميكو.

توجهنا جميعا إلى قاعة الاجتماعات. كان اليوم يوافق بلوغ ڤالدهايم الخامسة والخمسين من العمر. وفى كلمته قال الأمين العام "يا لها من مصادفة. هل سيصبح هذا اليوم يوما تاريخيا نبدأ فيه بناء السلام فى الشرق الأوسط؟" دخل الجميع إلى القاعة وقد أضاءها هنا وهناك وميض لمبات آلات التصوير والمصابيح المصاحبة لكاميرات السينما والتليفزيون.

اتخذت الوفود أماكنها، كان لكل وفد مائدة تتسع لثلاثة أشخاص ومقعدان فى الخلف للمستشارين. أمامنا جلس الوفد الأمريكى وعن يميننا الوفد الإسرائيلى، وعلى يسارنا الوفد السورى.

ألقى ڤالدهايم كلمة موجزة حيا فيها الحضور. ثم تبعه أندريه جروميكو.

تضمن خطاب وزير الخارجية السوڤيتى تقديرا موضوعيا للموقف فى الشرق الأوسط دعا فيه إلى إيجاد حل عادل للمشكلات التى تراكمت فى المنطقة. كان لخطابه أثر إيجابى؛ حيث أعرب عن استعداد الاتحاد السوڤيتى للتعاون بشكل عملى مع جميع الحضور فى هذا المؤتمر من أجل إخراج شعوب وبلدان الشرق الأوسط من آتون الصراعات الحربية وإحلال السلام العادل.

لم يستحسن الكثيرون خطاب كيسينچر الذى تحدث فيه عن السلام بشكل عام مستشهدا بعدد من الأمثلة الشعبية اليهودية والعربية نطقها بعبرية وعربية ركيكتين للغاية.

أما إسماعيل فهمى وأبا إيبان فقد جاءت كلماتهما بمثابة معركة كلامية بينهما. كان فهمى حادا وبدا أنه يحاول اللعب على مشاعر الجماهير فى رده على إيبان.

وفى اليوم التالى، فى الاجتماع المغلق للمؤتمر تم تشكيل لجنة عمل عسكرية كانت مهمتها العمل على وجه السرعة على فض الاشتباك على الجبهة المصرية الإسرائيلية. بعدها أعلن ڤالدهايم فترة للراحة.

إلى مقر إقامتنا حضر كيسينچر وبصحبته السفير بانكر، العضو الأمريكى المشارك فى المؤتمر. كان بانكر رجلا تخطى الثمانين من العمر، طويل القامة، نحيف، على قدر من الوسامة.

توجه كيسينچر إلى أندريه جروميكو قائلا: "هل تعرفون لماذا اخترنا السفير بانكر عضوا فى الوفد؟ لأنه لم يستكمل أية مفاوضات شارك فيها قبل ثمانية أعوام"، ثم ضحك مظهرا قدرا كبيرا من الرضا عن نفسه. كان كيسينچر يقصد بهذه الإشارة ما كان من أمر بانكر الذى كان رئيسا، شكليا، للوفد الأمريكى فى المفاوضات الأمريكية البنمية لعدة سنوات حول وضع قناة بنما، ومن ثم حقوق الأمريكيين فى هذه الدولة. وقد أدهشنى هذا التلميح الذى جاء على لسان كيسينچر فى مثل هذه الظروف.

تظاهر كيسينچر بالحزن، ثم أردف قائلا: "إن لإيلسفورت (بانكر) أطفالا وأحفادا وهو يرغب أن يمضى أعياد الميلاد بصحبتهم؛ ولهذا فسوف يطير إلى الولايات المتحدة - لمدة يومين" يعود بعدها فى السادس والعشرين، أو السابع والعشرين إلى چينيف. بدا هذا الوعد عمليا. والحقيقة أننى لم أصادف فى حياتى أمريكيا يخلف وعده وخاصة إذا ما تعلق الأمر بالتواريخ والمواعيد والوقت، ولهذا فقد استقبلت إعلان كيسينچر بهدوء تام.

فى اليوم التالى، دعانا بانكر على مائدة الإفطار. آنذاك راح ستيرنر الموظف بوزارة الخارجية الأمريكية، بحذر شديد، فى تطوير مفهومه "المبتكر" حول السير المحتمل للمفاوضات. أكد ستيرنر أن المصريين لا يريدون أن يشارك ممثلو الدولتين العظميين فى أعمال لجنة العمل العسكرية، ولهذا يجب علينا أن نعمل "فى الكواليس". وبحذر مماثل طرح بانكر فكرة مفادها أنه قد يكون من الملائم أن تتخلل المفاوضات فترات راحة طويلة تسمح "بترطيب الأجواء" بين الجانبين.

لم يكن من العسير علينا أن ندرك على الفور جوهر أفكار الأمريكيين: هل سنوافق نحن السوفييت على الاستمرار فى القضية سنوات وسنوات حتى نصل إلى حلول جزئية (أى ليست ذات طابع شامل) عن طريق المفاوضات الثنائية للدول العربية فى چينيف دون مشاركة الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. وإن شئنا الدقة، دون مشاركة الاتحاد السوفيتى تحديدا، ما دامت الولايات المتحدة سوف تظل موجودة هناك "فى الكواليس" خلف إسرائيل و، كما شاهدنا، خلف الوفد المصرى أيضا. وبهذا تكون فكرة المؤتمر كلها قد تم تشويهها.

اعترضنا بشدة بعد أن كشفنا خطورة هذا الطريق، الذى لن يؤدى إلى السلام فى الشرق الأوسط، بل سوف يضع الدول العربية فى وضع أسوأ مقارنة بإسرائيل.

وفى مساء نفس اليوم، التقى أندريه جروميكو بإسماعيل فهمى. واستنادا إلى ما وصل إلينا من معلومات نتيجة المحادثات التى دارت بيننا وبين بانكر وستيرنر، سأل جروميكو فهمى عن رأيه بشأن الأعمال اللاحقة بالمؤتمر؛ وخاصة حول دور ممثلى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. لكن إجابات فهمى جاءت لتذكرنا بلعبة الأطفال

الشهيرة: "لن أقول لا ولن أقول نعم، لن أقول أسود ولن أقول أبيض" وهلم جرا. ولمدة نصف ساعة راح فهمى يتملص دون أن يعطينا إجابة واحدة مباشرة، موجها اللوم للمترجمين زاعما أنهم لم ينقلوا أفكاره "بدقة". وهكذا، راح يتأكد لنا أكثر فأكثر فكرة وجود مؤامرة بين المصريين والأمريكيين.

بعد مرور يوم واحد على مغادرة أندريه جروميكو چينيف، جاءنى ستيرنر يحمل دفترا سجل فيه الصيغة الجديدة التى قدمها المصريون ونصها: "لسنا ضد مشاركة الاتحاد السوڤيتى" ثم صاح فى عصبية: انظر، إنهم لم يقولوا "نحن مع المشاركة السوڤيتية". كان علىّ عندئذ أن ألقنه درسا.

سألت مساعد وزير الخارجية المصرى محمد رياض عن صحة ما ذكره ستيرنر، فانفجر غاضبا: "الأمريكيون مخادعون، أما ستيرنر فهو رجل مستفِز!". فى المساء، دعانى فهمى إلى مائدة العشاء مبديا حفاوة مصطنعة، وراح يعاملنى بكرم زائد، ثم بدأ يكشف شيئا فشيئا عن أفكاره على نحو أكثر صراحة" إن الاتحاد السوڤيتى ليس مضطرا للإصرار على المشاركة فى المفاوضات، فلن تتم الموافقة على أيٍ من القضايا المطروحة دون موافقته (موافقة فهمى). هذا هو الأمر إذن. وهو نفسه قال لجروميكو بالأمس كلاما منافيا تماما لما يقوله الآن! كان علىّ عندئذ أن أخبر فهمى بأن لدىّ قيادتى، وأن لدينا أفكارنا ومفاهيمنا، وأن من المؤسف أن المصريين ينحون منحى مختلفا تماما فى كثير من الأمور، التى سبق وأن اتفقنا بشأنها سابقا، وأن هذا المنحى لن يكون فى صالح مصر والفلسطينيين والعرب جميعهم.

أكدت الأحداث اللاحقة صدق تقديراتنا، فالمباحثات داخل لجنة العمل العسكرية لم تتحرك قيد أنملة، وانتقل المصريون والإسرائيليون والأمريكيون بعيدا عن چينيف، ولم يبق فيها سوى وفدنا.

وقبل مغادرتنا مقر إقامتنا، حضر لزيارتنا الوفد الإسرائيلى برئاسة السفير إيڤرون والذى أخبرنا أن اهتمام الإسرائيليين بالمؤتمر كان عظيما منذ اللحظة الأولى لانفتاحه، وأن الجميع فى إسرائيل تابعوه باهتمام بالغ على شاشات التليفزيون وقد تأثروا بشدة

عندما سمعوا بأنفسهم خطاب وزير الخارجية السوفيتى بعد أن رأوا فيه موقفا عادلا مناهضا للحرب وداعيا لإقامة السلام فى المنطقة.

تحدثنا معهم طويلا وبلا كلفة وحاولنا أن ننقل لهم فكرة ضرورة إقامة سلام حقيقى، حيث إن الفرصة مواتية الآن لذلك. أبدى أعضاء الوفد الإسرائيلى موافقتهم وأكدوا على أنه بدون مشاركة الاتحاد السوفيتى ومساعدته لن تقوم للسلام قائمة فى الشرق الأوسط.

وقبيل رحيله أفضى إلىّ إيفرون بسؤال شخصى حول ما إذا كان المصريون يدركون أن الاتحاد السوفيتى وحده هو الذى أنقذهم من الهزيمة فى الأيام الأخيرة من حرب أكتوبر؟

هزنى من الأعماق هذا التساؤل، الذى يعنى أن الإسرائيليين يقدرون على نحو صحيح الموقف الذى اتخذته بلادنا ودورها الحاسم الذى قامت به فى هذه الحرب.

.... لم يعد بانكر للأسف إلى چينيف فى السادس والعشرين من ديسمبر، وإنما عاد... بعد شهر، فى الحادى والعشرين من يناير، وبعد أيام قليلة سافر من جديد معلنا أنه لن يعود قبيل النصف الثانى من فبراير (!). على هذا النحو يفى المسؤول الأمريكى بوعده!

فيما بعد وقعت مصر وإسرائيل اتفاقية "فك الاشتباك" الشهيرة بين القوات، وإنما خارج إطار المؤتمر. كانت هذه بداية الصفقات المنفردة بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. أدارت مصر ظهرها للقضية العربية المشتركة ولحليفها السابق — سوريا، ونفضت يديها تماما عن القضية الفلسطينية. أتذكر جيدا البيان الذى نشره الفلسطينيون فى الصحف والذى يقول: "إن المصريين يساعدون الولايات المتحدة الأمريكية فى التسلل إلى الشرق الأوسط!". ومن جديد يدهشنى توارد الخواطر.

***

لقد بدأ تسلسل هذه الأحداث منذ زمن بعيد. منذ وفاة ناصر. ومنذ وصول السادات إلى سدة الحكم؛ بدأت التغيرات الضخمة فى الحياة الداخلية – الابتعاد عن الناصرية، وفى السياسة الخارجية – عقد العلاقات المكثفة سرا مع الولايات المتحدة الأمريكية بعيدا عن شعبه واتباع منهج الابتعاد عن التعاون مع الاتحاد السوفيتى وغيرها من بلدان المعسكر الاشتراكى والدول التقدمية. لم يتم الإعداد لحرب أكتوبر ١٩٧٣ باعتبارها خطوة نحو تحرير الأراضى المحتلة وإقامة السلام العادل فى الشرق الأوسط، وإنما وسيلة لنفاذ الولايات المتحدة الأمريكية مرة أخرى إلى المنطقة وتحت قناع صُنَّاع السلام و"وسطاء الخير". لقد مَثَّلت النوعية الجيدة من الأسلحة والتجهيز العالى للقوات المسلحة المصرية وروحها المعنوية المرتفعة مفاجأة حتى للسادات نفسه، وكانت هذه القوات أن تُنزل بإسرائيل هزيمة حقيقية، وهو ما لم يكن "مخططا" له، فى جميع الأحوال، من قبل. كانت "السيطرة" على هزيمة الإسرائيليين ضرورية للأمريكيين حتى يظهروا فى صورة "المنقذين" لإسرائيل، كما كان من الضرورى بالنسبة لهم أيضا أن تقع مصر فى وضع حرج حتى يقوم الأمريكيون بدور مماثل معها. وقد حقق تسلل القوات الإسرائيلية الغريب عبر قناة السويس إلى الجانب الأفريقى من مصر لتقف على بعد مائة كيلومتر من القاهرة هذا الهدف المزدوج. لقد كانت الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون بمثابة عقاب لمصر للحماس المفرط لقواتها المسلحة، التى قامت على نحو واضح "بتجاوز تنفيذ"، إذا جاز القول، "مهمتها".

لقد كانت الدعوة لعقد مؤتمر دولى للسلام فى الشرق الأوسط انتصارا كبيرا لكل القوى المحبة للسلام، وللدبلوماسية السوفيتية، ودبلوماسية السلام، بالدرجة الأولى، والتى كان من نتائجها أيضا زيادة هيبة الاتحاد السوفيتى على نحو ملحوظ على الساحة الدولية.

لقد هيأت حرب أكتوبر ١٩٧٣ الظروف الموضوعية الملائمة لتسوية سلمية شاملة فى الشرق الأوسط، وأتاحت فرصا واقعية لإقرار سلام حقيقى وعادل ومضمون لكل دول المنطقة. وكان من الممكن أن تتوقف هذه المنطقة عن أن تظل هدفا للحرب والاستغلال السياسى والعسكرى من جانب القوى الإمبريالية. لكن هذا السلام لم يكن ليناسب الولايات المتحدة الأمريكية.

سعت الولايات المتحدة الأمريكية بمساعدة السادات وتنكرها لجميع تعهداتها السابقة لإعادة مؤتمر چينيف الدولى وتوظيفه لصالحها وجعله طريقا للتغطية على مخططاتها فى الشرق الأوسط، وهى تعلم أن التسوية الشاملة لا يمكن أن تتحقق، بطبيعة الحال، دون مصر. لم يحدث من قبل أن انكشف على هذا النحو من الوضوح نفاق الدبلوماسية الأمريكية التى تكيل بمكيالين.

لقد كشف الاتحاد السوفيتى النقاب عن هذه المحاولات وأظهر أمام العالم كله الوجه الحقيقى للولايات المتحدة وأعوانها.

لقد جاء عقد ما سمى فيما بعد "باتفاقيات كامب ديڤيد" تتويجا لسياسة السادات المنفردة التابعة لأمريكا قد أدت إلى النهاية التراجيدية للسادات نفسه.

إن نهاية أى ظاهرة قديمة إنما يعنى ميلاد ظاهرة جديدة. والشعب المصرى الذى أحس بشكل تام بالنتائج الوخيمة لسياسة التبعية للأمريكيين، سواء فى مجال الاقتصاد الداخلى أو فى مجال العلاقات مع الدول الأخرى، وخاصة مع الدول العربية. إن الشعب المصرى الطيب الصامد فى كل الظروف، لا يزال يجد فى نفسه القدرة على العودة إلى الطريق الصحيح، طريق وجوده المستقل الذى يؤدى به إلى التقدم والازدهار، وهو ما يؤمن به أصدقاء مصر المخلصون، الذين يثقون على نحو كامل بمصر المتجددة التى حنكتها هذه التجربة المريرة.

محمد أنور السادات

رتوش على صورة

فى وقت ما من أوقات فراغى من العمل، رحت أحسب كم مرة التقيت فيها بالسادات على مدى سنوات عملى فى مصر فى شتى المناسبات والمواقف. وقد تبين لىّ أننى قابلته حوالى مائتى مرة. أشار علىّ أصدقائى أن أضع على الورق حصيلة انطباعاتى عن هذه اللقاءات لا لكون السادات كان شخصية عظيمة، وإنما لكونه كان على سدة الحكم فى أكبر دولة عربية فى فترة عصيبة للغاية من تاريخ هذه الدولة، وكذلك لأن علاقتنا بمصر لم تكن علاقات واسعة فحسب، وإنما كانت علاقات هائلة متعددة الجوانب وخاصة أنه قد وقعت أحداث جسام فى مسار هذه العلاقات بين بلدينا فى السنوات الأخيرة عقب وفاة ناصر مباشرة. وفى حالة وقوع أحداث مماثلة من هذا النوع يكون للأفراد، كما هو معروف، دور هائل فى بلد ذى نظام استبدادى مثل مصر. إن فهم شخصية الحاكم هنا يكشف على نحو محدد ما يقوم عليه من تصرفات ويكون لهذا الفهم أهمية كبرى فى تفسير السياسات الرسمية التى تنتهجها الدولة. وفى الواقع فإن قرارات رئيس الدولة كثيرا ما تتطابق بشكل واضح مع شخصيته، وهذه القرارات تستند بطبيعة الحال على القوانين العامة لتطور البلاد وعلى حركة التاريخ. ومن هنا يكون من المفيد أحيانا، إلى جانب دراسة قوانين التطور العام للمجتمع وخاصة فى التطبيق المحدد على هذا البلد أو ذاك، النظر فى أسرار شخصية بعض الحكام، تلك الأسرار التى يتوقف عليها مصير الشعوب فى كثير من الأحيان.

وبطبيعة الحال فإن قيمة هذه "الأسرار" المتاحة يتوقف على الملاحظات الشخصية.

لن أتناول هنا سيرة حياة الرئيس السادات، فهى معروفة بالطبع للجميع. لقد أصبح السادات رئيسا للبلاد على إثر وفاة ناصر فى الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ١٩٧٠. وكان السادات فى الأيام الأخيرة التى سبقت وفاة ناصر نائبا للرئيس، النائب الوحيد، ولعل هذا الأمر من بين الأسباب التى لعبت دورا حاسما فى أن يكون هو وليس غيره رئيسا لمصر.

سرعان ما دفع الموت المفاجئ لناصر بالمشكلة الأهم، وهى من الذى سيصبح رئيسا للبلاد. وطبقا للدستور المصرى يصبح نائب الرئيس فى هذه الحالة هو الرئيس المؤقت للبلاد لمدة ستة أشهر. وفى السياق العادى للأحداث يكون من المنطقى أن يعتلى منصب الرئاسة الشخص الأقرب وفقا لمنصبه الحكومي. وقد كان هذا الشخص هو السادات الذى سرعان ما بدأ الحديث فى الدوائر الحاكمة عمن سيصبح رئيسا بعد وفاة عبد الناصر، ذلك أن فكرة أن يصبح السادات هو الرئيس بدت للكثيرين (إن لم يكن للأغلبية) من الشخصيات البارزة أمرا سخيفا. وقد أعرب عن رغبتهم أو استعدادهم لتسليم مقاليد الحكم شخصيات من أمثال زكريا محيي الدين وهو سياسى بارز ذو توجه رأسمالى، صاحب عقل راجح وأهداف واضحة، كما أن له خبرة فى مجال إدارة الدولة؛ حسين الشافعى — من أوائل أعضاء تنظيم "الضباط الأحرار" ومن أنصار الرئيس ناصر فى الثورة، غير أنه يتميز بفكر سياسى رجعي وأفق محدود. اهتم بالإسلام بالدرجة الأولى، وإن ظلت لديه طموحات كبيرة. ومن بين الذين تطلعوا إلى كرسى الرئاسة — على صبرى، أحد المقربين من ناصر، وهو مثقف تقدمي من أسرة ثرية، ولكنه كان يسعى فى الوقت نفسه إلى تقدم مصر ودعم علاقاتها بالاتحاد السوفيتي. وبطبيعة الحال كان هناك النائب الوحيد للرئيس، الذى تسلم هذا المنصب منذ فترة غير بعيدة، ويمكن القول إنه جاء إليه بالصدفة نتيجة نزوة "تغيير الكوادر" دوريا التى كان يطبقها ناصر.

كان من الممكن أن يؤدى الصراع على السلطة إلى عواقب وخيمة على البلاد فى تلك الفترة التى كان جثمان ناصر إبانها لا يزال فى انتظار مواراته الثرى، وقد احتدم الجدل بين قادة البلاد حول كيفية حل مشكلة الرئاسة. كنت فى القاهرة آنذاك ضمن الوفد

السوفيتى الذى وصل لحضور مراسم جنازة ناصر. كان سؤال لمن ستؤول السلطة فى القاهرة يثير اهتمامنا بطبيعة الحال، فقد كانت هناك أمور عديدة تتوقف على من بيده اتخاذ هذا القرار، ولعل من أهم تلك الأمور هو مصير مصر فى القريب العاجل، ثم النهج السياسى الذى ستتبعه والعلاقات مع الاتحاد السوفيتى، وكلها كانت تشكل أمورا جوهرية سواء لمصر نفسها، أو للاتحاد السوفيتى.

لم نتدخل بالطبع فى الشؤون الداخلية لمصر، على أنه نما إلى أسماعنا، إذا جاز القول، أصداء الصراع من أجل السلطة، فعلمنا، حتى من خلال الحديث أحيانا مع رجال دولة أجانب من بين الذين وصلوا إلى القاهرة للمشاركة فى الجنازة. لقد تناولت هذا الموضوع، على وجه الخصوص، فى حديثى مع الكسىّ كوسيجين ومع الأتاسى رئيس سوريا آنذاك، وكذلك مع الرئيس الجزائرى بومدين، ومع رئيس المجلس الثورى للسودان النميرى. كان الأخير شديد القلق ألا يصل إلى السلطة فى مصر الشخص المناسب إلى حد أنه - بما كان يتميز به فى تلك الفترة من سذاجة وسلامة طوية - راح يلح على الكسىّ كوسيجين أن "يجمع كل رجال الدولة فى مصر ومعهم النميرى ليقترحوا من الذى ينبغى أن يكون هو الرئيس". وإلا، وفقا لمخاوف النميرى، تفرق شمل القادة المصريين أو اختاروا، دون تنسيق، رئيسا رجعيا. بالنسبة للسودان كانت العلاقة مع مصر تمثل أهمية قصوى. وكما علمنا بعد ذلك، فقد اقترح عزيز صدقى، رجل الدولة البارز والمؤيد لتطوير التعاون مع الاتحاد السوفيتى، حلا وسطا. طرح صدقى فكرة أن يشغل منصب الرئيس الذى يبدو تعيينه أكثر منطقية ولو من الناحية الشكلية. فهذا الحل ذو الطابع الوسط يمكن أن يهدئ النفوس ولو مؤقتا ولا يسمح بخلق انطباع بوجود قلاقل سياسية فى مصر. وجد هذا المبدأ قبولا ولم يكن من الصعب أن نخمن أن المرشح المناسب وفقا لهذا المبدأ هو السادات وحده، باعتباره نائب الرئيس، والذى تسلم مقاليد السلطة رسميا، "ولو مؤقتا"، فى يديه. وقد أبلغنا السادات بذلك وهو فى غاية السرور بالطبع. وفى نفس لحظة تعيينه قام بما لديه من صلاحيات بتعيين كل من حسين الشافعى وعلى صبرى نوابا للرئيس. أما الشافعى فلأنه كان يطمح إلى منصب رئيس الوزراء، عوضا عن منصب الرئيس، والذى لم يكن أهلا له على الإطلاق. وأما على صبرى، فاختاره السادات لكى يخفف من حدة التناقضات

معه، وهى تناقضات سرعان ما ظهرت على نحو درامى بالنسبة لعلى صبرى نفسه. وجاء منصب رئيس الوزراء من نصيب محمود فوزى، أقدم رجال الدولة وأكثرهم خبرة وصاحب التوجهات البرجوازية. على هذا النحو بدت كل القوى، التى كانت طامحة للسلطة فى البلاد، كما لو كانت قد ارتضت بالفعل بالوضع باعتباره وضعا مؤقتا، عدا تلك القوى اليمينية صراحة مثل زكريا محيى الدين، ثم الدوائر الدينية اليمينية، وقد قبل الضباط الأحرار القدامى بتعيين الشافعى، وقبلت البرجوازية المصرية الكبيرة بتعيين فوزى، والجزء الأكثر تقدمية من الناصريين بتعيين على صبرى. وقد تم إعلان أن السادات سوف يشغل منصب الرئيس مؤقتا لحين إجراء استفتاء شعبى عام. وهذا القرار كان يعكس فى الواقع عدم الثقة فى موقف السادات نفسه وكان، على الأرجح، حلا وسطا وافق عليه كل من كان طامحا إلى هذا المنصب، إذ كان من الممكن إعلان السادات تلقائيا رئيسا، باعتباره شاغلا لمنصب نائب الرئيس ليظل فى هذا المنصب لمدة طويلة، وليس فقط لسنوات ست كما ينص الدستور على ذلك، وإنما إلى أن يتم حل الصراع مع إسرائيل، فقد كان ناصر يمتلك هذه المهلة. تم تعيين السادات رئيسا بصفة مؤقتة، وقد قرر أن يسعى لتصفية حساباته فيما بعد مع الذين أصروا، على الأرجح، على تعيينه "مؤقتا" بصوت أعلى من الآخرين.

بعد برهة من الزمن، وفى ديسمبر عام ١٩٧٠، وبعدما استطاع السادات أن يتكيف بعض الشيء مع وضعه الجديد واستطاع أن يجذب إلى جانبه عددا من الناصريين البارزين، الذين شغلوا مناصب مهمة (شعراوى جمعة، محمد فوزى، سامى شرف)، قرر إجراء استفتاء شعبى. وبمساعدة جهاز سياسى كبير يرأسه الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى شعراوى جمعة، وبمشاركة فعَّالة من جهاز الشرطة الذى يرأسه شعراوى جمعة أيضا، تم اختيار السادات رئيسا للجمهورية بأغلبية ساحقة لمدة ست سنوات، بينما حصل علي صبرى على وعد بأن يحمل صفة "النائب الأول للرئيس"، الأمر الذى سرعان ما أثار حفيظة حسين الشافعى، الذى راح يتشبث بالصفة مدعيا أنه هو النائب الأول للرئيس.

وعلى قمة السلطة، التى كانت ديكتاتورية فى جوهرها بحكم التقاليد الممتدة فى مصر، ربما من عصور الفراعنة، تربع السادات بمساعدة جماعة محدودة تماما من رجال الدولة والسياسة الذين عُيِّنوا فى عهد ناصر، والذين كانوا يشغلون كل المناصب

المهيمنة على مسيرة الدولة. هؤلاء كانوا: شعراوى جمعة – أمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى ونائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية؛ محمد فوزى – وزير الحربية؛ سامى شرف– وزير شؤون رئاسة الجمهورية، وهو الرجل الذى كانت تتجمع فى يديه كل المعلومات العسكرية والاستخبارات السياسية؛ محمد فائق – وزير الإعلام، المسيطر على الصحافة والإذاعة، لبيب شقير – رئيس مجلس الأمة (السلطة التشريعية فى البلاد)؛ عبد المحسن أبو النور – الأمين الأول الأسبق للاتحاد الاشتراكى العربى إلى جانب مناصب أخرى. وقد ظلت اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى العربى، وهى هيئة استشارية تابعة للرئيس أسسها عبد الناصر تمارس عملها وتضم كل القيادات المذكورة وكذلك قيادات أخرى. ومع ذلك كان السادات يشعر أنه لم يُحكم بعد قبضته على السلطة.

كان السادات مُحقا فى ظنه فى أن الشافعى لا يمثل منافسا حقيقيا له. كانت مثالب هذا الرجل واضحة أمامه وضوح الشمس، ولم يكن باستطاعته الاعتماد عليه اعتمادا جادا. ومن ناحية أخرى، فإن علي صبرى كان يعلق، على سبيل المثال، آمالا كبارًا على أن السادات منحه للمرة الأولى لقب النائب "الأول" للرئيس، وهو، على حد قوله، كان له مغزٍ كبير "لو أن أمرا ما" وقع للسادات. الحس السياسى المحنك لم يخنِ السادات، وها هو يقرر أن يكون أكثر حذرا.

أثناء جنازة ناصر وقعت حادثة عجيبة. فبعدما تم تجهيز الموكب كيفما اتفق، وكان يضم عددا كبيرا من ممثلى الدول الأجنبية – رؤساء دول وحكومات وكذلك قيادات مصرية بارزة، تحركنا جميعا فى الطريق تحت شمس حامية الوطيس من باحة مبنى قيادة الثورة فى الجزيرة باتجاه موقع الدفن فى المسجد المقام فى هليوبوليس، وبعد برهة، ظهر "موكب" آخر فى مواجهة الصفوف الأولى. كانوا يحملون شخصا على كرسى. تدلت رأسه، بينما راحت ساقاه تتأرجحان. كان الرجال الذين يحملون الكرسى يهرولون وهم يشقّون طريقهم عبر الزحام عكس سير الجماهير. كانوا يحملون السادات. بدا الأمر غريبا وغير مألوف لىّ: شيء ما حدث. ولكن ما هو؟ بعد برهة أخرى، شاهدت كيف راحت الجموع التى سرعان ما ابتلعت الموكب. ولمّا لم يكن باستطاعتى الخروج بعيدا عن حدود المكان، الذى تقع فيه نقطة الانطلاق، إذا بكوسيجين يسير فى ملاقاتى – لقد اختلط كل

شيء، ولم يكن الحديث عن أي نظام من أي نوع ممكنا. اضطر جميع الضيوف الأجانب إلى مغادرة الموكب وحول النعش كانت الجماهير الهادرة تزحف دون أن يستطيع أحد التحكم في اتجاهها....

أخبرت ألكسيّ كوسيجين أنني شاهدت السادات محمولا على كرسي وأعربت له عن فكرتي بضرورة ذهابه إليه والإعراب عن اهتمامه بأن يكون شيئا ما خطيرا قد وقع، وعلى أية حال، فمن الواجب أن نعبر عن تعاطفنا.

في البداية أجاب المسؤولون المصريون ردا على استفسارنا بأنهم لا يعرفون شيئا، ثم "أسَرّوا" لنا أن السادات في حالة نفسية سيئة وأنه من غير الممكن مقابلته. راودتني فكرة أن يكون مكروها قد وقع له. وأخيرا، وبعد جدال طويل، سمح المصريون لألكسيّ كوسيجين فقط ومعه مترجم واحد بالدخول إلى إحدى الغرف في المبنى، وهناك كان يرقد رجلان على سريرين بسيطين — السادات وعلي صبري. وقد اتضح أن صبري كانت حالته أسوأ وقد جيء به إلى هنا قبل السادات بفترة طويلة. وعندما أبلغوا السادات بذلك ازدادت حالته سوءا فأحضروه إلى نفس الغرفة. كلاهما ظل راقدا، وفق شهود العيان، في مظهر لا بأس به، ولكنهما كانا يتأوهان وكأنما يتنافسان فيما بينهما. وقد شرح لنا الأطباء أن ما بهما هو نتيجة لما وقع عليهما من ضغط عصبي. أقولها صراحةً، لقد تسرب الشك إلى نفسي من جرَّاء هذا المشهد. فيما بعد راودتني فكرة أخرى أوحت ليّ بها الأحداث ذاتها التي كان من المحتم أن تحدث في مصر في خضم الصراع على السلطة الذي تجلى فيما بعد.

من الممكن أن يكون السادات قد ذهبت به الظنون، بعد أن سمع "بمرض" علي صبري، منافسه المحتمل، إلى أن الرجل يدبر شيئا ما بحيث يصبح هو الرئيس بعد دفن جثمان الرئيس وليس هو. وهنا ادعى السادات أن حالته "سيئة" وأسرع ليكون بجواره حتى لا يغيب علي صبري عن ناظره. على أية حال، فقد دفن ناصر دون حضور الرجلين: السادات وعلي صبري، ودون حضور العديد من القيادات الأخرى. كان أبرز من رافقه حتى مثواه الأخير هم زكريا محيي الدين، وحسين الشافعي، والنميري، والمتطرف الشاب الزعيم الليبي العقيد القذافي. هؤلاء استطاعوا الصمود في خضم هذا الزحام الخارق

للعادة للآلاف من الناس وأن يتماسكوا على امتداد طريق يبلغ طوله عدة كيلومترات عبر شوارع القاهرة الملتهبة من شدة الحرارة. ومع ذلك فقد سرت شائعة بين الجماهير تزعم أن ناصر لم يدفن فى هذا المسجد حيث ورى جثمانه أمام الجميع...

استقرت حالة الاضطراب التى صاحبت موت ناصر وانتخب السادات رئيسا شرعيا للبلاد وبدا أن كل شىء أصبح على ما يرام. لكن المجموعة التى تبقت منذ عهد ناصر والتى كانت تمسك فى الواقع بالسلطة، أحاطت بالسادات وأبدت ولاءها له. وسرعان ما بدا واضحا أن هذه المجموعة من الناصريين أرادت بحصافة تامة أن ينصت إلى رأيها وألا يضع إرادته على أية حال فوق إرادتها. كانوا يتطلعون إلى قيادة جماعية انطلاقا من معرفتهم الجيدة بالدرجة الأولى بالصفات الشخصية والطموحات السياسية التى لدى السادات. كانوا يفترضون، من حيث المبدأ، أن السادات سوف يأخذ بعين الاعتبار آراءهم ليس فقط لأنهم جميعا يشغلون مناصب حكومية واجتماعية رفيعة، ولأن كلا منهم يتولى مسؤولية كبرى فى مجاله، وإنما لأنهم كانوا يريدون أيضا أن يروا السادات شريكا لهم من الناحية الفكرية، وخاصة فيما يتعلق بحل النزاع العربى الإسرائيلى وفى علاقات مصر بالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى.

كانت هذه المجموعة من رجال الدولة تنطلق من أن الولايات المتحدة الأمريكية هى العدو الرئيسى للوطنية المصرية، وأن الهدف الرئيسى للسياسة الأمريكية لا يتوقف عند مجرد مساعدة إسرائيل على الاحتفاظ بالأراضى العربية المحتلة. وإنما فى تغيير البنية الداخلية للبلاد العربية التقدمية وتحويلها إلى طريق التطور الرأسمالى البحت، بحيث تصبح مصر وغيرها من الدول العربية مستقلة ظاهريا وإن ظلت فى واقع الأمر تابعة للنظام الرأسمالى العالمى، أى للولايات المتحدة الأمريكية، من الناحيتين الاقتصادية والسياسية. ومن ثم، تصبح هناك إمكانية تبعيتها أيضا من الناحية العسكرية. كان هذا المستقبل مخالفا بطبيعة الحال للطموحات الأيديولوجية للقوميين المصريين الذين كانوا يحيطون بناصر؛ فضلا عن أن الانحراف عن الطريق الذى كان ناصر يقود مصر إليه

بعد الثورة، كان يعنى وصول أشخاص آخرين إلى السلطة الحقيقية والشكلية فى مصر، وهو ما كان يشكل تهديدا شخصيا لهم. وكان أكثر ما يخشونه هو تقلبات الرئيس الجديد ومتناقضاته. كانوا يخشون ذلك لأنهم كانوا يعرفونه حق المعرفة.

منذ الأيام الأولى راح هؤلاء الناس جميعا يخدمون بشرف رئيسهم الجديد. كانوا يرون أن مهمتهم تنحصر فى أن يكونوا أكثر اقترابا من الرئيس. أن يجذبوه إليهم، ألا يعطوا فرصة لأى تأثير "خارجى" أن ينفذ إليه. أن يربطوه بخطوات جديدة سياسيا فى المسار الناصرى.

على أنهم سرعان ما اقتنعوا بعدم فعالية هذا النهج. لقد راح السادات يتخذ أكثر فأكثر قرارات منفردة غاية فى الأهمية دون أن يتشاور مع مَنْ كانوا يبدون أصدقاء مخلصين لنهجه السياسى، بل وصل الأمر إلى حد عدم إبلاغهم بما سوف يقدم على عمله. والذى حدث أن هؤلاء لم يعرفوا بالعديد من القرارات إلا من خلال خطابات الرئيس أمام اجتماعات مجلس الأمة أو من خلال الإذاعة. حدث ذلك على سبيل المثال عندما أعلن السادات عام ١٩٧١ "عاما للحسم" فى الصراع العربى الإسرائيلى. وقد اتضح بعد ذلك القرار أن شيئا لم يحدث، اللهم إلا طموح فارغ من جانب الرئيس نفسه. وهو ما حدث أيضا مع ما أطلق عليه "مبادرة السادات" فى فبراير ١٩٧١، عندما اقترح انسحاب القوات الإسرائيلية لمسافة ما فى عمق سيناء "مقابل" فتح قناة السويس أمام الملاحة. أو، على سبيل المثال، الموافقة على قبول اقتراح الأمريكيين المعروف باسم "المفاوضات عن قرب" فى نيويورك، أى المفاوضات المصرية الإسرائيلية المباشرة بوساطة أمريكية. وأحيانا ما كان بعض المقربين من السادات ينجحون فى "الإمساك به" فى اللحظة الأخيرة بالفعل وإرغامه على تصحيح خطابه أو حتى قراره. وعندئذ كان جميع نواب مجلس الأمة المجتمعين ومعهم السفراء الأجانب يعانون من الملل من جراء الانتظار وعدم معرفة ما يحدث. كان الانتظار أحيانا ما يصل إلى أربعين وخمس وأربعين دقيقة وأثناء ذلك، كما اتضح فيما بعد، كان المقربون من السادات يسعون "لإقناعه" أن يغير خطابه أو قراره. وبطبيعة الحال كانت الشائعات والتخمينات تسرى على الفور بين السفراء حول طبيعة ما يحدث. أما أنا، فمن أين لىَ أن أعرف ما كان يحدث آنذاك (ولو عرفتُ فلم أكن لأتحدث).

لقد اعتبر الناصريون أن أخطر شيء فى تصرفات السادات هما قضيتى العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية من جانب، ومع الاتحاد السوفيتى من جانب آخر. وفى الحقيقة، فالمسألتان كانتا وثيقتى الصلة كل منهما بالأخرى. كان الناصريون يخشون أن يُقدِّم السادات تنازلات مهينة للولايات المتحدة الأمريكية، لعلمهم بأنه ضعيف أمام التملق والإطراء وأنه شديد الإعجاب بنفسه، اعتاد أن يثق فى القوة، وأن تعليمه وفكره قاصران. كانوا يعلمون أيضا أنه لا يحب الاتحاد السوفيتى، وأنه كان يخشى هذا التناول الصريح الصادق من جانب السوفيت للقضايا السياسية. لم تكن الأيديولوجية السوفيتية مقبولة لديه وكان كل ما يسعى إليه هو استغلال الاختلاف السياسى بين الدولتين العظميين — الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، لصالح مصر، على قدر فهمه هو لهذه المصالح. كان السادات أساسا رجلا يمثل الفكر الريفى المتخلف، بينما كان الناصريون يمثلون أفكار " مثقفى الطبقة الوسطى " فى مصر. كان السادات هدفا للسخرية والنكات والنوادر الطريفة بسبب محدودية ثقافته بشكل أساسى، أما الناصريون فهم أناس، وإن لم يحصلوا على تعليم رفيع، فهم على أية حال من "مثقفى المدن" الأكثر تعليما إذ تلقى غالبهم تعليما جامعيا.

كان أكثر ما أثار مشاعر الخوف لدى الناصريين هو تلك المراسلات التى جرت على نحو فردى بين السادات والرئيس الأمريكى، والتى لم يحط السادات الاتحاد السوفيتى علما بشأن ما جاء فيها من خطوات اتخذها فى مسار علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما رأى فيه الناصريون سببا لأن يشعر الاتحاد السوفيتى حتما بفقدان الثقة فى السادات. وفى هذا الصدد تحديدا كان الناصريون يقفون بشكل قاطع مع ضرورة الاعتماد على الاتحاد السوفيتى.

أربكت موافقة السادات على حضور وزير الخارجية الأمريكى روجرز إلى القاهرة فى مطلع شهر مايو ١٩٧١ حسابات الناصريين، ومن ثم تحولت مخاوفهم بشأن اتخاذ السادات خطوات محتملة تجاه الولايات المتحدة الأمريكية إلى أمر واقع. وفى هذا الوقت اتسمت علاقات معظم رجال الدولة فى مصر بالسادات بالكلفة الشديدة والبرود نتيجة الفضيحة الخاصة بالقرار المنفرد الذى اتخذه السادات بشأن إقامة اتحاد فيدرالى بين كل

من مصر وسوريا وليبيا؛ فضلا عن أن شروط هذا الاتحاد قد صيغت على نحو بالغ السوء إلى حد يسمح بأن يكون لمصر رئيس ليبى أو سورى! لقد احتوت هذه الأفكار الضبابية على العديد من الأمور الغامضة غير المدروسة، والتى طرحت على الورق بشكل متعجل على هيئة مشروع لدستور اتحاد مغلق. أتذكر كيف عرض ناصر فى فبراير ١٩٧٠، إبان ما عُرف باسم "الزيارة السرية" لموسكو أفكاره بشأن إقامة وحدة عربية، رأى أنها لا تزال فى حاجة إلى النقاش والتشاور. وفى طرحه لهذا الموضوع بشكل ودى على القيادة السوفيتية آنذاك عبَّر ناصر عن رؤيته لضرورة التعامل مع مثل هذه الأمور بحرص بالغ، إذ إنها تمس ليس فقط حياة بعض الناس، وإنما أيضا وجود دول بأكملها، وأن على المرء أن يزن المسألة بدقة، حتى لا تؤدى هذه الخطوة إلى التنافر بدلا من دعم الوحدة. لم يصر ناصر على إقامة الوحدة وطرح فكرته جانبا ليلتقطها السادات ويقيمها على نحو مفاجئ وعاجل، وقد كان مصيرها على النحو الذى تنبأنا به.

نجح السادات فى إخماد فضيحة الوحدة، لكنه تلقى درسا ملهما فى الجلسة الختامية للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى، حيث وجَّه له رجال الدولة المحنكون، باستثناء عدد من أذنابه من غير ذوى الثقل، نقدا حادا للوحدة ولشروطها ولمجمل تصرفات الرئيس فى هذا الشأن فى واقع الأمر. هل كان من الممكن أن يمر الأمر دون أن ينتقم السادات لنفسه، وهو الذى كان يمتلك خصلة بالغة السوء – عدم نسيان الإهانة؟

أوقعت زيارة روجرز الناصريين فى اضطراب شديد. ومثل كابوس ليلى ثقيل تراءى لهم مستقبل المفاوضات المصرية الإسرائيلية المباشرة بوساطة أمريكية. ومن ثم تنبأوا بشكل واضح بإقصاء الاتحاد السوفيتى كواحد من تبعات هذه الخطوة. لقد توقعوا أيضا أن يستغل الأمريكيون قدرتهم فى الضغط على إسرائيل وإرغامها على تقديم بعض التنازلات حتى يستطيع السادات "ابتلاع" ما سوف يقترحونه عليه. أما قضية إعادة الأراضى المصرية المحتلة فسوف تتحرك من سكونها بمساعدة أمريكية، وسوف تعود العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذى قد يؤدى إلى زيادة النفوذ الأمريكى فى كل أوجه الحياة فى البلاد. وسوف يصعد ممثلو الطبقات والدوائر الرجعية الذين حاربهم ناصر وأنصاره بعناد، وسوف يتم تغيير القيادات الحالية ويتغير نهج البلاد حتما،

وتصاب العلاقات بين مصر والدول العربية بأبلغ الضرر، ويتم خيانة الأنظمة التقدمية ويصبح الرجعيون من أمثال فيصل هم أصدقاء مصر...

فى محاولاتهم قطع زيارة روچرز كان "المتآمرون"، كما باتوا يعرفون بهذا الاسم، مستعدين حتى إلى القيام بعمليات عسكرية دون إذن ضد إسرائيل، من أجل أن يضعوا الرئيس أمام الأمر الواقع، ففى ظروف الحرب لن يجرؤ روچرز على المجيء لمصر، أما اللجوء للعمليات العسكرية فيمكن لهم تبريره بأنه عمل وطنى والمنتصرون على حق دائما. عموما فقد سعى الناصريون فى خططهم لاستخدام الاتحاد السوفيتى بقدر الإمكان ولو أدى الأمر إلى المواجهة العسكرية المباشرة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا راحوا يلحون على "التدخل السوفيتى" على نحو أكبر، أى بزيادة عدد المستشارين العسكريين السوفيت والعاملين العسكريين فى مصر بشكل عام.

كيف انتهت محاولة هذه الجماعة من القيادات الحكومية والشخصيات العامة التأثير على السادات والسيطرة عليه أو حتى العمل معه وخاصة عند اتخاذه لقراراته أمر معروف جيدا للجميع: لقد زج السادات بهم فى السجون لمدد طويلة. فى مايو ١٩٧١ تم اعتقال: علي صبرى نائب الرئيس (نصيره الأول كما كان السادات يعتبره)؛ شعراوى جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وأمين اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى (كان جمعة "يستعد" ليقوم بدور رئيس الوزراء ثم الرئيس بعد ذلك)؛ محمد فوزى وزير الحربية (الوطنى المخلص، الإنسان الجدير بالاحترام، الصديق الرائع للاتحاد السوفيتى)؛ سامى شرف ("رئيس" كل أجهزة المخابرات ومحاربة التجسس)؛ لبيب شقير رئيس مجلس الأمة (اليسارى الماركسى)؛ محمد فائق وزير الإعلام، أحد أكبر المثقفين؛ عبد المحسن أبو النور الأمين الأول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى – رئيس المنظمة السياسية الوحيدة فى البلاد، وغيرهم من القيادات. كان هؤلاء الرجال يتولون مناصب حساسة، وكانوا فى الواقع هم من بيدهم مقادير الدولة، وفى لحظة واحدة إذا بهم خلف القضبان. هل كانت لديهم النية آنذاك فى إزاحة السادات؟ لا أظن. ومما يؤكد ذلك أعمالهم التى سبقت اعتقالهم.

لقد قرر السادات أن يبدأ الضربة الأولى، وكانت ضربة استفزازية.

فى البداية أقال علي صبرى نائب الرئيس من منصبه، وكان قد أبلغ السفير السوفيتى بهذه الخطوة قبل اتخاذها بثلاثة أيام. كانت حساباته فى ذلك اختبار رد فعل الاتحاد السوفيتي: هل سيبدى اعتراضه أم يكون له موقف آخر. هل يقف الاتحاد السوفيتى خلف علي صبرى و"أصدقاؤه" فى الداخل كما حاول الأمريكيون بإصرار أن يوحوا له بذلك؟ فإذا ما عبَّر الاتحاد السوفيتى عن استيائه فهذا هو البرهان. فضلا عن ذلك فقد بدا أن يدى السادات أصبحت طليقة فى اتصالاته المقبلة مع الأمريكيين، الذين سيجدون الذريعة إذا ما تصرف الاتحاد السوفيتى بشكل "سيئ". إبان لقائه بى شرح السادات لىّ نيته فى عزل علي صبرى لأن العمل معه أصبح صعبا، ولأنه يعارض الرئيس. وأضاف السادات أنه يحيطنى علما بقراره مسبقا لأنه يتوقع أن تنتشر الشائعات حتما لتقول إن قراره يُعد بمثابة لفتة غير ودية تجاه الاتحاد السوفيتى.

وبعدما اقتنع السادات أنه لن يكون هناك أى اعتراض من الجانب السوفيتى (لم يكن من الممكن أن يحدث ذلك بطبيعة الحال نظرا لأنها قضية مصرية داخلية، وقد اكتفيت بعدها بتقديم النصيحة بضرورة الحفاظ على وحدة القيادة فى البلاد). اتخذ السادات خطوته. استدعى شعراوى جمعة وقال له إنه غير راضٍ عنه واقترح عليه إما أن يقدم استقالته بنفسه وهو الأكثر كرامة، وإما سيُضطر لعزله من منصبه. انتهى الحديث بأن قرر شعراوى جمعة أن يقدم استقالته، وبعد أن غادر جمعة مقر الرئيس توجه ليخبر رفاقه بما حدث. وكانت النتيجة أن اتخذوا قرارا بتقديم استقالاتهم جميعا. قرار غبى وسخيف لو أن "المتآمرين" كانوا يرغبون حقا فى إزاحة السادات! فما الذى منعهم وقد كان الجيش والشرطة والاتحاد الاشتراكى العربى ومجلس الأمة ومنظمات الشباب والصحافة والإذاعة وهلم جرا رهن إشارتهم. أما كانت لديهم حسابات ساذجة فى أن تجبر الاستقالة الجماعية لقيادات الدولة السادات على أن يغير قراره بعزل شعراوى جمعة، أو على إجباره على تغيير النهج الذى اتخذه بأن يحكم منفردا ويوافق على أن "يحكموا معا" (؟) لقد تصرف السادات وفقا لمنطقه هو – منطق التآمر الذى مارسه زمنا طويلا إبان عمله السرى. لقد أدرك أن تنازله الآن سوف يكون وبالا عليه فى المستقبل.

لقد كشفت الاستقالة الجماعية له عن جوهر القضية: كانت الاستقالة تعنى أن الناصريين كانوا يرون أن طريقهم مختلف عن طريق السادات. وما دام الأمر كذلك، فهذا يعنى أن من المستحيل مستقبلا الاعتماد على خضوعهم لطاعته وولائهم لرئيسهم ومن ثم لقراراته. وحتى وهم بعيدون عن السلطة فسوف "يعكرون المياه" لأنهم مشهورون، ولأنهم أذكياء، ولأنهم يتمتعون بالنفوذ والثقة وخاصة من جانب الاتحاد السوفيتى، ولأنهم معروفون فى البلاد الأخرى وخاصة فى الدول العربية. إذا فهم أعداؤه، إن لم يكن من ناحية الشكل، فمن الناحية النفسية. وهو ما يعنى أنه إذا كان عليه أن يحكم منفردا، فعليه بالضرورة أن يقوم بعزلهم عن المجتمع وعن الدولة، وأن يفعل ذلك بكل ثبات.

اعتقل السادات كل من أشرنا إليهم من شخصيات، واضطر بالطبع أن يضم إليهم العديد من الأشخاص جرت لهم محاكمة غير علنية صاخبة، وُجهت إليهم فيها تهمة الخيانة(!!) وصدر الحكم فيها بإعدامهم شنقا، ثم تم تعديل الحكم بقرار شخصى من الرئيس إلى السجن المؤبد بالنسبة "للمتهمين" الأساسيين. ولا يمكن أن نعزو هذا "الكرم" من الرئيس إلى خصاله الشخصية النفسية بطبيعة الحال. كان من الواضح أن السادات وضع فى حسبانه ألا يقطع شعرة معاوية مع الاتحاد السوفيتى، إذ كان يعلم أن ما جرى من تنكيل لم يكن ليمر مرور الكرام، فالاستمرار فى المناورة مع الاتحاد السوفيتى ما زال أمرا واردا فى مخططات السادات.

وأخيرا، وبداية من منتصف شهر مايو عام ١٩٧١ دانت السلطة بأكملها لمحمد أنور السادات ليس فقط اسميا وإنما فعليا أيضا. الآن لم يعد أحد يحيطه من الشخصيات ذات النفوذ، الشخصيات صاحبة الرأى، الشخصيات التى ارتبطت بالعمل مع الرئيس الراحل عبد الناصر. لم يبق سوى إصدار الأوامر والنظر إلى كيف ستُنفذ التعليمات.

وفى أبريل عام ١٩٧٢ استخدم السادات "الاحتياطى" الأخير من السلطة: فقد أعلن نفسه "الحاكم الأعلى" للبلاد وبهذا أصبح من ناحية الشكل أيضا فوق السلطة التشريعية، كما استولى لنفسه على منصب رئيس الوزراء، أما منصب رئيس الاتحاد الاشتراكى العربى فكان يشغله بالفعل من قبل. وفى سياق ذلك، قام بحل اللجنة التنفيذية العليا

للاتحاد الاشتراكى العربى. وهكذا جمع فى يديه كل شىء بما فى ذلك لقب القائد الأعلى لاتحاد الجمهوريات العربية والقائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية.

ليست بنيتنا أن نستمر فى الحديث عن "قائمة الوظائف" التى شغلها السادات، فالحياة قد كشفت لنا بعد ذلك أنه كان أحيانا ما يعطى جزءا من سلطاته (من أجل مصالحه الشخصية) لآخرين. يعطيها ليضع هؤلاء الآخرين تحت قبضته، حيث يمكن أن يسقط آثامه فى الحكم على رؤوسهم. على هذا النحو كان يتصرف: قام بترقية الذين ساعدوه لأسباب مختلفة، وأحيانا لدوافع وطنية شريفة، ثم أقالهم بعد ذلك، إذ لم يكن ليسمح بأن تكون هناك فرصة أمام أحد ليكتسب شعبية فى بلاد لها رئيس قادر مهيمن. وكثيرا ما كان يقيل هذا الشخص أو ذاك ليلقى على رأسه بتبعات كل الأخطاء الممكنة وغير الممكنة. وكثيرا ما دفع للأمام بأناس عديمى الموهبة، مفترضا أن استخدام رجل عديم الكفاءة أفضل من رجل ذكى متمرد. وعندما تنهار الأمور يمكن فصل عديم الموهبة غير مأسوف عليه، بل ويمكن أيضا إلصاق كل النقائص الممكنة به.

إن القصة الموجزة لانطلاق السادات إلى السلطة كانت أمرا ضروريا لكى نفهم على نحو أفضل هذه الشخصية متعددة الأوجه، لأنه لا شىء يمكن أن يحدد ملامح أى شخصية سوى ما تقوم به من أعمال.

- ٢ -

على أى نحو يبدو الوجه السياسى للسادات؟ من الذين يمثلهم؟ من الذين يعكس مصالحهم؟ من يقف وراءه؟ بالطبع يمكن طرح العديد من مثل هذه الأسئلة وكلها مشروعة تماما، على الرغم من أن إعطاء إجابة واحدة عليها أمر بالغ الصعوبة.

فإذا تحدثنا بشىء من التعميم، ومن ثم إمكانية وقوع أخطاء فى هذا الجانب أو ذاك، فإنه يمكن تحديد الوجه السياسى للسادات بوصفه ممثلا لمصالح هذا القطاع من البرجوازية الوطنية التى لا تحوز ممتلكات كبيرة، ولكنها تمتلك شيئا ما على أية حال.

برجوازية عرفت مذاق الملكية الخاصة. وهى ترى أن علاقات الملكية الخاصة يعنى السعى نحو الثراء المالى وليس الروحانى بالضرورة.

هذا القطاع من البرجوازية، سواء أكان صغيرا أم متوسطا، يتصف بضيق الأفق، فهو ينظر بحسد إلى جوانب القوة فى الدول الغربية، وهو معادٍ بطبيعته للمثل الاشتراكية، حيث إن المبادئ الاشتراكية تضع حدا واضحا بين طبقات المجتمع، وبالنسبة لهؤلاء البرجوازيين الصغار، مثل السادات، لا توجد طبقات، وعلى أية حال، فهى غير موجودة فى مصر. ربما توجد فى مكان ما هناك، حيث توجد الماركسية، ولكن فى مصر؟ أين هى الطبقات فى مصر؟ هناك مصريون فقط، بل ولا يوجد عرب، مصريون يتميزون بتعدد اللهجات.

كان ناصر يتحدث بإصرار عن شعبه باعتباره شعبا عربيا، أما السادات فكان يشدد فى حديثه على المصريين. فى عهد ناصر كانت الدولة تسمى الجمهورية العربية المتحدة، وفى عهد السادات أصبحت تسمى جمهورية مصر العربية. فى عهد ناصر كان القوميون يسعون "لإثبات" أن العرب جاءوا بثقافتهم إلى مصر، وفى عهد السادات راحوا يثبتون أن الثقافة المصرية كانت حتى لحظة وصول العرب أكثر قوة وعمقا وتطورا، ومن ثم فإن القادمين العرب استوعبوا الثقافة المصرية المحلية.

إن السادات – خصم الرأسمال الضخم والبرجوازية الكبيرة، لا طاقة له، من ناحية المبدأ، على مواجهة كل أشكال الملكية الخاصة، التى هى أساس استغلال الإنسان للإنسان، لأنه لم يكن ينتمى قط إلى البرجوازيين الكبار، وعلى الرغم من أنه كان يكن لهذه البرجوازية الاحترام فى قرارة نفسه و... يخشاها.

نعم، يخشاها، لأنه كان واثقا أن البرجوازية ليست فى حاجة إلى السادات، وأنها ستلقى به فى المكان المناسب. إن البرجوازية المصرية بحاجة إلى رجل ذكى مثقف، وإلى زعيم يعرف قضيتها جيدا. والآن؟.. الآن سوف يكون عليها أن تتحمله. ليس فقط تتحمله، بل وتساعده وتؤيده. لماذا؟ لأنها ترى السادات، ربما يسير، دون وعى منه، نحو إصلاح سلطة البرجوازية المصرية. وعلى أية حال، فإن مجمل سياساته فى الشؤون الداخلية

والخارجية توفر ظروفا مناسبة فى هذا السياق، وهى لا تتعارض مع المصالح الجذرية للبرجوازية المصرية الكبيرة. الأمر الوحيد كيف ينبغى لفت نظره حتى يسرع أكثر للعمل لصالح هذه البرجوازية بالإيقاع التى تطمح إليه. لكن "الذنب" فى ذلك ليس ذنبه: لقد مدَّت الإصلاحات الاجتماعية التى تمت فى عهد عبد الناصر جذورا عميقة، ولم يعد الشعب المصرى شعبا طيعا لكى ينفذ كل مطالب السادات. لقد ذكَّرت الإضرابات والمظاهرات الجماهيرية القوية التى قادها العمال بدعم من الحركة الطلابية التقدمية، ذكَّرته مرارا بضرورة وضع حد لصبره.

كانت النزعة البرجوازية لدى السادات تحمل طابعا ريفيا نتيجة أصوله القروية. وكثيرا ما كان يصور فى خطبه العلنية القرية المصرية باعتبارها مثالا لمصر ونموذجا للحياة الريفية الرغدة للمجتمع المصرى كله. لم يتحدث السادات مرة واحدة عن أن هذه القرية المصرية تحديدا ذات أوجه متعددة، هو لم ير أن فيها أغنياء وفقراء أصبحوا هكذا تحديدا بسبب الظلم، فهو لم ير الاستغلال فى القرية.

إن القرية بتقاليدها الريفية المسترشدة بالإسلام، والتى تعيش حياتها وفقا لتعاليم الإسلام على مستوى الدولة كلها هى، بالنسبة للسادات، المثال "الاشتراكى"، هى الاشتراكية المصرية فى فهمه، أو إن شئنا الدقة، على النحو الذى يريده.

إن السادات، بقدر استطاعتى الحكم عليه من خلال خطبه وأحاديثى الشخصية معه، كان لديه تصور مبهم للغاية فى القضايا الاقتصادية، وفى هذا الشأن كان باستطاعة أيٍ من رؤساء الوزراء أو من وزراء الاقتصاد أن يخدعه فيها بسهولة. كان السادات يولى ثقته لأى مقولة أو لأى رقم، إذا كان مصدره فى ذلك شخص أهلا للثقة فى اللحظة الراهنة. كان باستطاعته، على سبيل المثال، أن يؤكد للأمريكيين بهدوء ودون أن يبدو عليه أى قدر من الارتباك أن رواتب المستشارين العسكريين السوفيت تكلفه مبالغ باهظة وأن عليه أن يدفع هذه الرواتب بالعملة الصعبة ! بالمناسبة، لم تدفع مصر أى رواتب للسوفيت، ناهيك عن أنه لم تكن هناك أى حسابات مع مصر يتم التعامل فيها بالعملة الصعبة.

ذات يوم وإبان حديثى مع الرئيس السادات، وكان فى حالة مزاجية رائعة، وهو أمر نادر الحدوث، طرحت عليه سؤالا حول تصوره لتطوير الزراعة المصرية فى المرحلة المقبلة، ففى مصر لا توجد أراضٍ فائضة، بمعنى احتياطى من الأراضى الزراعية يمكن استغلاله. فالسكان يعيشون على شريط ضيق من الأراضى يصل فى بعض التقديرات إلى ٣٪ من المساحة الإجمالية للبلاد، بينما تمثل باقى الأراضى صحارٍ قاحلة يمكن استصلاح بعضها. وتشير الإحصاءات أيضا إلى أنه حتى لو جرى رى كل هذه الأراضى القابلة للاستصلاح وجعلها أراضٍ خصبة فإن الأراضى المصرية المأهولة والمستخدمة لن تزيد على ٤٪ من إجمالى مساحة البلاد.

باختصار، زيادة الإنتاج الزراعى بفضل زيادة الأراضى المستصلحة محدودة بشكل واضح. وعلاوة على ذلك، فإن الزراعة هى التى تمثل الجزء الأكبر فى الاقتصاد القومى للبلاد: ففى مصر لا توجد ثروات طبيعية ومن ثم فإن ارتباطها بالاستيراد من الخارج كبير، وهى مضطرة لأن تسوى حساباتها من منتجاتها الزراعية الخام أو المصنعة. من هنا يتضح لنا الدور الهائل للزراعة، التى يعمل فيها بالمناسبة غالبية السكان. إن تنمية الزراعة ليست قضية اقتصادية فحسب، وإنما هى قضية اجتماعية. ولهذا فإن زيادة الإنتاج الزراعى والطرق المستخدمة من أجل ذلك سوف يتوقفان لا على الوضع الاقتصادى للبلاد إجمالا، ولا على رفاهية السكان كلهم فحسب، وإنما على التركيب الطبقى للمجتمع المصرى، ومن ثم على الشكل الاجتماعى للبلاد وعلى طابع العلاقات الاجتماعية فيها.

حاولت أن أطرح كل هذه المشكلات على السادات وكنت شديد الاهتمام بالاستماع إلى رأيه. وهنا انعكس على وجهه شعور واضح بالملل وأجاب بأن علينا أن نفكر فى هذه القضايا "بعد النصر".

حاولت مرة أخرى أن أطور فكرتى فى اتجاه مختلف بعض الشىء، إذ كنت أرى أنه فى سياق الطريقة الحالية للإنتاج سرعان ما تصبح المنتجات الزراعية غير كافية لإشباع حاجات الغذاء والتصنيع والتصدير، ناهيك عن أن مساحة الأراضى القابلة للزراعة محدودة أساسا. بالطبع فإن جزءا من الزيادة فى الإنتاج الزراعى يمكن الحصول عليه

من خلال تكثيف الإنتاج سواء باستخدام الأسمدة والبذور الجيدة، إلى جانب استخدام الميكنة الزراعية وما إلى ذلك من وسائل. ولكن حتى هذه الأمور لها حدود قصوى. سرعان ما أصبحت قضية زيادة الإنتاج وثيقة الصلة بنظام استغلال الأراضى وخاصة الأراضى الصغيرة نسبيا. فمن المعروف أن فعالية الإنتاج تكون أكبر فى الأراضى الشاسعة، حيث يمكن استخدام الميكنة الزراعية. إذن كيف يمكن التعامل مع الملكيات الصغيرة؟ ستظهر على الفور مسألة ضم الأراضى، وهنا تختلف الوسيلة: فإما يتم زيادة الملكيات الصغيرة الخاصة على حساب شراء أراضى الآخرين، أى بإفقار البعض وإثراء البعض الآخر، وإما بضم الأراضى بالإرادة الطوعية للفلاحين فى إطار نظام المزارع الجماعية. ما الطريق الذى ستسير فيه القرية المصرية؟

اعترف السادات صراحة أنه لم يفكر من قبل فى هذا النوع من القضايا. الأمر الوحيد الذى يؤمن به هو حكمة الفلاحين، الذين هم مِلحُ الأرض والقادرون على اختيار أفضل الحلول دائما بأنفسهم.

لم يكن إعلان السادات عن بناء الاشتراكية فى مصر سوى كلام يستخدمه فى المناسبات. وكثيرا ما تحدث السادات فى حضورى عن أنه لا يعترف إلا بالاشتراكية العلمية، وأنه لا يوجد هناك ما يسمى "بالاشتراكية الإسلامية" أو "الاشتراكية العربية". كان السادات يؤكد لأنصاره فى خطبه العلنية أن "المجتمع الجديد" (كان يخشى أن يسميه بالاشتراكى) يجب أن يُبنى على أساس "العلم والإيمان"، لم يكن يلقى بالا لما فى هاتين الكلمتين من تناقض فى المعنى. لا توجد فى اللغة العربية كلمة "اشتراكية" الأجنبية، التى تحمل مفهوما علميا خالصا، ومن هنا أمميتها. أما العرب فيعلنون أن "Socialism" هى "الاشتراكية" وأن الكلمة تعنى "تكافؤ الفرص" و"المساواة" لا أكثر. ومن هنا فإننا عندما نتحدث عن الاشتراكية نعنى شيئا محددا، بينما تعنى الكلمة بالنسبة للعرب شيئا آخر. وعندما يتحدث العرب عن مجتمع ما يسود فيه تكافؤ الفرص (والذى يعنى بطبيعة الحال الاشتراكية) فإن علينا عند ترجمتها إلى أى لغة أخرى، سواء الروسية أو الإنجليزية أو غيرها، أن ندرك أن إخواننا العرب يتحدثون عن "الاشتراكية"، ونحن ندرك كل ذلك كما لو كنا نتحدث عن الشىء ذاته وعن المفاهيم ذاتها. وإن كنا فى الواقع نتحدث عن شيئين

مختلفين. كيف يمكن بناء الاشتراكية إذا كان بنيتهم بناؤها بمساعدة العقيدة الدينية؟ إن الدين هو العدو الأول والأمكر للاشتراكية، وهو يخرج علاقات الملكية بعيدا عن التحليل، ويفصل بين علاقات الناس فى سياق عملية الإنتاج. كيف يمكن أن تكون هناك اشتراكية إذا لم تتعامل مع قضية علاقة الملكية الخاصة بوسائل الإنتاج؟

على أية حال، فقد كان تدين السادات مصطنعا. صحيح أنه كان يحب أن تُلتقط له الصور أثناء الصلاة فى المسجد أيام الجمعة، وكان كثيرا ما يتردد على قريته خصيصا من أجل ذلك، ولمجرد أن يقول إنه مع الناس. وفى هذه الصور كانت عيناه تظهران وهما ترتجفان فى خشوع، أو على العكس فيسجد بحيث تغوص جبهته فى الأرض وقد أمسك فى يده بالمسبحة. كان هناك بقعة قاتمة اللون فى جبهة السادات، وهى علامة تلقى احترام المؤمنين الذين يعتبرون ظهورها أثرًا من كثرة الصلاة والسجود. وقد انتشرت طرفة تقول إنها ليست بقعة "مقدسة" وإنما جاءت نتيجة أن ناصرا كان كثيرا ما يدفع إصبعه فى جبهة السادات قائلا له: "لماذا تدس رأسك فى أمور لا تفهمها!".

وقد قصَّ علىَّ السادات ذات مرة بنبرة رقيقة كيف يحب الصيام فى شهر رمضان وكيف يكون فى "حالة" مدهشة فى هذا الشهر. ولكن كيف يمكن الجمع بين هذه الطقوس الدينية المثالية وبين سوء استخدامه للمشروبات الكحولية، المحرمة قطعيا على المسلمين، وكذلك تدخين الحشيش؟

ليس من المستغرب أن السادات كان يخشى الماركسية وكل ما يرتبط بها بشدة. كان يؤكد دائما أن منطقة الشرق الأوسط ليست "ناضجة" بعد لتقبل الماركسية. كان يشعر بإحساس باطنى أن الماركسية هى عدوه القوى، ولهذا كانت الماركسية محظورة فى مصر. لم يكن لها مكان باعتبارها مذهبا شرعيا. ولكن كان من المستحيل أن تختفى الماركسية فى مصر لأنها كانت موجودة على الأرض، ولأنها عقيدة راسخة. كان العمال والطلبة يتطلعون إليها، وكان عدد قليل من الماركسيين يخاطرون بحياتهم ليحملوها إلى جماهير العمال. ولهذا فقد كان من الصعب ملاحقتها، ولكن كان من الممكن أن يكونوا علامة تشير إلى أن فى مصر أيضا مجتمع مستنير يسمح بعمل الماركسيين.

كان السادات يقول لىّ أحيانا – "ماركسيونا" ، وكان يقصد بذلك بعض المثقفين الذين كانوا ينتمون سابقا إلى منظمات ماركسية مصرية. وقد تم حظر هذه المنظمات وزج ناصر بقاداتها وقتها فى السجون، ثم أطلق سراحهم بعدما طرأت على أفكاره بعض التغيرات. لم يصبح ناصر ماركسيا مطلقا، ولكنه أدرك أن الماركسيين ليسوا خصوما للثورة الوطنية التحررية. وقد عمل جزء من هؤلاء الماركسيين فى المؤسسات الصحفية، بل إن بعضهم شغل منصب الوزير. لكن هذا لم ينقذهم من ملاحقة السادات، فعندما كان يشعر بحاجته لأن يصب جام غضبه على أحد ما نتيجة وقوع اضطرابات دورية فى البلاد، أو عندما تكون هناك ضرورة لإيجاد "كبش فداء" للفوضى الاقتصادية فى البلاد التى تقودها قوى أخرى ذات نفوذ. وهذا ما حدث فعلا مع فؤاد مرسى، أحد قادة التنظيمات الماركسية والاقتصادى البارز، الذى عيّنه السادات وزيرا للتموين فى الحكومة. لقد بذل مرسى جهدا خارقا، ولكن هل كان باستطاعته أن يحل مشكلة نقص السلع التى خلقها منتجو هذه السلع نفسها، والذين قاموا بإخفائها. هل كان بإمكانه وحده مواجهة التناقض القائم فى النظام الاقتصادى الذى وضعه نفس هؤلاء البرجوازيين، مثل عبد العزيز حجازى؟ ولهذا بدا مرسى مناسبا تماما لكى يسقط الرئيس على رأسه، باعتباره وزيرا للتموين، كل خطايا نقص السلع وتوقف آلاف محال القطاع الخاص. ولهذا كانت التهمة بالدرجة الأولى هى التقصير فى عمل نظام التوزيع.

استشاط السادات غضبا لأن الاضطرابات التى نشبت فى أكبر مؤسسة مصرية – مصنع الحديد والصلب فى حلوان – قد تمت بشكل منظم وأنه لم ينجح فى العثور على محرضين، ولأنه اضطر للانسحاب والتراجع أمام عمال حلوان الماركسيين، كانت اضطرابات حلوان عملا سياسيا منظما قامت به الطبقة العاملة المصرية. من هنا كان خوف السادات من حلوان وخوفه عموما من هذا الفلاح الصناعى غير المفهوم. بالمناسبة، لم يقم السادات مرة واحدة بزيارة هذا الصرح الصناعى الأكبر فى البلاد، ولم يحضر افتتاح المجمع الذى تم بناؤه بالتعاون مع الاتحاد السوفيتى.

على أن السادات كان لديه شعور باطنى يدفعه لاستخدام "ماركسييه" فى العمل فى الوقت المناسب. ففى صيف عام ١٩٧١ وقعت فى السودان المجاور أحداث سياسية

ضخمة تعد فى جوهرها انقلابا شارك فيه الماركسيون السودانيون أيضا. كنت فى ضيافة السادات فى مقر إقامته فى المعمورة بالقرب من الإسكندرية، كنا نتحدث ونحن جلوس إلى المائدة المقامة فى الهواء الطلق على شاطئ البحر، اقترب الياور منه ودس فى يده بورقة دون أن ينبس ببنت شفة. أطلق السادات صيحة دهشة قائلا: "يبدو أن انقلابا وقع فى السودان". سألته: "ومن الذى قام بالانقلاب؟" أجاب السادات: "غير معروف تماما حتى الآن، ولكن يبدو أن الماركسيين على مقربة منى".

عند لقائى بالسادات فى اليوم التالى أخبرنى أنه اتخذ قرارا أن يرسل إلى السودان "بعضا من ماركسيينا"، على حد تعبيره، بزعم أنهم سيستقبلونهم هناك أفضل من أى شخص آخر، بالإضافة إلى ذلك فسوف يكون باستطاعتهم أن يعرفوا على أى نحو تسير الأمور فى السودان. وقد تبين أن إرسال هؤلاء الماركسيين كان نوعا من المناورة، فالسادات لم يكن متعاطفا للحظة واحدة مع هؤلاء الذين استولوا مؤقتا على السلطة فى السودان، وعلاوة على ذلك فقد توفرت معلومات تشير إلى أن مصر كانت تؤيد هؤلاء الذين جرت الإطاحة بهم. وقد أثبتت الأحداث التالية بشكل واضح بعضا مما يتمتع به السادات من خصائص.

لقد وصلتنى أنباء مؤكدة تفيد أن كتيبة من المظليين "الصاعقة" تتجمع فى مطار غرب القاهرة. وهى فرقة إنزال خاصة للنقل بسرعة إلى السودان. وقد تلقيت هذه المعلومة عند خروجى من السفارة متجها إلى السيارة لألحق بالسادات فى عمل ما عاجل. لم يكن لدىّ متسع من الوقت للاتصال بموسكو فقررت أن أعالج الأمر بنفسى. كنت أرى أن من الضرورى طرح موضوع تدخل مصر بحيث لا يتصور السادات، من ناحية، أن هذا تدخلا فى الشؤون الداخلية، ومن ناحية أخرى بحيث لا يتضح له مصدر المعلومات. رحت أفكر فى هاتين المشكلتين حتى وصلت إلى مقر السادات فى منطقة القناطر، التى تقع على بعد ٣٥ كيلومترا من القاهرة.

عندما انتهى حديثنا فى الموضوع الأساسى الذى جئت من أجله، سألت السادات عن الجديد الذى سمع عنه بشأن الأحداث فى السودان وعن التقرير الذى أحضره

"ماركسيوه". تحاشى السادات الإجابة بعد أن قال لىّ إنه لم يتعرف بعد على التقرير. أبديت ملاحظتى أن الحديث قد اشتد فى الأوساط الدبلوماسية حول الزعم بأن مصر تنوى التدخل عسكريا فى أحداث السودان، وأن مظليين يتم الإعداد لإنزالهم فى السودان وهلم جرا، وأننى أجبت على تساؤلات مشابهة طرحها علىّ سفراء أجانب بقولى: إن هذه مجرد شائعات مغرضة وأن مصر لن تسمح بالتدخل فى الشؤون الداخلية لدول أخرى، وأن هذا تحديدا ما أخبرنى به الرئيس السادات، لأن مصر تدرك أن تدخلها فى الشؤون الداخلية للسودان سوف ينعكس سلبا على علاقاتها بالدول الأخرى.

نظر لىّ السادات باهتمام، وبعد أن تريث فى الرد قال لىّ إن السفير السوفيتى على العموم قد لخص موقف مصر على نحو صحيح.

وفى اليوم التالى أبلغنى السادات أن كتيبة "الصاعقة" لن تذهب إلى أى مكان وأنها ستعود إلى ثكناتها فى وقت متأخر مساءً.

على أن قوة مناهضة للانقلاب نجحت بمساندة صريحة، كما يزعمون، من العاملين المصريين فى المدرسة العسكرية الموجودة فى الخرطوم فى التغلب على هذا الانقلاب. وبعد يومين اتفق أن التقيت من جديد فى حديث مع السادات. كان واضحا أنه فى حالة من القلق والإثارة الشديدين، الأمر الذى يؤكده أيضا أنه أمر بإحضار فودكا له. جدير بالذكر أن السادات لسبب ما كان يعتبرنى مما لا يعاقرون الخمر مطلقا، وكان يأسف لذلك. راح السادات يحتسى الفودكا وحده دون شعور بالحرج على الرغم من حرارة الجو. كانت درجة حرارة الجو فى ظل هذه الشجرة الضخمة، حيث جلسنا، لا تقل عن ثلاثين درجة مئوية. قدموا له زجاجة فودكا وعلبة سردين مفتوحة دون شوكة أو مناديل ورقية. قال عبارته المعتادة التى أعرب فيها عن أسفه أن السفير لا يشرب، ثم شرب كأسا "كبداية". شعرت بالحرج فطلبت أن يحضروا لىّ ولو بعضا من الويسكى مع الثلج. فرح السادات على الرغم من أنهم لم يجدوا ويسكى فى المنزل. بحثوا هنا وهناك حتى أحضروا زجاجة تبقى بقاعها بعضا من الويسكى. شعرت برجفة فى أعماقى، ولكن بات علىّ الآن أن أشربها.

كان السادات طوال الحديث يضع زجاجة الڤودكا بالقرب منه، بينما رحت أرتشف الويسكى المقزز. دق جرس التليفون الموضوع جانبا. أنصت السادات ثم قال وقد لمعت عيناه: "لقد أذاعوا نبأ مصرع وفد عراقى خاص كان فى طريقه إلى السودان. انفجرت طائرتهم فوق العربية السعودية! لقد علمت بهذا الخبر من قبل!". وعندما لمح الحيرة فى عينىّ بدأ فى شرح نظريته القديمة التى تقول إن "هذه المنطقة"، ويعنى بها أفريقيا والشرق الأوسط، "لم تنضج بعد للماركسية" وأنتم "الماركسيون، تقعون فى خطأ وأنتم تحاولون القفز على درجات السلم. أنتم تحاولون أن تزرعوا الماركسية هناك، حيث لا يمكن أن ترسخ. أما ما يمكن أن يرسخ هنا فهو الإسلام فقط، باعتباره العقيدة الاجتماعية الأعلى، وهو أوسع وأعمق من الاشتراكية. الإسلام يحمل قدرا أعلى من العدالة الاجتماعية وهلم جرا". كان منتشيا من أثر الخمر ولكن باتزان، وكان الدخول معه فى جدل وخاصة وهو فى هذه الحالة أمرا لا طائل من ورائه.

بعد مرور يومين تلقيت تعليمات بضرورة زيارة السادات على وجه السرعة وأن أطلب منه مساعدته فى استخدام تأثيره على النميرى لوقف هذا الإرهاب السافر الذى تفشى فى السودان، والذى أصبح من ضحاياه ليس فقط الذين شاركوا فى الانقلاب، وإنما أيضا كل التقدميين فى السودان. وقد وردت على وجه الخصوص أسماء عبد الخالق محجوب زعيم الماركسيين السودانيين والشفيع أحمد الشيخ رئيس نقابة العمال فى السودان، وهو واحد من قيادات الاتحاد العالمى لنقابات العمال والحاصل على جائزة لينين الدولية للسلام؛ وكذلك زوجة الشافعى.

استقبلنى السادات على سطح اليخت البحرى الفاخر للملك فاروق، وكان راسيا على الشاطئ فى إحدى قنوات النيل عند القناطر الخيرية. طرحت على السادات مطلب القيادة السوڤيتية فأبدى ملاحظة تفيد أنه يعرف الشافعى جيدا وذكر أنه سوف يكون أمرا مخزيا لو لقى حتفه. ثم قال مجددا إن المنطقة لم تنضج بعد لقبول الماركسية وأن علينا أن ندرك ذلك. تحدث السادات على نحو يبدو من خلاله وكأن الاتحاد السوڤيتى كان شريكا فى كل الأحداث الدراماتيكية التى وقعت فى السودان، بالرغم من أن السادات كان يعلم جيدا أننا لم نشارك فيها، وعدنى السادات بالتباحث مع النميرى ونادى على ياوره وأمره بأن

يصله هاتفيا بالخرطوم. تأخر الاتصال طويلا فانطلقت عائدا إلى القاهرة. لدى وصولى إلى السفارة أبلغونى أن وزير الخارجية محمود رياض اتصل وطلب سرعة الاتصال به، وهو ما قمت به على الفور. أخبرنى رياض أن يبلغنى نيابة عن السادات أن طلبنا جاء متأخرا للغاية وأن محجوب والشافعى قد أعدما. هل حاول السادات أن يفعل شيئا أم لا، لا أعرف، على الرغم من أن هيكل أكّد لىّ فيما بعد أنه تحدث مع نميرى بنفسه بناء على طلب السادات...

كانت علاقة السادات أيضا بالمنظمة السياسية الوحيدة فى البلاد – الاتحاد الاشتراكى العربى، والتى كان على رأسها، علاقة من أجل المظهر السياسى للسادات فقط. وقد ظل الاتحاد الاشتراكى العربى منظمة لا شكل لها على الإطلاق، ويمكن القول إنها كانت منظمة سياسية محلية.

كان الفرق بين علاقة ناصر والسادات بالاتحاد الاشتراكى العربى يتمثل فى أن ناصر أدرك ضرورة وجود منظمة فى البلاد تضم أصحاب الفكر الواحد؛ وحزب يمكن أن يكون حاضنا لفكرة ثورة التحرر الوطنى، كما يمكن أن يكون منظما للجماهير تحت شعار القومية التقدمية وحاملا للأفكار القومية إلى الجماهير. كان الاتحاد الاشتراكى العربى بذرة لهذا الحزب الذى يمكن أن ينمو من خلاله التنظيم الذى أطلق عليه ناصر اسم "طليعة الاشتراكيين".

كان السادات يشعر أن الاتحاد الاشتراكى العربى لن يمثل له نقطة ارتكاز كما أراد ناصر لنفسه، وإنما سيكون منافسا له ومراقبا لتصرفاته باعتباره رئيسا وقائدا لمصر. فى الاتحاد الاشتراكى العربى سيصبح بشكل أو بآخر "على نفس الدرجة" مع باقى رجال الدولة، وهو ما لم يكن السادات ليسمح به. كان السادات ينظر دائما بريبة تجاه أى نشاط اجتماعى وأيديولوجى. إنه "رجل الأفعال" أما الأيديولوجيا فهى للآخرين والمنظمات كذلك.

طوال شهور وجوده فى منصب الرئيس زاد إيمان السادات بأن الاتحاد الاشتراكى العربى بالنسبة له هو مجرد عبء. صحيح أن اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى

العربى قد عقدت اجتماعها تحت رئاسته، لكن الخطباء فيها تباروا فى انتقاد تصرفاته وتحدثوا عن رفضهم لقراراته التى اتخذها، فهل يمكن أن يتكرر ذلك ثانيةً؟ نفس الشيء تقريبا حدث فى اجتماعات اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى وإن جاء النقد فيها أقل حدة. على العموم فقد بدا واضحا أن باستطاعة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى وكل المحافظات والمدن أن يتحولوا بسهولة إلى "مراكز قوى" تقف فى مواجهته هو رئيس البلاد. ليس عبثا أن "المتآمرين" الذين استطاع أن يضعهم فى السجون لمدة طويلة كانوا يتخذون من الاتحاد الاشتراكى العربى ومنظماته بمثابة نقطة ارتكاز قوية لهم.

على أن رفض الاتحاد الاشتراكى العربى رفضا تاما كان أمرا مستحيلا، وهو ما كان السادات يدركه جيدا، فمصر سوف تصبح دولة متخلفة أمام العالم أجمع. عندئذ ليبق الاتحاد الاشتراكى العربى قائما، أما اللجنة التنفيذية العليا فلا ضرورة لها. سوف يجرى حل هذه اللجنة. كان ناصر يريد أن يحول اللجنة التنفيذية العليا فى عهده إلى مكتب سياسى، أن يعطيه وظيفة مماثلة للمكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى، الذى كان معجبا بعمله.

فى البداية وضع السادات عزيز صدقى على رأس الاتحاد الاشتراكى العربى، وهو الرجل الذى لم يعمل قبل ذلك مطلقا بالسياسة، ثم جاء بعده عبد السلام الزيات، سكرتيره الأسبق، المثقف صاحب الهوى الماركسى. كانت حسابات السادات فى ذلك أن يقول: انظروا جميعا، إن مصر باعتقال الناصريين لم تنحرف يمينا، إنها لا تزال تسير يسارا. وعلى الرغم من حل اللجنة التنفيذية العليا، ظل الأشخاص المعروفون للعالم أجمع بأنهم تقدميون يرأسون الاتحاد الاشتراكى العربى.

بوصولهما إلى الاتحاد الاشتراكى العربى، نجح كل من صدقى والزيات فى الحصول على موافقة السادات على جذب الماركسيين المصريين للعمل فى هيئات الاتحاد الاشتراكى العربى وفى غيرها من المنظمات الجماهيرية. كان الأمر شاقا آنذاك على السادات الذى قبل الأمر على مضض. اضطلع صدقى والزيات بالعمل فى الاتحاد الاشتراكى العربى، ولكن ليس فى هذا الاتجاه الذى تصوره السادات، فوضعا "برنامجا للعمل" يربط بشكل جيد

بين الشعارات الأيديولوجية التقدمية بأعمال محددة تتمثل فى خطط البناء الاقتصادى لمصر. كان برنامجا متقنا فى الواقع استهدف إجراء إصلاحات اجتماعية واقتصادية فى البلاد. واستند البرنامج لا على النيات الحسنة والأمانى الطيبة، وإنما على حسابات اقتصادية رصينة جديرة بالاعتبار.

كان الأمر الواضح هنا هو التعاون بين النظرية التقدمية التى وفرها الزيات والاقتصاديون، كما لوحظ فيها إسهام الاقتصادى العملى الموهوب عزيز صدقى. وقد أسفر الجهد عن وثيقة تتميز بالجمع بين النظرية والتطبيق. وكان من الضرورى الموافقة عليها فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى فى يوليو ١٩٧١.

تمثلت القيمة الكبرى للبرنامج الذى أعده صدقى والزيات فى أن العمال فى كل المجالات الاقتصادية للبلاد تسلموا بالفعل ما يمكن أن نعتبره مهمة عملية محددة لعملهم وحياتهم. وقد كشفت هذه المهمة بوضوح أن تحقيق هذا المستوى أو ذاك من الإنتاج فى مجال محدد من مجالات الاقتصاد، ومن ثم فى مصنع بعينه أو فى أى مؤسسة، سوف يؤدى إلى خطوات ملموسة تتعلق بالضمان المادى والثقافى والمعيشى لهؤلاء العمال. وقد رسم البرنامج أيضا خطوات محددة لتحجيم نفوذ القطاع الخاص واستخدامه لصالح العمال جميعا. أتذكر أنه فى سياق إعداد برنامج صدقى والزيات كانا كثيرا ما يستفسران منى عن الخطط الخمسية السوفيتية الأولى وعن معناها التنظيمى وعن العمل السياسى الذى توسع فى بلادنا فى تلك السنوات حول الخطط الخمسية التى أصبحت بمثابة خطط لحياة كل عامل.

تمت الموافقة بطبيعة الحال على البرنامج فى مؤتمر الاتحاد الاشتراكى العربى، على الرغم من أننى كنت على يقين أن السادات نفسه لم يقرأه كاملا على الأرجح؛ فضلا عن أن البرنامج كان كبيرا للغاية من حيث حجمه. على أية حال فقد كنت أثناء لقاءاتى بالسادات أسأله عن الاتجاهات الأساسية فى البرنامج، الذى ما زال فى مرحلة الإعداد، ولكنه لم يكن باستطاعته أن يعطينى إجابة واضحة. لكنه استمع إلىّ بمزيد من الاهتمام عندما حدثته عن الإجراءات التى وردت فى مشروع البرنامج.

عندما ألقى السادات تقريرا فى المؤتمر حول هذا البرنامج تم إعداد خطاب مناسب ليلقيه فى هذه المناسبة. على أنه بدأ لا بالحديث عن القضايا الواردة فى البرنامج، وإنما بالحديث فى موضوعه المفضل وهو الوضع الدولى والصراع مع إسرائيل. وفى هذا الصدد لم يكن السادات بحاجة إلى ورق مكتوب، وحتى لو كان هناك شىء معد لذلك، فإنه لم يكن ليعبء به. كان من الملاحظ دائما كيف كان من الصعب قراءة شىء ما كتبه له آخرون. شىء لا يعبر عن تركيبة أفكاره ومزاجه، اللذين يتشكلان لحظة إلقائه لخطابه. وقد كان هذا بالنسبة له، كإنسان مزاجى، أمرا حاكما.

كان السادات مولعا بالخروج عن الموضوع الرئيسى، وقد بدا أنه لا يستطيع التوقف عن الحديث فى مجال العلاقات الدولية. لقد ظهر لديه الآن مزاج نفسى مختلف. كان من الصعب عليه العودة إلى الجزء العملى فى خطابه والخاص ببرنامج العمل. على أية حال فقد توقف، ثم التزم الصمت طويلا، محدقا فى الأوراق الموضوعة أمامه على المنصة، كأنما هو غير مدرك ما الذى جاء بكل هذه الأوراق إلى هنا. وبعد انقضاء فترة الصمت الطويلة قال إن مشروع البرنامج قد تم توزيعه على الأعضاء جميعًا ولهذا فلا حاجة إلى عرضه. واصل السادات النظر فى الأوراق ثم راح يقلِّبها على نحو آلى واضح متظاهرا بالاهتمام وكأنما يبحث عن شىء ما ولكنه لا يجد ما يريد أن يركز عليه اهتمامه. جزء من الأوراق سقط على الأرض فلم يعره السادات اهتماما كأنما لم يلحظه مواصلا فحص الأوراق واحدة وراء الأخرى. عندئذ نهض الزيات عن مكانه كرئيس للمؤتمر واقترب من المنصة وراح يلملم الأوراق ويضعها أمام السادات ثم ابتعد عائدا إلى مكانه. وبدا أن السادات لم يلحظ أى شىء. تفحص جدولا فى الوثيقة، حيث كان يقلب الأوراق فى الملف ثم قال: هاكم على سبيل المثال ما يجب أن يصل إليه إنتاج الطاقة الكهربائية، ثم ذكر رقما. فترة أخرى من الصمت، ومرة أخرى تتطاير بعض الأوراق من على المنصة إلى الأرض والسادات لا يلاحظ شيئا. ومرة أخرى ينهض الزيات ويقترب ويرفع الورق ويضعه أمام السادات ثم يعود إلى مكانه ليتكرر الأمر مرة أخرى. لم يعد الأمر مفهوما. تُرى هل يسخر السادات من الوثيقة، أم تراه ثملا، إذ كان يتصرف عند وصوله إلى المنصة تصرف شخص فى حالة غير طبيعية. راحت القاعة الغارقة فى الصمت والتى تحتوى ثلاثة آلاف عضو ينظرون ويتابعون هذه الحيلة الغريبة للرئيس. كان الجميع يشعرون بحرج شديد.

أنهى السادات خطابه كيفما اتفق بعد أن أعلن أنه مادام كل شيء مكتوب في الوثيقة التي تم توزيعها على الأعضاء، إذن فكل شيء واضح. تولّد لديّ انطباع أن السادات تعمد أن يقوم بتمثيل هذا المشهد. كان يشعر أنه ليس الشخص الرئيسي وراء هذا البرنامج، وأن البرنامج لا يمت إليه بصلة. وبالمناسبة فقد قام السادات فيما بعد بعزل صدقي ومن بعده الزيات عن منصب الأمين الأول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي العربي وعيّن فيه سيد مرعي – الإقطاعي، لسان حال المصالح البرجوازية المصرية الكبيرة. لم يكن هناك شيء أكثر إهانة لفكرة وجود منظمة تقدمية في مصر من تعيين مرعي في هذا المنصب. علاوة على ذلك فقد كان مرعي خصما شخصيا لصدقي من الناحية الأيديولوجية: كان صدقي يدافع عن تصنيع البلاد ويسعى لتنمية القطاع الحكومي بكل الوسائل، ويميل للاتحاد السوفيتي. أما مرعي فكان يضع تركيزه على الزراعة وازدهار القطاع الخاص والتوجه ناحية الغرب.

بدأ مرعي بمباركة من السادات في "إعادة تنظيم" الاتحاد الاشتراكي العربي، بدأت العديد من اللجان واللجان الفرعية في عقد الاجتماعات. تم نسيان البرنامج الحيوي للإصلاحات الاجتماعية وتوقف العمل السياسي بين الجماهير. لكن صدقي والزيات واصلا العمل بطريقة أخرى: في تلك الفترة تم تعيين صدقي رئيسا للوزراء والزيات نائبا لرئيس الوزراء. بدأ الاثنان في عقد اجتماعات الحكومة خارج العاصمة، في المدن الكبرى والمحافظات. وهناك في القاعات المفتوحة راحوا يتدارسون القضايا المتعلقة بكل محافظة أو مدينة على حدة وبشكل محدد، وأثبتا بشكل واضح أن الحكومة تعكس مصالح الكادحين، وكشفا عن الطاقة الكامنة المخفية لدى المحافظين وأظهرا النزعة البيروقراطية لدى السلطات المحلية. إلخ. وجدت هذه الاجتماعات الحكومية شعبية كبيرة في أوساط الكادحين، ولكنها أثارت، بطبيعة الحال، حفيظة وكراهية البيروقراطية المصرية التقليدية، التي كان يستند عليها الرئيس نفسه بشكل كبير.

وعلى الفور، أُقيل صدقي من منصبه رئيسًا للوزراء ومعه الزيات في نفس الوقت، اللذين أصبحت لهما شعبية كبيرة فاقت شعبية الرئيس وأصبحت إنجازاتهما تقف حجر عثرة أمام مصالح البرجوازية المصرية الكبيرة التي راح السادات يعتمد عليها أكثر فأكثر.

وهنا عيَّن السادات حافظ غانم أمينا أول للاتحاد الاشتراكى العربى، وزير التعليم السابق، أحد المخلصين من الحرس القديم، لا عقيدة له، باختصار، الشخص المطيع الذى يفعل ما يؤمر به. بدأ غانم فى "إعادة تنظيم" الاتحاد الاشتراكى العربى مرة أخرى والعمل فى إعداد ما عُرف باسم "وثيقة العمل"، وهى تُعد من الناحية العملية نفيا لكل ما تم التأكيد عليه منذ عامين مضيا. كانت هذه الوثيقة تتضمن أحكاما مغلوطة بشأن العلاقات الدولية وتزييفها لسياسة الاتحاد السوفيتى؛ فضلا عن دعوتها للانفتاح أمام رأس المال الخاص. كان هذا هو الهدف الأساسى لهذه "الوثيقة". تحول الاتحاد الاشتراكى العربى فى الخطة التنظيمية له إلى مجرد منظمة – "واجهة" تقوم بعقد اجتماعات جماهيرية لتبلغ السلطات بالمزاج السائد فى البلاد. كانت هذه بالطبع خطوة إلى الخلف، لكنها كانت تناسب السادات ليصبح الاتحاد الاشتراكى العربى منظمة تعمل لخدمة الرئيس. وبطبيعة الحال تم إغلاق معهد الدراسات الاشتراكية، وهو مركز للدراسات العلمية كان تابعا للاتحاد الاشتراكى العربى، إذ لم يعد السادات بحاجة إليه. هكذا أصبحت البلاد مرتعا "للأفكار الحرة"...

كان السادات يرى أن كل الوسائل صالحة من أجل تنفيذ سياسته المضمرة. وعدو اليوم يمكن أن يُعد غدا أفضل صديق، على الرغم من أن سلوك هذا العدو، أو الصديق حديث العهد، لم يتغير فى جوهره قيد أنملة. وفى هذا السياق تكون المبادئ أمرا غير ذى أهمية.

ولكن، هل يمكن، على سبيل المثال، أن يتباهى شخص، أيا كان، لديه ولو قليل من الاحترام لذاته، بأنه كان يتعاون مع النازيين الفاشيين؟ بالطبع لا يوجد. لكن السادات بإمكانه أن يفعل ذلك. لزمن طويل راحت الأحاديث تدور أن السادات عمل فى خدمة الألمان أو تعاون معهم إبان الحرب العالمية الثانية. لقد قدَّم الجيش السوفيتى ومعه جيوش الحلفاء فى نضالهم ضد هتلر ملايين الأنفس ثمنا باهظا لإنقاذ العالم من هذا الطاعون الأسود الذى جاء لاستعباد كل شعوب العالم، ومن بينها شعوب أفريقيا والشرق العربى. أى وعى سياسى يمكن أن يكون لدى إنسان يسعى للتعاون فى تلك السنوات مع الألمان حتى لو كان المبرر لديه هو النضال ضد الإنجليز، الذين كانوا يحكمون مصر آنذاك. لقد ظلت هذه الأحاديث مجرد شائعات يمكن أن تُصدق ويمكن أن تُرفض. وقد كان معروفا على أية حال

أن السادات قد زُج به فى السجن. ويمكن أن يُفسر ذلك بأنه كان عقابا له لنشاطه المعادى للاحتلال، وأن اتهامه بالتعاون مع النازيين الفاشيين كان للنيل منه والحط من شأنه.

ولكن، ها هو ڤيلى برانت المستشار الأسبق لجمهورية ألمانيا الاتحادية يصل فى عام ١٩٧٤ فى زيارة للقاهرة. وقد جرى استقباله، بطبيعة الحال، أفضل استقبال، كما اعتادوا فى مصر دائما باعتبار الألمان أعداء للإنجليز، ومن ثم اعتبارهم حلفاء لحركة التحرر الوطنى فى مصر. عقد السادات مؤتمرا صحفيا بدأه بإلقاء خطاب.. باللغة الألمانية، بعد أن صرح للصحفيين، الذين أخذتهم الدهشة، أنه يفخر بأنه كان يتعاون مع الألمان إبان الحرب العالمية الثانية، الأمر الذى دفع الإنجليز إلى اعتقاله، وأنه استطاع أن يتعلم اللغة الألمانية أثناء وجوده فى السجن! لا أظن أن صراحة السادات هذه قد لاقت إعجابًا من جانب براندت، فالرجل كان عدوا للفاشية، وكان يقف على الجانب الآخر من المتاريس إبان الحرب.

تحول آخر مميز للسادات حدث فى علاقته بالأمريكيين، فبعد وصوله إلى سدة السلطة راح ينهال على الأمريكيين بالشتائم بحدة وحماس. وأشار، وهو على حق فى هذا، أن الولايات المتحدة الأمريكية هى فى الواقع شريك لإسرائيل فى العدوان على الدول العربية وأن عليها أن تتحمل مسؤولية ما قامت به من أعمال إجرامية.

لم يستوجب الأمر سوى أن يقوم نيكسون بالكتابة إلى السادات وبذل الوعود له وإطرائه على نحو لبق وغرس بذور الشك عنده تجاه الاتحاد السوڤيتى، وسرعان ما بدأ السادات فى التغير عن موقفه، فى البداية بينه وبين نفسه ثم بعد ذلك بشكل واضح أمام الجميع. عموما كان تملقه، الذى كان، بلا شك، يعتبر نفسه واحدا منه. كان السادات يتحدث معى أحيانا بسرور واضح عن تلقيه رسالة دورية من نيكسون وعن ردوده بتلك النبرة الحذرة، كما لو كان يريد أن يقول إن هذه المراسلات لا قيمة لها بالنسبة له، وأنه يتحدث معه "ندا لند" وهلم جرا. من المميز هنا أن السادات لم يطلعنى مرة واحدة ولو على نص وحيد من هذه الخطابات، وعادة ما كان يكتفى بذكر بعض عبارات عامة. على أنه فيما بعد وإبان حديثه مع القادة السوڤيت كان السادات يشير إلى أنه أطلع السفير السوڤيتى

على هذه الرسائل وأنها معروفة بالطبع للقيادة السوفيتية، ولهذا فإنه لا يجد ضرورة من أن يكررها... إلخ.

سرعان ما أحس الأمريكيون بنقطة الضعف هذه لدى رئيس مصر. وإليكم مثالا واحدا. بعد اللقاء الأول بريجينيف ونيكسون في يونيو عام ١٩٧٢، أعد رفاقنا في موسكو بيانا باللقاء تم عرضه على السادات. وفي اليوم التالي أرسل نيكسون إلى السادات رسالة خاصة لم تكن تحتوى في حقيقة الأمر على أية معلومات جوهرية. واكتفى نيكسون في رسالته بتعداد القضايا التي جرت مناقشتها في هذا اللقاء. كان ذلك بمثابة نوع من "التقرير الودى" عن اللقاء لا أكثر. والملاحظ في هذه الرسالة أنها لم تأت على ذكر مناقشة الوضع في الشرق الأوسط، أي الموضوع الذي كان يهم السادات بالدرجة الأولى، لكنها تضمنت في الوقت نفسه آيات من المديح والإطراء على القادة السوفيت، حتى يتولد انطباع أننا (نحن الأمريكيين) نستطيع، على الأرجح، أن نسوى أمورنا بشكل جيد مع الروس، في الوقت الذي يوحى فيه غياب الحديث عن قضية الشرق الأوسط أن الروس قد اتفقوا معنا على ألا نعطى اهتماما كبيرا لقضايا الشرق الأوسط. بطبيعة الحال فإن هذه المعلومات كانت تتناقض ووثيقتنا التي جاء فيها أن الجانب السوفيتي يساند المصالح العربية. على أن ذلك خلق لدى السادات انطباعا أضعف، لأنها، على أقل تقدير، وصلته متأخرة وفي صورة تقرير مُعد على نحو جاف، بينما أرسل نيكسون تقريره بنفسه إلى السادات (!) (جدير بالذكر أن سفارتنا كان لديها هاجس تجاه إمكانية أن يتلاعب الأمريكيون بالخصال الشخصية للسادات، الذي كان يولى أهمية كبرى للقاء السوفيتي الأمريكي في مصير منطقة الشرق الأوسط). على الأقل لأنه كان يستشعر بقوة فكرة إمكانية "التآمر" السوفيتي الأمريكي. كان يؤمن بهذه الأكذوبة لأنه كان يرى أن هذا النوع من السلوك الخائن أمر جائز من جانبه، ومن ثم رأى أن هذه الخطوة أمر جائز من جانبنا. ولهذا اقترحت السفارة مجيء أحد ما من الذين شاركوا في المباحثات في موسكو إلى القاهرة، يكون باستطاعته أن يبلغ السادات بما حدث بالضبط بوصفة شاهدا مباشرا، إن جاز القول، ويطلعه "بتفاصيل" المباحثات، التي لم تول موسكو اهتماما بها.

كان السادات يشعر بالإطراء عندما يتوجه إليه أرنو دى بورتشجيريف رئيس مجلة "نيوزويك" الأمريكية، رجل المخابرات المشهور، والذى لم يكن إطلاقا من المدافعين عن المصالح العربية، يطلب إجراء مقابلة صحفية معه. وقد أجرى السادات العديد من مثل هذه المقابلات مع بورتشجيريف، ولكنه لم يجر مقابلة واحدة مع أى صحفى سوفيتى.

وعندما اقام وليم روجر وزير الخارجية الأمريكى آنذاك بزيارة للقاهرة فى مايو ١٩٧١، أُعجب السادات به كثيرا، وفى خطبه التالية، بما فيها تلك التى ألقاها أمام جمع غفير سواء فى مجلس الأمة أو أمام اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى كان كثيرا ما يطلق على روجرز، بنوع من التبسط، اسم بيل تدليلا. "قلت لبيل..."، "قال لىّ بيل..." وهلم جرا من العبارات المماثلة التى راح السادات يستخدمها فى خطبه.

كان السادات يحب استقبال السيناتورات الأمريكيين حتى أكثرهم رجعية، وأثناء لقاءاته بهم لم يكن بطبيعة الحال يوجه أمامهم سهام النقد الحادة إلى السياسة الأمريكية، التى كان يلجأ إليها فى خطبه أمام المصريين. وهكذا ظل جميع الأمريكيين راضين عن الحديث مع السادات، فقد وجدوا فيه، على حد قولهم، متحدثا "نكيا". وليت الأمر اقتصر على السيناتورات! فقد دأب السادات على استقبال صغار موظفى الخارجية الأمريكية، فى الوقت الذى لم يتسن للعديد من السفراء الأجانب، ومن بينهم سفراء لدول كانت تؤيد مصر تأييدا كاملا، أن يلتقوا على مدى وجودهم لسنوات طويلة فى مصر بالسادات، على الرغم من أنه كانت لديهم تكليفات من حكوماتهم. كما كان السادات لا يميل إلى استقبال سفراء الدول الاشتراكية على وجه الخصوص. بل إنه كان يحدد "أوقات" عدم رضاه بالنسبة لىّ فلا يستقبلنى فيها.

من بين الذين جاءوا إلى مصر واستقبلهم السادات شخص نكرة يدعى ستيرنر يعمل رئيسا لقسم الشؤون المصرية فى وزارة الخارجية الأمريكية، وهو من النوع المستفز الوقح يميل بشدة إلى إسرائيل. وقد شرح السادات أن ستيرنر هو الذى كان يرافقه فى زيارته للولايات المتحدة عندما كان رئيسا لمجلس الأمة! زاعما أنه معرفة قديمة لا أكثر. وبالطبع كان آل روكفلر يزورون السادات كثيرا خفية أو جهارا.

أما القفزة الميتة الأكثر غرابة فهى التى أقدم عليها السادات فى نهاية عام ١٩٧٣ بعد ما عُرف "بحرب أكتوبر" ، عندما لجأ إلى الولايات المتحدة سياسيا، ولم يكن قد تم بعد دفن الشهداء المصريين، الذين سقطوا بنيران الأسلحة الأمريكية التى زودت بها الولايات المتحدة إسرائيل بكرم بالغ. وقد ظلت الولايات المتحدة، كسابق عهدها، تقف دائما إلى جانب إسرائيل – العدو الرئيسى لمصر. وهو موضوع خاص بطبيعة الحال، لكن سلوك السادات كان ذا دلالة تماما لعلاقته بالأمريكيين.

سرعان ما أصبح كيسينچر ببساطة هو "هنرى" بالنسبة للسادات، ولم يكن السادات يناديه بشيء آخر سوى "أفضل أصدقائى". وعندما وصل كيسينچر إلى القاهرة فى زيارة من زياراته التى لا تحصى تصحبه زوجته، قال له السادات مُرحِّبا به بلطف مبالغ فيه: "أنت بين أصدقائك يا هنرى"، وقد ترك ذلك بالطبع أثرا طيبا على الصحفيين الأمريكيين.

وعندما نشر الاتحاد السوفيتى فى ديسمبر عام ١٩٧٤ خطاب أندريه جروميكو إلى كيسينچر، وكان قد أرسله إليه فى أكتوبر عام ١٩٧٤ حيث طرح فيه موقف الاتحاد السوفيتى من التدخل الأمريكى فى شؤون بلادنا، وكشف فيه، أقولها بلطف، الخطأ الذى وقع فيه الأمريكيون تجاه هذا الموقف، أعلن السادات فى عناد تصريحاته الصحفية الجديدة أنه مستمر فى ثقته فى كيسينچر. وهو أمر لا يثير الدهشة، فكيسينچر وَعَدَ السادات بشيء ما، وقد ظل السادات ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التى يتحقق فيها هذا الوعد. لم يشأ السادات نتيجة جهله السياسى أن يرى أن كيسينچر قد حقق بالفعل مهمته الأساسية وهى ضمان البقاء الآمن لإسرائيل عن طريق التوصل إلى اتفاق يقضى بإقامة منطقة محايدة، منطقة مُقيدة من ناحية التسليح وانتشار القوات المسلحة وما إلى ذلك، أى عن طريق اتخاذ إجراءات تضمن وقف إطلاق النار واستحالة قيام الحرب بممارسة أية ضغوط عسكرية على إسرائيل.

أما كون السادات قد انتقل إلى جانب الأمريكيين صراحة، بعد أن خان فى الواقع، من الناحية السياسية، صديقه المخلص – الاتحاد السوفيتى، فإنه لم ير فى ذلك غضاضة، أو مجافاة للمنطق. لقد رأى السادات أنه من أجل أن ينفذ سياسته فإن كل الوسائل حسنة، وأن المهم هو النتائج التى اعتبرها مقبولة من جانبه، أما ما عدا ذلك فليس له قيمة.

فى ربيع عام ١٩٧٤ أعلن السادات صراحة أن تسوية الصراع فى الشرق الأوسط تتوقف على الولايات المتحدة الأمريكية وليس الاتحاد السوفيتى، الأمر الذى أثار ضجة هائلة فى الصحافة العالمية. وقد أعد السادات استقبالا حافلا إبان الزيارة التى طال انتظارها لنيكسون، وهو استقبال لم يسبق أن قام بإعداده لأى من الشخصيات الأجنبية التى زارت مصر من قبل، حيث بلغ عدد رجال الشرطة وأعضاء الاتحاد الاشتراكى العربى الذين استقبلوه فى الطرقات حوالى مليونى شخص! وتم تقليده أعلى وسام حكومى فى الدولة وهو "قلادة النيل" (هل لا تزال لهذه القلادة قيمة بعد ذلك؟ هذه قضية أخرى). وعندما وضع الأمريكيون نيكسون وظهره إلى الحائط وطالبوه بالاستقالة، كان السادات هو الأجنبى الوحيد الذى أعلن أن الإطاحة بنيكسون سوف تشكل مأساة على الولايات المتحدة الأمريكية!

- ٣ -

بالنسبة لنا فإن علاقة السادات بالاتحاد السوفيتى كانت تمثل، بطبيعة الحال، مصالح مفهومة. يمكن القول إجمالا إن هذه العلاقة كانت على طرف النقيض من علاقة ناصر بنا. كان ناصر ينطلق من السعى لاستغلال سياسة الاتحاد السوفيتى المعادية للاستعمار لتحقيق أهداف النضال الوطنى التحررى الذى قاده الناصريون، وإلى إدراك ضرورة أن يقف إلى جانب الاتحاد السوفيتى باعتباره حليفا سياسيا. ومن المعروف أن ناصر كان يفكر فى العام الأخير من حياته فى إقامة علاقات أكثر اتساعا وعمقا مع بلادنا والدخول فى تحالف معه. وكما هو واضح الآن فإن السادات يتلخص فى العودة إلى الخلف، إلى ما بدأ به ناصر، أى الابتعاد عن العلاقات العميقة والعودة إلى استخدام الاتحاد السوفيتى لتحقيق أغراضه. ومن ثم تركزت اهتماماته فى قضيتين: تصدير السلاح والمساعدات الاقتصادية، زد على ذلك أنه كان لديه بعض العلم بشكل أساسى فى السلاح، أو كان يظن أن يعلم؛ أما فى الاقتصاد فلم يكن يعلم أى شىء.

وإذا ما افترضنا، مجرد فرض، أن السادات قد وجد فى مكان ما مصدرا لتصدير السلاح الحديث بنفس الشروط الميسرة التى يقدمها الاتحاد السوفيتى، وكان لديه اختيار مصدر للتصدير، لم يكن ليتردد فى اختيار المصدر الآخر، الذى لا يرتبط بتلك الأيديولوجيا التى يتبناها الاتحاد السوفيتى، على الرغم من أن المسألة الأيديولوجية لم تظهر فى علاقاتنا مطلقا. لقد انحصرت القضية برمتها فى أنه وبحكم طبيعة الأشياء، لم يكن من الممكن أن تكون هناك دولة أخرى فى العالم باستطاعتها أن تتعامل مع حركة التحرر الوطنى على النحو الذى يتعامل معها به الاتحاد السوفيتى. من هنا كانت الإمكانية أمام مصر فى الحصول على السلاح والدعم الاقتصادى. وهو ما فهمه السادات بصعوبة. كان السادات يرى فى عناد أن مصر هى التى تقدم للاتحاد السوفيتى الدعم الأكبر من أجل أغراضها السياسية والعسكرية!

لم يكن أمرا غريبا أن يبدأ السادات اتصالاته الأولى مع الاتحاد السوفيتى فور تسلمه منصب الرئيس بطرح قضية توريد السلاح. حدث ذلك فى اللقاء الأول مع الوفد السوفيتى الذى جاء للمشاركة فى جنازة ناصر برئاسة ألكسىّ كوسيجين. وقد جاء طرح الموضوع على النحو التالى تقريبا: إن الاتحاد السوفيتى لا يرغب لأسباب ما فى توريد السلاح لمصر، بمعنى تسليح مصر لتكون على نفس المستوى مع إسرائيل. بعبارة أخرى، فالولايات المتحدة تمد إسرائيل بالسلاح على نحو جيد، بينما لا يقوم الاتحاد السوفيتى بإمداد مصر بالسلاح على نحو كافٍ. وفى هذا السياق، لم يتطرق السادات بطبيعة الحال للحديث عن المستوى المنخفض للإعداد الفنى للكوادر المصرية، وعن النقص الكبير فى عدد الطيارين، وإنما راح يطالب طوال الوقت بالطائرات، الطائرات ثم الطائرات، وخاصة الطائرات المتطورة، بل وحتى طائرات التجارب والتى تحتاج إلى خبرة...

وقد تناول أول لقاء عملى لىّ مع السادات بعد وصولى إلى القاهرة باعتبارى السفير السوفيتى الجديد، تناول أيضا مسألة توريد السلاح. دعانى السادات لمقابلته وسلمنى طلبا "عاجلا" بخصوص طلبات التوريد، على الرغم من أن الموقف آنذاك لم يكن يستدعى السرعة.

هكذا بدأت اتصالاتى بالسادات. جدير بالذكر أن الأمر لم يقتصر على مجرد لقاء واحد، وإنما تجاوزه إلى ما لا يقل عن مائتى لقاء بالمعنى الحرفى للكلمة، آنذاك لم يكن السادات يدرك معنى مسألة توريد السلاح. كان يطرح نفس السؤال حتى بعد أن كنا قد انتهينا للتو من عقد اتفاقيات جديدة بشأن شتى الموضوعات. أما مسألة توريد السلاح فقد كانت تسير على أفضل ما يمكن.

لقد اختار السادات التسليح موضوعا رئيسيا فى مباحثاته مع القادة السوفيت. وكان هذا الموضوع ضروريًا له لأنه كان يستطيع دائما أن يعبر من خلاله عن سخطه على الاتحاد السوفيتى، ومادام هناك سخط فإن هذا يعنى أن هناك ما يبرر اتخاذه لأى خطوات عدائية تجاه الاتحاد السوفيتى. وما أكثر هذه الخطوات التى اتخذها فى هذا الاتجاه.

أما إذا سارت أمور التوريدات العسكرية على خير مايرام، فإن السادات كان يبتدع على الفور مبررات جديدة. على سبيل المثال، إذا شاع خبر مفاده أن الاتحاد السوفيتى امتلك سلاحا جديدا، فإن السادات سرعان ما يطلب الحصول على هذا السلاح، مقتبسا الخبر المنشور فى أى مجلة أجنبية كانت باعتباره مصدرا لمعلوماته، بل حدث أن طلب السادات ذات مرة... قنبلة ذرية. ويبدو أنه لم يعد هناك ما يطلبه أكثر من ذلك.

كنت فى ضيافة السادات فى تلك الليلة. استقبلنى فى قاعة الاستقبال بالدور الثانى، حيث مسكنه الخاص إذا جاز التعبير. وبعد أن تحدثنا فى الموضوع الرئيسى، بدأ السادات فى الحديث عن زيارته التى قام بها منذ فترة قريبة إلى ليبيا، وراح يتذكر هذا الأثر المنعش الذى "أعاد إليه شبابه" من جراء اللقاءات التى تمت بينه وبين الزعيم الليبى – العقيد القذافى وما إلى ذلك. ذكر السادات أن القذافى لديه الكثير من المال وأن ليبيا دولة غنية ولديها نفط بكميات هائلة، وأنها على استعداد لمساعدة مصر وهلم جرا. ثم عاد من جديد للحديث عن صفقات السلاح، ثم سألنى بشكل غير مباشر على أى نحو يمكن أن يتعامل الاتحاد السوفيتى مع مطلب مصر إمدادها بالتكنولوجيا اللازمة لإنتاج قنبلة ذرية. لم يطلب السادات أن يبيع له السوفيت قنبلة، على الرغم من أنه كان على استعداد لشرائها لو عُرضت عليه، واقتصر الحديث حول نقل بعض التكنولوجيا فحسب، وليس نقلها كاملة وإنما جزء

منها. وافترض السادات أن ينقل الاتحاد السوفيتي لمصر نفس الحجم الذى نقله فى حينه للصين، والذى على أساسه استطاعت الصين أن تصنع قنبلتها الذرية. وفى سياق ذلك راح السادات يؤكد، بالطبع، أنه لن يستخدم هذه القنبلة إلا إذا بدأت إسرائيل باستخدام سلاحها الذرى أولا. وأضاف أنه وفقا لمعلومات المخابرات المصرية فإن إسرائيل، كما يبدو، تمتلك إمكانات صناعة قنبلتها الذرية؛ بل إنها تمتلكها بالفعل. بالطبع فقد رفضت طلب السادات على الفور بعد أن أشرت عليه بألا يطرح هذا الموضوع مرة أخرى.

بعد أربع سنوات، عندما زار نيكسون مصر، جرى الإعلان عن عزم الولايات المتحدة الأمريكية مساعدة مصر فى بناء مفاعل ذرى ذى قدرة عالية. لم يكن هذا الإعلان بطبيعة الحال سوى خطوة سياسية من جانب نيكسون تهدف إلى مزيد من ربط السادات، الذى كان يحاول باستماتة أن يحصل على قنبلته الذرية، بالولايات المتحدة الأمريكية. كان واضحا للعالم أجمع أن مصر ليست بحاجة إلى هذا المفاعل لأغراض الحصول على الطاقة، فطاقة محطة القوى الكهرومائية فى أسوان سوف تظل لزمن طويل غير مستخدمة بكاملها. كان السادات يود بالطبع لو أنه "خدع" الأمريكيين وحَصَلَ على إمكانية صنع سلاح ذرى.

لم يكن السادات يتصور بطبيعة الحال ماذا يعنى إنتاج قنبلة ذرية، كان يعلم قليلا للغاية عن أية عمليات إنتاج على وجه العموم. وإذا كان دخول معظم العرب فجأة إلى قرن تكنولوجى جديد يثير لديهم نوعا من الصدمة النفسية، فإن ذلك يصدق أيضا بحق على علاقة السادات بهذا العصر.

لقد جرى التعامل فى بلادنا مع التصنيع واستخدام المعدات عبر معاناة ومعايشة طويلة، إذا جاز التعبير، ولذلك فقد تم استيعابها على نحو صحيح. أما بالنسبة للعرب الذين ظلوا فى مستوى منخفض من التطور الثقافى فقد انهالت على رؤوسهم فجأة التقنيات والمعدات الحديثة. ولم يكن باستطاعتهم الاعتياد عليها وفهمها، لماذا وكيف. فمعظم السائقين فى مصر لا يستطيعون إصلاح الأعطال، كل ما يستطيعون فعله هو الضغط على البدّالات فحسب. وهم يستخفون بالآلات استخفافهم بالبشر والحمير. فإذا تعطل شيء فى المُعَدة يرجعونه إلى إرادة الله: "الله أعطى، الله أخذ". يمكنهم التخلص من هذه المُعَدة

بدلا من البحث فى أسباب تعطلها ثم إصلاحها. وفى الجيش، على سبيل المثال، كان هذا الأمر مصيبة حقيقية، كم من الجهد بذله مستشارونا ليعلموا العرب التعامل مع المعدات ويغرسوا فيهم الخبرات الضرورية "لثقافة" التعامل مع الآلة. وكما يتعلم الأطفال تنظيف أسنانهم بانتظام، كان البعض يرى أنه يمكن العيش دون تنظيف الأسنان. وفى هذا السياق يمكن أن نحكى هذه الحكاية المعبرة لكى نضع تصورا عن السادات وهى تتعلق بإنتاج الطائرات فى مصر. آنذاك تولى الألمان الغربيون مهمة بناء مصنع لتجميع الطائرات، فأحضروا عددا من المعدات، وأغرقوا المصريين بمختلف الوعود البراقة، وقاموا بتجميع طائرة أو اثنتين، وانتهى الأمر عند ذلك. ففى مصر لاتوجد قاعدة للمواد الخام لإنتاج مختلف أنواع المعادن المطلوبة للطائرات، كما لاتوجد صناعات كيميائية متطورة وأخرى لإنتاج الأجهزة وغيرها وغياب كثير جدا من المجالات الضرورية للغاية لكى يكون لديك صناعة طائرات خاصة بك. ولما كان السادات دائم التعبير عن سخطه على حالة توريد المعدات العسكرية من الاتحاد السوفيتى، فقد أوحى له بعضهم بفكرة التخلص من التبعية الأجنبية وامتلاك مصنع خاص لإنتاج الطائرات على بقايا المصنع الذى لم يكتمل بناؤه. لم يكن هناك بطبيعة الحال سوى الاتحاد السوفيتى هو من باستطاعته مساعدة مصر فى هذا الأمر، سواء لأسباب سياسية، أو لأسباب اقتصادية. ومن ثم فقد لجأ السادات إلينا. لقد كان الأمر بالغ الصعوبة، وخاصة أن عددا من المجموعات المؤهلة من الخبراء السوفيت قام بدراسة المسألة بدقة على الطبيعة وأعد المعلومات الضرورية والبراهين من أجل اتخاذ القرار المناسب. كان الأمر يتطلب بالطبع مزيدا من الوقت. لكن السادات أعرب عن استيائه البالغ من عمل الخبراء السوفيت، دون أن يفهم لماذا يعملون على هذا النحو من البطء. كانت إحدى حججه المفضلة عندما يشتكى إلىّ هى: "لقد قام الاتحاد السوفيتى إبان الحرب العالمية الثانية بتطوير إنتاج الطائرات فى العراء تماما، فى حقل، خلال بضع أسابيع. لماذا لاتستطيعون ليس فقط إقامة، وإنما حتى دراسة موضوع إنتاج طائرات خلال أسبوع أو اثنين". وعندما كنت أشرح له ما يتعلق بمثل هذا العمل من ظروف، وأن من الضرورى دراسة الأمر حتى قبل وضع تصور عن الإمكانات، كان السادات يقاطعنى نافد الصبر ليقول: "لا، الأمر يتوقف على اتخاذ قرار سياسى، لو أنكم اتخذتم هذا القرار، لقمتم بإنتاج

الطائرات هنا". ببساطة، كان السادات لا يثق فى أن هذه الأمور غاية فى التعقيد، وأن أى إنتاج جديد يتطلب، حتى فى الاتحاد السوفيتى نفسه، جهودا ضخمة، على الرغم من أن لدينا عمليا كل شيء لازم لذلك – قاعدة للمواد الخام وصناعة جبارة، وكذلك، وهو أمر على قدر كبير من الأهمية، كوادر جيدة الإعداد، وهو ما لاتمتلك مصر منه شيئا فى الواقع.

وفى هذا السياق، طلب السادات الإعداد لإنتاج ذلك الطراز من الطائرات التى كان الاتحاد السوفيتى قد انتهى من استيعابها لتوه، وهى طائرات الميج – ٢٣ ! وقد رد السوفيت على طلبه بأن استيعاب إنتاج الطائرة الميج – ٢١ قد تطلب من الهند على سبيل المثال سبع سنوات. على أن السادات أصر على طلبه؛ فضلا عن أن عددا من "مستشاريه"، الخبراء على شاكلته فى المعدات والاقتصاد، عبأوه ضدنا. أما الإنجليز والأمريكيون اليقظون فقد أوعزوا له بفكرة مفادها أنه يمكن إنتاج هذه الطائرات فى مصر بسرعة وبتكاليف غير باهظة نسبيا، بل إنهم دفعوه إلى زيارة المصنع، حيث عرضوا عليه الطائرة التى لم يتم استكمالها، والتى زعموا أنها تستطيع الطيران بضعف سرعة الصوت. بعدها قال السادات لىّ: "ألم أقل لك إن باستطاعتنا بناء طائرات بهذه السرعة، ولماذا لا يمكننا أن ننتج بمساعدة الاتحاد السوفيتى طائرات يمكنها الطيران أسرع ضعفين أو ثلاثة؟ الأمر يتوقف على السياسة، أنتم لا تريدون مساعدتنا مساعدة حقيقية، دائما ما تكتفون بإمدادنا بشحنات شحيحة. تريدون أن نظل دائما أدنى من إسرائيل بدرجة.. وهلم جرا".

عقدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى اجتماعا مهمًا شارك فيه عدد من المصممين والمنتجين البارزين، وكنت من بين الحضور أيضا. وفى هذا الاجتماع تم اتخاذ قرار تقديم مساعدة لإقامة صناعة الطائرات مع إعطاء قرض وتدريب الكوادر وما إلى ذلك. وفى هذا الصدد يستطيع المصنع البدء بجمع الطائرات فقط من الأجزاء التى يتم جلبها من الاتحاد السوفيتى. وقد تم إعداد خطة شديدة الصعوبة بالنسبة لنا وضعت فى الاعتبار إنتاج أول طائرات مجمعة فى مصر من طراز ميج – ٢١ خلال عام (!) من بدء العمل.

وعندما أبلغنا السادات بذلك رفض ورأى أن هذا الطراز لا يناسبه لأنه أصبح قديما، كما لم يعجبه زمن الإنتاج، لأن الإنجليز وعدوه ببدء إنتاج طائراتهم خلال ستة أشهر! لم يوافق السادات على مقترحنا، وبالطبع لم تكن هناك إمكانية لقبوله مقترحاتنا الأخرى، ومن ثم ظل المصنع عاطلا عن العمل. ولو أن السادات وافق على اقتراحنا لاستطاعت مصر بحلول حرب أكتوبر ١٩٧٣، بعد عامين، امتلاك قاذفاتها الخاصة من طراز ميج – ٢١ ولوضعت أساسا لصناعة حديثة للطائرات، ولأصبح بمقدور هذا المصنع التفكير فى الانتقال إلى طراز آخر من الطائرات.

فى كثير من هذه الأحوال، التى كان الحديث يدور فيها بينى وبين السادات فى أيٍ من القضايا المرتبطة بالاقتصاد أو التكنولوجيا، كان عزيز صدقى ينصحنى بألا أحاول أن أشرح للسادات هذه القضايا وخصوصا إذا كان النقاش سيؤدى إلى نتيجة يرى السادات أنها غير مُرضية له، وطلب منى أن أخبره عندئذ بكل ما يتعلق بالأمر، وقال لىّ أنه سيجد الوسيلة والطريقة المناسبة ليعرض المسألة على السادات بحيث يتجنب إثارة أى رد فعل سلبى سريع من جانبه لسنا بحاجة إليه، وطلب أن أبلغ السادات فى هذه الأحوال أن هذه القضايا سوف يتم عرضها على صدقى الذى سيقوم بدراساتها.

وحتى فى الأمور العسكرية كان كثيرا ما يغلب عليها الارتباك، وذلك لأن السادات كان يعتبر نفسه خبيرا فى شؤونها. فعلى سبيل المثال، طلب السادات، إبان حرب أكتوبر، أن يرسل الاتحاد السوفيتى لمصر دبابات من طراز تى – ٦١ الثقيلة بالطائرات، كما طلب إرسال الجسور العائمة بالطائرات!

كثيرا ما راح المقربون إليه يخدعونه ويدسون له معلومات خاطئة حول وضع الإمدادات العسكرية، وكثيرا ما راحوا "يؤكدون" له أن قطع الغيار العسكرية غير كافية لدى مصر، على الرغم من أنها كانت ضخمة إلى حد أنه كان من الصعب أحيانا تخزينها. كانوا يقترحون عليه التقدم بطلبات للحصول على معدات عسكرية تتجاوز الإنتاج السنوى لها فى بلادنا، أى إنهم كانوا، ببساطة، جهلة لا يفقهون شيئا. أما السادات فراح مذعنا لهم يكرر ما يقولونه فى اللقاءات التى كانت تتم على أعلى مستوى، وعندما يقابل بالرفض، يرفض تصديق ما يقدم له من مبررات معتقدا أن فى ذلك إهانة له وأنهم لا يثقون فيه.

عموما فقد كانت قضية الثقة إلى جانب قضايا توريد المعدات العسكرية تشكل الموضوع الرئيسى فى أحاديث السادات معى، ودائما ما كان يتناول فى كل لقاء يجمعنى به قضية التوريدات العسكرية، وكذلك اتخذ موضوع زعمه أنهم فى الاتحاد السوفيتى لا يثقون فيه مكانة بارزة فى أحاديثنا. ويصعب القول هنا ما الذى كان يعنيه تماما بذلك. فقد كان هو نفسه يعرف تماما أننا نعلم بعض الشىء، إن لم نكن نعلم كثيرا، عما يدور فى ذهنه بالنسبة لعلاقته بالاتحاد السوفيتى، وعن خطواته التى يتخذها تجاه الأمريكيين، وأخيرا عن تصرفاته غير اللائقة تجاه الزعماء السوفيت. وكان هو يدرك بالطبع أن أحدا فى مثل هذه الظروف لا يمكنه الآن أو فى المستقبل أن يوليه ثقته. وعلى أية حال، إذا كانت هناك أزمة ثقة فى هذا النوع من العلاقات، فإنها لم تكن بطبيعة الحال على هذا النحو الدراماتيكى الذى كان السادات يحاول طول الوقت أن يصورها عليه.

كان السادات نفسه يدرك أنه ليس مخلصا فى علاقته بالاتحاد السوفيتى، وفى هذا الظرف تحديدا كان دائم الشكوى كونهم فى الاتحاد السوفيتى لا يثقون فيه، مستندا إلى أن الاتحاد السوفيتى سوف يرد على طلباته بطبيعة الحال بالرفض، وهو ما كان يسعى إليه فحسب. يرى السادات أنه سوف يتلقى "تأكيدا" أنهم "يثقون" فيه، وهو ما يعنى أنه يستطيع مرة أخرى أن يتهمنا بأننا لا نثق فيه. يبدو الأمر غريبا، لكن هذا هو المنطق الخاص بسلوكه الذى يُعرف، إذا جاز التعبير، باسم "المنطق الشرقى".

وبالإضافة إلى ذلك، كان هذا الرجل الشكّاك متآمرا بطبعه. وقد كان السادات يظهر هذه السمة فيه كاملة تجاه الاتحاد السوفيتى، ولم يكن يتصور أن الاتحاد السوفيتى يمكنه أن يفى بشرف بالتزاماته مهما كانت صعوبتها عليه. لم يكن ليثق أن الاتحاد السوفيتى لن يلجأ "للتآمر" مع الولايات المتحدة الأمريكية، إذا ما وعدته بسرعة حلول عصر عدم المواجهة معه. لم يكن يصدقنا فى شىء. لم يكن السادات نفسه يثق فىّ؛ فضلا عن أن يصدقنى، مؤكدا على شكوك الاتحاد السوفيتى تجاهه هو.

كان سعيدا دون شك أن وفدا سوفيتيا جاء لتمثيل بلادنا فى جنازة ناصر وأن الاتحاد السوفيتى فعليا أيّده عندما حُسمت قضية من هو رئيس مصر. فى تلك الأيام كان الرئيس

صريحا وأعلن صداقته علنا أمام الجميع. وبالمناسبة فقد أعرب فى نفس هذه الفترة عن رضائه التام لتعيينى سفيرا لدى القاهرة وأسرع مؤكدا على رغبته فى مقابلتى مرة كل أسبوع على الأقل على نحو منتظم "أيام الاثنين"(!). فى تلك المناسبة لم يبتعد السادات دقيقة واحدة عن الكسىّ كوسيجين إبان الجنازة، متابطاً ذراعه أثناء سيرهما فى الصف الأول للمشاركين فى مراسم العزاء.

وهاهو يقوم بزيارته الأولى إلى موسكو فى مطلع أبريل ١٩٧١ والتى عُرفت باسم "الزيارة السرية". وهذه الزيارة تستحق أن نتحدث عنها تفصيلا، إذ حددت شكل علاقة السادات بالاتحاد السوفيتى.

بحلول ربيع عام ١٩٧١ أصبح السادات أكثر إلحاحا فى طلب السلاح؛ فضلا عن أنه كان دائما ما يصف الوضع العسكرى للجيش المصرى بشكل سلبى، فكان يقول إنه لا يملك كذا وكذا وأنه ليس لديه قطع غيار وهلم جرا. كان كل شىء يبدو وكأن ناصرا خلّف وراءه جيشا غير مجهز، وهو أمر لا يتفق بالطبع والواقع. لقد جرت المبالغة فى هذا الأمر، الذى وجد مناخا مهيأ له بشكل جيد، إذ كان السادات قد قرر أن يجعل من هذا الأمر قضيته الأساسية فى علاقاته بالاتحاد السوفيتى. ومن أجل أن يمارس ضغطا أكبر، ويضفى على الموقف وضعا دراميا، إذا جاز التعبير، توجه إلينا بطلب استضافته فى موسكو فى "زيارة سرية". لا أعرف لماذا كان بحاجة إلى زيارة سرية، ربما لتصبح "زيارته السرية" معادلا للزيارة السرية التى قام بها ناصر إلى الاتحاد السوفيتى فى فبراير عام ١٩٧٠، وهى الزيارة التى أسفرت عن حصول مصر بالفعل على منصات صواريخ مضادة للطائرات. آنذاك نجح ناصر بصعوبة بالغة فى الحصول على هذه المنصات، لكن الأكثر صعوبة كان إقناع القيادة السوفيتية بإرسال أطقم سوفيتية لفترة مؤقتة إلى مصر للعمل على منصات الصواريخ المضادة للطائرات والتى كان من الضرورة بمكان أن تكون موجودة على الجبهة لحين إعداد الصفقات التى تعاقدت عليها مصر مع الاتحاد السوفيتى.

تمت الموافقة على قيام السادات بهذه الرحلة "السرية". ومن جانبنا اتخذت كل الإجراءات لكى تكون الزيارة ذات طابع "سرى" بالفعل (على أنه بعد شهر أو شهرين اتضح أن السادات قد أضر الجميع بهذه "الزيارة السرية").

أرسلنا إلى مصر طائرة من طائرات شركة أيروفلوت السوفيتية بناء على طلب السادات هبطت فى مطار غرب القاهرة الحربى. كان موعد الإقلاع محددا له الخامسة صباحا. وقد وصل السادات فى سيارة يقودها سامى شرف، وعلى المقعد الخلفى جلس محمد فوزى وزير الحربية وإلى جواره شعراوى جمعة. كانت هيئة السادات هزلية تماما ومزرية. كان يرتدى بالطو خفيفًا وقبعة لم يعتد ارتداءها إطلاقا، وكان يضع، علاوة على ذلك، نظارة سوداء. ومثله كان كل من سامى شرف وشعراوى جمعة يضعان نظارات سوداء أيضا حتى لا يُعرفا، كما أخبرنى بذلك سامى شرف همسا.

جرى قطر الطائرة لتقف فى مكان بعيد مخفى عن الأنظار الفضولية وراء تلال ما. وبالطبع لم يفكر أحد فى "أمور بسيطة" مثل كيفية الصعود إلى الطائرة فى مطار حربى لاتوجد به سلالم لصعود الركاب. ومن ثم فقد جرى إعداد ما يشبه السلم من عدد من الصناديق حتى لم يتبق إلى باب الطائرة سوى أربعين سنتيمترا، وهنا اضطروا لمساعدة الرئيس بجذبه إلى الطائرة. كان الوضع بصراحة مضحكا ومؤسفا فى الوقت ذاته، فما الداعى لكل هذه التصرفات الصبيانية؟

بعدما حلقت الطائرة فى الجو طلب السادات إفطارا، وهنا اتضح أن أحدا لم يحضر له جبنه المفضل ولا حتى اللبن، واضطر الحضور لمشاركة طاقم الضيافة كل ما كان لديهم على الطائرة من طعام مثّل بالكاد إفطارا لائقا أخلد السادات بعده إلى النوم.

فى الثالثة ظهرا وصلت الطائرة إلى موسكو ومنها اتجه الجميع إلى الكرملين دون مراسم استقبال رسمية، وهناك بدأت المباحثات، التى يتطلب الأمر وقتا وجهدا كبيرين لوصف ما جرى خلالها. باختصار، كان السادات منحرف المزاج. لم يكن يستجيب لأى نوع من الدعابة. كان سريع الانفعال لأتفه سبب. لم يكن هناك شيئا صالحا يقال حول عزمه التمسك بشعاره حول كون عام ١٩٧١ سيكون عام "الحسم" فى الصراع الدائر فى الشرق الأوسط، وعموما عما تعنيه تحديدا عبارة "عام الحسم" هذه. راح يتحدث عن استحالة تحمل الوضع وطلب إمداده بأحدث الأسلحة لشن ضربات فى عمق إسرائيل، ومع هذا لم تكن لديه أى خطط جادة فى هذا الصدد. لم يكن لديه سوى التأكيد على أن أى

خطط عسكرية هى أمر سهل ما دام قد تم اتخاذ "القرار السياسى" وهلم جرا. وقد كان على القادة السوفيت أن يديروا الحوار بحذر بالغ والتوجه بدفته نحو الجانب العملى.

وفى النهاية بدا أن الأمر قد تم حسمه. وافق الجانب السوفيتى على إرسال قاذفات تو- ١٦ إلى مصر بأطقم سوفيتية على أن تكون، بطبيعة الحال، بقيادة سوفيتية. وهذا الشرط، الذى هو منطقى بكل المقاييس، أثار ثورة غضب عارمة لدى السادات لسبب ما وليرفض بشكل قاطع قبول هذه القاذفات. وقد حاولوا أن يشرحوا له أن كل العسكريين السوفيت فى مصر يعملون تحت القيادة السوفيتية وليسوا جنودا مصريين، كما أنهم ليسوا مرتزقة أو متطوعين. لكن السادات سد أذنيه عن كل ذلك وأعلن أنه سيعود على الفور من الكرملين إلى القاهرة مباشرة وأنه يرفض قبول الدعوة على طعام الغداء الودى وسوف يتناول طعامه فى الطائرة وهلم جرا. كان يعلن بشكل واضح عن إحساسه بالإهانة، وهى شىء، أقولها بصراحة، لا مبرر له وأمر لم يفهم سره أغلبية الحضور. عضَّ السادات غليونه وبدا أنهم نجحوا على أية حال فى إقناعه بالكاد بتناول طعام الغداء بصحبة القادة السوفيت. وقد لطف الطعام بعض الشىء من مزاجه ولكن ظاهريا فحسب. راح مراد غالب السفير المصرى، الذى كان يجلس إلى جوارى يضرب كفا بكف ويسأل: "ڤلاديمير! ما الذى يحدث؟ وما الذى أغاظه؟ كيف يمكن التصرف على هذا النحو؟". لقد رأى غالب فى حياته الكثير، ولكنه لم ير مثل ذلك.

وبالفعل اضطررنا للسفر من الكرملين مباشرة بالفعل عائدين إلى القاهرة. وبعد الفضيحة التى أثرتُها ضد أيروفلوت لسوء إعدادها للطعام فى الرحلة من القاهرة إلى موسكو، تم إعداد كل شىء إبان رحلة العودة على أعلى مستوى. وبالطبع فقد كنت قد قررت أن أحاول استيضاح ولو قدر ضئيل من الأسباب التى دفعت السادات إلى أن يستشيط غضبا، وما الذى جعله يفسد الخطط الممتازة بالنسبة له لتنتهى المباحثات على هذا النحو وقد كانت مُبشرة له.

ما أن دخل السادات إلى صالون الطائرة حتى عاد إلى طبيعته. بعدها اقترب منى كل من شعراوى جمعة ومحمد فوزى وراحا من جديد يتأكدان ما إذا كان السادات قد رفض

بالفعل قبول قاذفات القنابل، وعلى الرغم من أن كليهما ألحَّا أمامى على ضرورة إرسال الاتحاد السوفيتى للقاذفات، فقد حاولا تصوير الأمر كما لو أنه قد انتهى بالاتفاق على إرسالها. كنت مضطرا أن أبدد آمالهما وأن أذكِّرهما أن الرئيس لن يقبل القاذفات كما أعلن ذلك بنفسه على نحو قاطع.

بعد برهة من الوقت دعا السادات الجميع إليه فى صالون الطائرة لكى نتناول معا طعام العشاء. كانت لديه، كما كانت لدىّ، الرغبة فى التحدث من أجل أن يتضح الموقف بعض الشيء. ولما كان الموقف يسوده التوتر فقد اقترحت أن نشرب بعض الفودكا حتى نضفى بعضا من الانتعاش بطبيعة الحال.

بعد طعام طيب صاحبه بعض الخمر نجحنا فى إدارة حديث تطرقنا فيه إلى نتائج الزيارة. وهنا عاد السادات من جديد ليؤكد أنه لن يتحول عن رأيه ولن يوافق إطلاقا على وجود عسكريين سوفيت فى مصر لا ينصاعون له، وإذا كان ناصر قد قَبِلَ ذلك سابقا، فإن ذلك كان صفحة من الماضى وطويت.

وبعد أن شرب كمية غير قليلة التفت إلىّ فجأة قائلا كلاما منقطع الصلة بحديثنا قائلا: "لقد ذهبت إليهم! ذهبت بوصفى رئيسا! مازلتُ أذكرُ جيدا كيف كنت بصحبة ناصر ذات مرة فى موسكو، وكنت أشغل آنذاك منصب نائب الرئيس. آنذاك وعلى مائدة الإفطار فى الكرملين بدأ زعماؤكم يسألون ناصرا على نحو استعراضى عن الشخص الثانى بعد الرئيس فى مصر، وكنت أجلس فى هذه اللحظة إلى جانب الرئيس، ولم يستطيعوا معرفة أننى أنا الشخص الثانى. والآن ذهبت إليهم باعتبارى الشخص الأول باعتبارى الرئيس!".
كم من الإحساس بالضيم فى هذه الكلمات، لقد انطلقت الكلمات من أعماقه، الكلمات التى كان يشعر أنه لابد أن يخبرنى بها: ها هو يعلن انتصاره بعد أن أصبح رئيسا، كما يعلن كراهيته أيضا للزعماء السوفيت ويرد لهم ما توهَّم آنذاك أنها إهانة اتخذها ذريعة لما فعله إبان المباحثات.

حاولت بكل قوتى بطبيعة الحال أن أقنع السادات أن الأمر لم يكن كذلك، لكن جهودى ذهبت سدى. راح يكرر ويكرر ضاحكا وقد وجَّه ناظريه إلى نقطة محددة هناك فى الفضاء

وهو يقول: "ها قد جئتُ إليكم". منذ هذه الرحلة تولَّد لدى السادات إيمان عميق بأنهم فى موسكو "لا يثقون فيه".

لقد حددت تصرفات السادات فى موسكو بالطبع علاقاته بالناصريين، وخاصة أن هؤلاء كانت توجهاتهم تتركز فى جر الاتحاد السوفيتى قدر الإمكان أكثر فأكثر إلى قضية الشرق الأوسط ولو كان الثمن فى ذلك وقوع مواجهة بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية. بينما كان السادات يسير بخطٍ حثيثة نحو التخلص من الإرث الناصرى. وفى عام ١٩٧١ وقعت أحداث مايو الشهيرة التى عكست أيضا علاقة السادات بالاتحاد السوفيتى.

ليس لدىّ أدنى شك، على سبيل المثال، وإن كنت لا أملك أدلة مباشرة على ذلك، أن إحدى نتائج هذا العمل من جانب السادات كان الإساءة إلى سمعة الاتحاد السوفيتى بزعم أنه يقف وراء "المتآمرين". ما الذى يمكن قوله فى هذا الصدد؟

لم يكن عبثا أن السادات أرسل شعراوى جمعة أيضا إلى موسكو فى "زيارة سرية"، كما أرسل وفدا لحضور المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى يضم فى عضويته كلا من عبد المحسن أبو النور الأمين الأول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى وسامى شرف، وقد أصر على أن يستقبلهما ليونيد بريچنيف فى "سرية" تامة. كانت القضايا التى طرحها جمعة وشرف هى نفس القضايا الخاصة بالحصول على قاذفات قنابل بعيدة المدى من أجل توجيه ضربات فى عمق إسرائيل. كان الهدف من هذه الزيارات عنده هو خلق انطباع عن وجود صلات دائمة بين موسكو وعدد من المقربين إليه. وكما هو معروف فقد تم اعتقال كل هذه الشخصيات، إلى جانب آخرين، فى منتصف شهر مايو وحُكم عليهم بالإعدام شنقا، ثم استبدل بالحكم الأشغال الشاقة لمدة خمسة وعشرين عاما.

لسبب أو لآخر تحضرنى هنا واقعة أخرى ينبغى علىّ أن أذكرها بكل تفاصيلها. بعدما سلمت الرئيس السادات أوراق اعتمادى وإبان حديثى معه باعتبارى سفيرا للاتحاد السوفيتى، ذكّرته برغبته فى عقد لقاءات أسبوعية معى وأشرت إلى أن القيادة السوفيتية تشاركه هذه الرغبة، ومن ثم فإننى على استعداد دائما لعقد هذه اللقاءات وأننى فى انتظار تعليمات الرئيس. فى الواقع لم أستمع لأى رد من السادات على هذا الحوار. وقد عدت

للتطرق إلى هذا الموضوع بصورة أخرى بعد فترة من الزمن لعلمى بأنهم فى موسكو ينتظرون هذه اللقاءات بعد أن أبلغ الكسىّ كوسيجين المكتب السياسى بهذا الاتفاق الذى تم بينى وبين السادات. لكن السادات لم يَرُد أيضا فى هذه المرة، وعندئذ قررت ألا أزعجه.

بعد عدة أيام دعانى سامى شرف الذى كان آنذاك الرئيس الفعلى للمخابرات العامة والحربية، وأخبرنى بأنه على علم بالفكرة التى طرحها علىّ السادات بشأن اللقاء مع السفير السوفيتى أسبوعيا، ولكن الرئيس فوضه أن يُعرِّفنى ببعض القضايا وأن يحيطنى علما ببعض المشكلات، إذا جاز التعبير، قبل أن تبدأ هذه اللقاءات.

وبعد ذلك ذكر لىّ سامى شرف أن الرئيس ناصر قبيل وفاته بفترة قصيرة دعا إليه السادات وسامى شرف وشعراوى جمعة ومحمد فوزى وقال لهم إن هذه المجموعة منوط بها إدارة الدولة فى حالة وقوع أى ظروف طارئة، وأنهم جميعا مكلفون بالاهتمام بتوطيد أواصر الصداقة مع الاتحاد السوفيتى باعتباره الحلقة الرئيسية لكل العلاقات السياسية الخارجية للبلاد. وأردف سامى شرف قائلا إن هذه المجموعة تمسك بقوة بزمام السلطة وراح يحكى عن أن لديه معلومات حصل عليها من التنصت على كثير من المصريين وأن هناك أياد كثيرة داخل مصر تود لو أطبقت على رقبته (سامى شرف). كل ذلك أثارنى. كانت هذه "الصراحة" غير مفهومة فى بعض من جوانبها بالنسبة لىّ، والأمر الأساسى الذى لم أفهمه هو لماذا وجب عليه أن يخبرنى بكل ذلك. خُيِّلَ إلىَّ آنذاك أن هؤلاء الناس يغالون ببساطة فى قيمة أنفسهم.

تكررت هذه الأحاديث مع سامى شرف ثلاث أو أربع مرات. كانت نوعا من المحاضرات، إذا جاز التعبير. أما اللقاءات مع السادات فلم تتم على أية حال. وأخيرا، عندما حان موعد اللقاء الأول، نجحت فى أن ألفت انتباه السادات أننى مواظب على الاستماع إلى محاضرات سامى شرف بكل اجتهاد، فقال لىّ إنه يعرف ذلك.

تأزم الوضع فى البلاد، وبات واضحا للعيان الخلاف القائم بين السادات وبين من حوله من الناصريين. وقد أثار هذا الوضع قلقى لأن السادات توقف عن أن يلتقى بى من جهة، ولأن شخصيات حكومية أخرى راحت تدعونى لتبادل الحديث معها. لم يكن بوسعى

أن أتحاشى هذه اللقاءات لأنها كانت لقاءات عمل. لكن تفاصيلها كلها كانت كما لو أنها تصب فى خانة معارضة الرئيس. كان علىّ أن أبذل جهودا مضنية لكى أحظى بلقاء جديد مع السادات. كان اللقاء يتطلب بطبيعة الحال أن يقع أمرٌ جلل، وفور لقائى به طرحت على الرئيس سؤالا مباشرا حول من هم أفضل أصدقائه الذين باستطاعتى أن أتحدث معهم بصراحة كما أتحدث مع الرئيس؟

نظر إلىّ السادات باهتمام وقال أن أفضل أصدقائه هم شعراوى جمعة ومحمد فوزى وسامى شرف.

فى الحادى عشر من مايو ولدى مقابلتى مع السادات، عندما كان ثمة شعور بأن أمرا ما، كما يقولون، يلوح فى الأفق، وبسبب هذا الأمر الوشيك، عدت من جديد لأطرح على الرئيس سؤالى حول من هم أقرب أصدقائه الذين أستطيع أن أتحدث معهم بصراحة وكأنى أتحدث مع الرئيس. عاد السادات ليردد على مسامعى أسماء جمعة وفوزى وسامى شرف، على أن هذه المرة سألنى لماذا أكرر عليه هذا السؤال. أجبته أننى أريد أن أكون واثقا وحذرا؛ فضلا عن أن عدد المقربين من السادات، كما بات معروفا، راح يتناقص، فقال لىّ السادات أنه لا يخشى من شىء.

وبعد يومين، وفى الثالث عشر من مايو، اعتقل السادات جمعة وفوزى وسامى شرف وغيرهم من الناصريين بتهمة الخيانة!.

فى صيف ذلك العام، التقيت صدفة بالصحفى الشهير محمد حسنين هيكل، الذى كان يبدو أنه لا يخفى عليه سر من أسرار الدولة. وكانت قد سرت معلومات فى هذه الفترة تزعم أن سامى شرف أرسل من السجن خطابات إلى السادات ضمَّنها اعترافات تؤكد على أن الذى حرَّضه على الرئيس هم محمود رياض وزير الخارجية والسفير السوفيتى وكبير المستشارين العسكريين السوفيت! أعربت عن استيائى لهيكل وأخبرته عن تصرفاتى عشية هذه الأحداث الدراماتيكية. اهتم هيكل بحديثى واقترح علىّ أن أستمع لديه إلى شريط مسجل عليه حديث لىّ مع سامى شرف فى التاسع من مايو، وهو اللقاء الأخير لىّ مع سامى شرف، وكنت قد أعطيته إبان هذا اللقاء صورا فوتوغرافية التقطت له فى

المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى عند لقائه بليونيد بريجينيف. نكّرت هيكل بأننى حكيت للسادات عن هذا اللقاء، ولكننى كنت أشك فيما إذا كان هذا اللقاء قد تم تسجيله بالفعل.

تحدث هيكل عن مضمون الحديث الذى دار بينى وبين سامى شرف وأشار إلى أن الأخير أكد أنه لا يثق فى تصرفات الرئيس تجاه الأمريكيين وتجاههم هم أنفسهم، وأن سامى شرف قال: "لم نعد نعرف ما الذى سوف يقدم عليه السادات بعد ساعة أو نصف ساعة" وقد أكدت لهيكل أن هذا ما قاله سامى شرف بالفعل.

أضاف هيكل قائلا: "وبعد ذلك سألك سامى شرف عما ينبغى عمله مع الرئيس" وبالفعل كان سامى شرف قد طرح علىّ هذا السؤال المستفز. أذكر جيدا أننى كنت منتبها تماما. عندئذ سألت هيكل وكلى رغبة أن أتيقن على نحو نهائى إذا كانت حكايته هذه حقيقية من عدمه وما إذا كانت كل أحاديثى مسجلة على شرائط.

قال هيكل: "قلت له ما يلى: هذا رئيسكم وعليكم الالتفاف حوله وتأييده".

صحيح. هذا ما قلته بالفعل.

واصل هيكل حديثه قائلا: "عندما استمع السادات إلى هذا المقطع من التسجيل ضرب كفا بكف من الإحباط صائحا: أخ! لقد أفلت السفير وكان على شفا هاوية!"

أدهشنى هذا الرد للغاية فسألت هيكل: "وماذا كان الرئيس يتوقع، ما الذى كان يود أن يسمعه؟"

قال هيكل: "لا أعرف. لقد تولّد لدىّ انطباع أنه كان يتوقع أن يستمع منك إلى ما يدعم المتآمرين".

صحت قائلا: "ولكن هذا لم يكن من الممكن أن يصدر عنى".

أجاب هيكل: "أنت على حق. لكن معرفتك بالسادات قليلة. لقد كان يود أن يرى فيك متآمرا، عندئذ كان الأمر سيبدو له مفهوما؛ بالإضافة إلى أن خطاب سامى شرف، على الرغم من عبثية ما به من اتهامات قد ترك أثرا فى مكان ما من تفكير الرئيس".

عندما أذعت فيما بعد هذه القصة بكلمات أخرى، مضيفا إليها، إذا جاز التعبير، بعض التصرف. أدركت أن السادات كان بحاجة ماسة إلى معلومات تسىء إلى سمعة الاتحاد السوفيتى. كان عليه أن يثبت بأى وسيلة من الوسائل أن الاتحاد السوفيتى يقف ضده، بينما يقف وراء "المتآمرين"، بحيث تصبح يداه مطلقة عندئذ للدخول فى أى مناورات مع الأمريكيين.

بعد اعتقال "المتآمرين" كان السادات حريصا بشكل واضح على بقاء العلاقات مع الاتحاد السوفيتى فاترة، وكانت هذه الفترة تمثل بداية اتصالاته مع الرئيس الأمريكى، وتقدم الأمريكيين النشط بطلب إبعاد "الوجود السوفيتى" باعتباره "ثمنا" للخطوات الممكنة للولايات المتحدة الأمريكية فى مجال تسوية قضية الشرق الأوسط.

على أن الاتحاد السوفيتى كان قد قطع شوطا مهمًا فى مسيرته الدبلوماسية والسياسية الصحيحة. ولم يعد السادات هو قضيته وإنما مصير مصر - أكبر دولة عربية، ومصير شعبها وما تم إنجازه من إصلاحات تقدمية. كانت القوى الرجعية الدولية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية تترقب أن يصيب الضعف والوهن الاتحاد السوفيتى بمصر.

بعد أحداث مايو، أكد لىّ السادات إبان أحاديثه معى على رغبته فى التشاور مع أحد الزعماء السوفيت، على أن تجرى المباحثات فى القاهرة، ولم يكن ذلك ألا بهدف التمويه على مخططاته. كان السادات يعتمد، بشكل واضح، على أن الزعماء السوفيت، بعد الأحداث التى اعتبرها العالم أعمالا عدائية للاتحاد السوفيتى، سوف يحجمون عن الحضور إلى القاهرة انطلاقا من إحساسهم بالإهانة. لم يكن بمقدورى بالطبع سوى أن أكتفى بأن أعده بنقل رغبته إلى موسكو، وفى هذا السياق نوّهت إلى أنه سيكون من الصعوبة بمكان، بطبيعة الحال، اتخاذ قرار سريع فى هذه القضية وأن الأمر سيتطلب بعض الوقت للتفكير. ولمّا كان السادات يتوقع أن موسكو لن ترد على طلبه على الفور، بدأ فى الحديث معى مبديا اقتناعه بصحة حساباتى، ثم قال إنه لا مانع لديه من عقد معاهدة الصداقة التى كان ناصر قد طرحها، وكان ناصر قد طلب آنذاك قبول مصر كما لو كانت إحدى دول معاهدة حلف وارسو وأن يتعامل الاتحاد السوفيتى مع مصر باعتبارها من الدول الاشتراكية، وهنا أيضا كان السادات يعّول على رفضنا.

لكن القرار الذى اتخذته موسكو جاء على عكس ما توقع السادات. لقد جاء إلى القاهرة أندريه جروميكو ليبلغ السادات أن رغباته فى عقد معاهدة للصداقة والتعاون قد تمت الاستجابة لها! كانت ضربة للسادات الذى لم يكن يتوقع مثل هذه الخطوة. فى البداية بدأ فى الحديث عن أن من الأفضل الانتظار بعض الوقت، ولكنه حين أدرك أن مناوراته باتت مكشوفة تظاهر وكأن "شيئا لم يحدث" وطلب فسحة من الوقت للتشاور مع رفاقه الجدد، ثم وافق. أذكر جيدا عندما رافقته بعد المباحثات. هبطنا بالمصعد الصغير أنا وهو بعد المقابلة مع الوفد السوفيتى. كان السادات ممسكا بمشروع المعاهدة الذى تسلمه للتو، وكانت الوثيقة مطوية على هيئة أنبوب. كانت عيناه تنظران إلى بعيد وكأنما تريان شيئا لا نراه. لفتُّ انتباهه إلى الوثيقة إذ كان من الممكن أن يلتقى فى الأسفل بالمراسلين. عندئذ سارع السادات على عجل بدسها فى جيبه الداخلى...

وعلى الرغم من أن المعاهدة قد تم عقدها بناء على طلب السادات، بل وبإصرار منه فى الواقع، فإن ذلك لم يمنعه من أن يعلن فيما بعد أن المعاهدة فُرضت عليه مقابل وعده بإرسال قاذفات بعيدة المدى! بل تحدث على نحو مباشر قائلا : إن الروس يزعمون أنهم يخشون أن يلجأ للأمريكيين ولهذا قرروا أن يربطوه بهذه المعاهدة. حسنا، فليفسروا الأمر كما يحلو لهم، فالمعاهدة مثّلت على أية حال ضربة كبرى للخطط الأمريكية للاستحواذ على مصر فى عام ١٩٧١.

قبيل نهاية عام ١٩٧١ تبين استحالة تزويد مصر بكل الطائرات من طراز ميج –٢١ التى تم الاتفاق عليها وذلك لأسباب فنية، وعلى الفور عاد السادات من جديد إلى النغمة القديمة حول عدم الثقة واشتد أوار الشك لديه وراح يبحث كسابق عهده عن حجة لإضعاف العلاقات. وهنا جرت وقائع عديدة تحمل طابعا استفزازيا تجاه العسكريين السوفيت وانتشرت الحملات الإعلامية وازدادت المماحكات فيما يتعلق بقضايا العلاقات الاقتصادية وفى غيرها من القضايا. كانت حياتنا فى مصر يكتنفها دائما القلق والمخاوف مما يتطلب اتخاذ الحيطة واليقظة المستمرين. فكما نتوقع دائما استفزازات جديدة. كنا مضطرين طوال الوقت إلى التفكير فى كيفية تلافى ما يمكن اتخاذه ذريعة ضدنا، وفى هذا الوقت كان عدد ما يمكن أن نسميهم بالجالية السوفيتية قد بلغ ما يزيد على خمسة عشر ألف نسمة بما فيهم العسكريون.

فى صيف عام ١٩٧٢ كان قرار السادات بالاستغناء عن خدمات الخبراء العسكريين السوفيت، وقد تم اتخاذ قرار إجلائهم على وجه السرعة بصورة مهينة بالنسبة لنا، وهو ما كان يتفق تماما وشخصية السادات. يمكن التأكيد بشجاعة أن ناصرا لم يكن ليتخذ مثل هذا القرار إطلاقا، وحتى إذا ما رأى فى ذلك ضرورة ما، لفعله كما ينبغى بين حليفين وليس بين خصمين. أما السادات فقد تعامل مع الأمر كما لو كنا نحن الذين فرضنا العسكريين السوفيت على مصر قسرا، على الرغم من أن السادات كان يعلم جيدا كم من الجهد بذله ناصر من أجل إقناع الزعماء السوفيت باتخاذ قرار إرسال الخبراء العسكريين السوفيت إلى مصر فى فبراير عام ١٩٧٠.

حدد السادات أسبوعا واحدا لمغادرة الخبراء السوفيت وعائلاتهم. أما الأمر الأكثر أهمية فتمثل بطبيعة الحال فى الظروف التى اتخذ فيها السادات هذا القرار؛ فضلا عن أن قراره، الذى أبلغنى به مباشرة، قد ألحق، بطبيعة الحال، ضررا بالغا بالعلاقات السوفيتية المصرية. لقد أثبت السادات بذلك عمليا أنه لا يمكن الوثوق به بأى حال من الأحوال!

فى يونيو من عام ١٩٧١ توجه السادات إلى القيادة السوفيتية بعدد من الأسئلة التى تمت صياغتها على نحو اتسم بالغموض والإبهام. على أنه كان من الممكن رؤية المغزى المستفز وراء الضباب الذى اكتنف هذه الأسئلة. كان السؤال تحديدا: كيف ينظر الاتحاد السوفيتى إلى الموقف الذى يمكن أن يحدث بحلول الخريف، وإذا ما اندلعت العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط، فإلى أى درجة يمكن الاعتماد على الاتحاد السوفيتى، وبالإضافة إلى ذلك تضمنت الأسئلة طلبا "لتعويض" مصر بالأسلحة وهلم جرا. لم تكن الأسئلة مصاغة بشكل محدد ولم تحدد موعدا عاجلا للرد عليها، ولكنها طُرحت علينا عشية زيارة نيكسون إلى الاتحاد السوفيتى، والأرجح أنها كانت تعّول على إحراج الاتحاد السوفيتى.

بدأ السادات يعبر عن اهتمامه بالأمر فسألنى عدة مرات ما إذا كنت قد تلقيت ردا، وكنت فى كل مرة أخبره بأننى سوف أبلغ الرئيس فورا فور تلقى الرد. وقد تسنى لىّ أن أتأكد على نحو عابر بسبب عجلة الرئيس بعد أن تبينت جوهر هذه الأسئلة. وأخيرا تسلمتُ

ردا على أسئلة الرئيس. بالطبع لم يكن الرد على النحو الذى كان السادات يتوقعه. كان ذلك انطباعى بعد قراءتى الأولى له، وهو ما أخبرت به رفاقى، لكننى كنت مكلفا على أية حال بإنجاز الأمر وإبلاغ الرد.

قمت بزيارة السادات هذه المرة فى قصر الطاهرة. كان يبدو مكتئبا. قام المترجم بعرض مضمون الرد على الرئيس. كانت هناك بالطبع جوانب لم يستطع تصورها، مثل ما ورد بشأن الحملة المعادية للسوفيت التى يشنها الإعلام المصرى وعما تقوم به الدوائر الرجعية ضد المنظومة التقدمية فى مصر، وعن ضرورة دعم العلاقات عمليا وليس بمجرد الأحاديث وما إلى ذلك.

استمع السادات إلى الرسالة دون أن يصدر عنه أى تعليق. وبعدما انتهى العرض سألنى على نحو لاذع: "أهذا كل ما فى الأمر؟"، شعرت على الفور أن العاصفة تقترب. وحيث إن الرسالة لم تتعرض للنظر فى طلباته الخاصة بالتوريدات الجديدة للأسلحة، وإنما تعرضت لكونها رهن الدراسة، فقد قررت أن أحيط الرئيس علما بآخر المعلومات لدىّ عن التوريدات العسكرية والتى تشير إلى أن جزءا من طلباته قد تم إنجازه وأن الجزء الآخر فى طريقه للإعداد، وأن الأمور تسير على وجه العموم بصورة لا بأس بها فى الواقع.

استمع السادات إلى ما قلته، ثم سألنى مرة أخرى بنبرة جافة: "أهذا كل ما فى الأمر؟". كان هذا بالفعل كل ما فى الأمر، وقد رددت بالإيجاب قائلا إن هذا كل ما لدىّ للرئيس.

بعد فترة وجيزة من الصمت بدأ السادات فى التحدث بشكل واضح وصارم. طلب منى أن أبلغ موسكو أنه سوف يواصل نضاله ضد إسرائيل، وأنه سيظل صديقا للاتحاد السوفيتى على الرغم من "تصرفاتنا"، وأنه قد اتخذ قراره بسرعة إنهاء عمل البعثة العسكرية السوفيتية فى مصر – الخبراء والأفراد العاملين فى الوحدات العسكرية.

كان إعلانه بمثابة الرعد على صفحة سماء صافية. كانت الفكرة الأولى التى راودتنى عندئذ: أليس فى هذا نوع من الابتزاز. وإذا لم يكن ابتزازا، وإذا كان يطرح قراره على نحو جاد فمتى اتخذه: الآن أم قبل ذلك، وإذا لم يستطع أن يدرك مضمون الرسالة التى سلمتها

إليه توا، وإذا كان قد اتخذ قراره قبل ذلك، فكيف لم نستطع أن نعرف ذلك أو نخمنه على أى الأحوال؟ وإذا كان القرار قد تم اتخاذه الآن فقط بعد أن تعرَّف على الرد، فأى زعيم دولة هذا، وهل يدرك التبعات التى سوف تترتب على قراره، وكيف ستتلقى موسكو هذا القرار، وأخيرا، كيف سيستقبله العالم أجمع. فالقرار لا يعنى فقط إضعاف القوات المسلحة المصرية، وإنما هو ضربة قاصمة موجهة للعلاقات السوفيتية المصرية. إن هذا السلوك الطائش لا يمكن فى حقيقة الأمر أن يمر دون حساب. مع من دبَّر كل ذلك؟ وهل يمكن أن يكون قد فعلها وحده؟

أجبتُ بأننى سوف أبلغ موسكو اقتراح الرئيس بالطبع، وإن كنت أود أن أنّوه إلى أن العسكريين السوفيت موجودون فى مصر لا بإرادتهم، وإنما جاءوا تلبية لرغبة ناصر المُلّحة وبشكل استثنائى ومؤقت...

قاطعنى السادات قائلا إنه يقدم اقتراحا للزعماء السوفيت بشأن إنهاء عمل الخبراء السوفيت فى مصر، وإنما يبلغنى قرار الإنهاء وهو قرار لا يقبل المناقشة. كان واضحا أن الرئيس عاد "للتجاوز" مرة أخرى.

حاولت بطريقة مختلفة أن أنبه السادات إلى فكرة ضرورة إجراء مشاورات تمهيدية مع الزعماء السوفيت دون نفى، بطبيعة الحال، لحق مصر الذى لايُنازع فى اتخاذ ما يراه من قرارات تمس استقلالها، فقد جاء وجود العسكريين السوفيت نتيجة قرار مشترك بين دولتين ونتيجة للتنسيق بينهما وما إلى ذلك.

لكن السادات عاد من جديد ليؤكد أنه لا عودة للوضع السابق، وأنه قد أصدر قرارا حاسما، ثم بدأ بعد ذلك فى الحديث بلهجة ساخرة عن العسكريين السوفيت فى مصر لكى يثير سخطى ويستفزنى لاتخاذ رد فعل حِاد. شعرت على نحو غريزى أن علىّ الآن تحديدا أن أكون أكثر هدوءا وألا أبدو شخصا أُيرت مشاعره وألا أستسلم للسادات فى تلك الحالات التى يسخر فيها من بلادى وشعبها.

أجبته بكل أدب أن السوفيت لم يجيئوا إلى مصر بمحض إرادتهم، وإنما أُرسلوا إلى هنا وقاموا بواجبهم الأممى فى مساعدة الشعب المصرى فى نضاله ضد عدو مشترك

على التراب المصرى، وقد فقد الكثير منهم صحته ومع ذلك فقد أدى السوفيت جميعهم واجبهم بشرف أمام وطنهم وأمام الشعب المصرى الشقيق، وبالطبع فهم لا يستحقون هذه الإهانات التى يوجهها الرئيس لهم الآن.

لكن السادات قرر أن يزيد الجو توترا، فراح يتعرض للزعماء السوفيت ولىّ شخصيا ثم صاح قائلا: "ما الذى كان علىّ فعله عندما قدمتم لى هذه الورقة التى لا تصلح إلا أن أمسح بها الأرض؟"

أجبتُ الرئيس قائلا إننى لم أحضر له "ورقة" ليمسح بها الأرض، وإنما رسالة من الزعماء السوفيت، زعماء البلاد التى تمثل حليفا لمصر وشعبها، ولذلك فإننى أرجوك ألا تتحدث عن هذه الأشياء التى يمكن اعتبارها إهانة للشعب السوفيتى.

صاح السادات: "ماذا كان ستالين سيفعل برأيك لو أن السفير الإنجليزى أحضر له أثناء الحرب رسالة شبيهة بهذه الرسالة التى أحضرتها إلىّ؟"

أدركت بالطبع أن أى حديث لن تكون له جدوى وأن الرئيس قد تجاوز الحدود، وأنه قد يزداد تطاولا فى هذا الاتجاه وأن الحديث بات عبثا وأن استمراره سيزيد الأمور تعقيدا.

أجبتُ بقولى: "سيادة الرئيس لست السفير الإنجليزى، ولم أحضر لك رسالة من الحكومة الإنجليزية. هل لديكم أسئلة نناقشها أو شىء آخر تودون إبلاغه إلى موسكو؟ إن لم يكن هناك شىء من ذلك فإننى أستطيع الذهاب".

قال السادات إنه ليس لديه شىء. أديت التحية وغادرت المكان.

أثار خبر القرار الذى اتخذه السادات القلق بطبيعة الحال لدى الدائرة المقربة من السادات بما فيها رئيس الوزراء عزيز صدقى. وقد استشعر قادة البلاد، الذين كانوا لا يزالون يقدرون العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، استشعروا على نحو جلى النتائج التى يمكن أن تؤدى إليها هذه الخطوة التى اتخذها السادات. لقد قدم السادات تنازلا صريحا للأمريكيين، الذين كانوا يطالبون بإخراج "الوجود السوفيتى" من الشرق الأوسط، وخاصة الوجود العسكرى. وقد قدم السادات ما أرادوا عربونا وأبلغهم بأنه على استعداد أن يسير إلى أقصى مدى فى علاقته بالاتحاد السوفيتى.

فيما بعد قام عزيز صدقى برحلة عاجلة إلى موسكو حاول فيها التخفيف من أثر الانطباع الذى تركه قرار السادات، كما حاول إقناعنا بأن نعتبر أن قرار إنهاء عمل البعثة العسكرية كما لو أنه جاء نتيجة لاتفاق ثنائى بين البلدين، لكن محاولاته باءت بالفشل. لم يوافق السادات على أن يتم إنهاء عمل العسكريين السوفيت تدريجيا، وقد توصلنا إلى اتفاق يقضى بأن تكون المدة من شهرين إلى ثلاثة أشهر تقريبا. أما حجتنا الأساسية فى أن يتم الأمر تدريجيا فكانت أن نترك انطباعا لصالح القرار يتمثل فى ألا نترك للأعداء فرصة للشماتة. أما بالنسبة للسادات فكان من الواضح أنه كان يسعى من وراء قراره أن يلوح علنا للأمريكيين أنه مستعد للتعاون معهم.

ما الذى كانت تمثله هذه الخطوة التى اتخذها السادات: إظهار عدم توازن شخصيته أم أفعال مبنية على حسابات عميقة؟

أعتقد أن العاملَيْن كانا موجودين: فى المقام الأول، بالطبع، كان اتخاذ القرار مسبقا بانسحاب العسكريين السوفيت من مصر، لأنه بدون ذلك لم يكن الأمريكيون ليَعيدوا بأى تدخل فى قضية الشرق الأوسط. وقد أعلنوا مباشرة، بما فيهم كيسينچر وزير الخارجية الجديد، أن الهدف الأول للولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط ينحصر فى "طرد" الروس.

من جانب آخر، أظهرت أفعاله الصفات المميزة لشخصيته. لقد اعتبر السادات أن لحظة استلامه رد القيادة السوفيتية تحديدا، هى اللحظة المناسبة تماما ليقوم بإبلاغنا بقراره الخاص بالعسكريين السوفيت، لأن ذلك من شأنه أن يجرح إحساس الزعماء السوفيت، وبالتالى فإن خطوته التى أحكم تدبيرها سوف يكون لها رد فعل بالغ القوة فى الاتحاد السوفيتى، حتى إنهم سيحترمونه أكثر على هذه الشجاعة، إذا جاز التعبير.

كان السادات كثيرا ما يستخدم تعبيرات فاحشة للغاية دون خجل فى حق الزعماء السوفيت فى وجود أناس كانوا يحاولون إبلاغنا بها دون خطأ. أما هو فكان يعلم جيدا أن هذه التعبيرات سوف تصل حتما إلى موسكو.

بعد قراره الخاص بالعسكريين السوفيت، كان على السادات، بطبيعة الحال، أن يشرح على نحو ما تصرفه أمام مختلف فئات المجتمع المصرى. لكن خُطبه كانت تتضمن دائما شيئا واحدا: الاتحاد السوفيتى يتعامل مع مصر على نحو سيئ، فهو لا يحافظ، على سبيل المثال، على عهوده ويتآمر مع الأمريكيين وهلم جرا. باختصار كان يضفى على صورتنا أسوأ الصفات. وفى هذا السياق كان يلجأ إلى الإفصاح عن الرسائل السرية التى كان الزعماء السوفيت يرسلونها إليه! لقد ضاع معنى الحفاظ على سرية هذه الاتصالات، وكأن الرجل يريد أن يقول لنا : إننى لا أريد هذه الرسائل.

وفى تصرف على طريقة ملوك الشرق، أعلن السادات أنه لن يستقبل مجددا السفير السوفيتى، وإذا كان لدى السفير السوفيتى تفويض بتوصيل أية رسائل إلى الرئيس، فإن بإمكان هذا السفير تسليمها إلى رئيس الوزراء أو إلى وزير الخارجية. كان من الواضح أنه يريد أن يعطى انطباعا أنه أهين (ممن؟) وأنه سوف يتوقف عن تبادل الرسائل السرية مع الزعماء السوفيت.

راحت العلاقات بين البلدين تستقيم من جديد تدريجيا، وإن حدث ذلك ظاهريا فقط. عاد الرئيس من جديد يستقبل السفير السوفيتى ويرسل من خلاله الرسائل ويستقبلها. أما تفسير ذلك الأمر فكان بسيطا للغاية: لقد "اِلتَهَم" الأمريكيون العربون الذى قدمه السادات لهم والذى تمثّل فى إبعاد الخبراء السوفيت من مصر، وبدا أن هذا الثمن غير كافٍ، وكسابق عهدهم لم يقدموا شيئا لحل الصراع العربى الإسرائيلى. كانت المشكلة فى الحكومة التقدمية التى كان يرأسها آنذاك عزيز صدقى فى مصر.

وفى الوقت نفسه سرعان ما شعرت القيادة العسكرية فى البلاد أن خروج العسكريين السوفيت قد أدى إلى تردى الأوضاع داخل القوات المسلحة بشكل واضح. لقد تعرضت كمية كبيرة من السلاح الحديث المعقد للأعطال بسبب عدم اتخاذ إجراءات الصيانة اللازمة. وهنا وافق السادات، على كره منه، على رأى قادته العسكريين الذين اقترحوا اللجوء مرة أخرى إلى الاتحاد السوفيتى طلبا للمساعدة...

فى ربيع عام ١٩٧٣ أزاح السادات عزيز صدقى من منصب رئيس الوزراء، كما أزيح عبد السلام الزيات من كل المناصب الحكومية التى كان يشغلها وأصبح السادات هو رئيس الدولة ورئيس الحكومة، بل و "الحاكم الأعلى".

وفى نفس صيف هذا العام، إذا به "يطالب" فجأة، أقول يطالب، إذ لا توجد كلمة أخرى تصف تصرفه هذا، بحضور الرفيق أندروبوف رئيس لجنة الأمن القومى (كى. جى. بى) إلى القاهرة. لم يوضح لنا الأسباب، وإنما طالب بحضوره هكذا ببساطة، وكأنما يستدعيه ليقدم له تقريرا، ولما لم يصل رد، بدأ السادات فى العصبية. دعانى أحمد إسماعيل علىّ وزير الحربية للقائه. كان مهتما أيضا بعدم وصول الرد. أجبته بأننى لا أعرف السبب، ولكننى لفت انتباهه إلى أن الدعوة لم ترسل لا عن طريق السفير السوفيتى لدى القاهرة، ولا عن طريق السفير المصرى لدى موسكو، وإنما، كما نما إلى علمى، أرسلت بخطاب شخصى من وزير الحربية، وقلت : إنه قد يكون من الضرورى ربما إرسال استعجال، وقد يكون من المفيد أيضا إحاطة الرفيق أندروبوف علما بسبب دعوته للحضور إلى القاهرة. قال الوزير إنه يفهم ذلك جيدا ولكن الرئيس مهتم بشدة بحضوره، وأضاف قائلا : إن أمرا ما على جانب كبير من الأهمية سوف يقع قريبا فى مصر، وأنكم، أيها الشيوعيون فى الاتحاد السوفيتى، لن تفهموه على وجهه الصحيح. وبالإضافة إلى ذلك، هناك عدد من القضايا المتعلقة بالوضع فى مصر، وهى ذات صلة بعمل هذه المؤسسة التى يرأسها الرفيق أندروبوف. أبديت دهشتى بالطبع، لكن وزير الحربية أشار بأنه تحدَّث إلىّ أكثر مما ينبغى له أن يتحدث فى هذا الأمر. وانتهى الحديث.

لقد قرر السادات، بشكل واضح، أن يصل فى استفزازه إلى أقصى درجة: يدعو زعيما سوفيتيا بارزا، ثم يعلن له عن إقصائه عددا من رجال الدولة التقدميين فى مصر من مناصبهم، وفى نفس الوقت يقدم له "ادعاءاته" المختلفة حول زعمه بأن "رجال أندروبوف" هم الذين يقفون وراء العديد من مظاهرات العمال والطلبة والمثقفين التقدميين، كما كان يحلو له أن يسميهم. كانت تصرفات السادات تجاه الفئات التقدمية تبدو كما لو كانت موجهة للاتحاد السوفيتى، وكان باستطاعته دائما أن يستند إلى أنه قد أحاط الاتحاد السوفيتى بها علما.

لم يأت الرفيق أندروبوف بالطبع إلى القاهرة، لكن السادات ظل يذكِّرنى فى كل مرة يلتقى بى فيها بأنه كان يريد أن يلتقى بواحدٍ من أعضاء المكتب السياسى للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى بزعم ضرورة إجراء مشاورات مع الزعماء السوفيت، وأنه متعطش للمقابلة، ولكنهم رفضوا السماح بإجراء المقابلة. وراح السادات يؤكد أن كل ذلك يمثل خطا سياسيا عدوانيا جديدا من جانب الاتحاد السوفيتى فى علاقته بمصر وهلم جرا.

تلقيت بعد عدة أيام تعليمات من موسكو تفيد سفر نيكولاى بودجورنى رئيس مجلس السوفيت الأعلى إلى مصر بناء على طلب السادات. ما أن تلقيت هذا الإعلان حتى شعرت لسبب ما أن أمرا غير عادى لابد وأن يحدث. وبينما أنا فى طريقى إلى الرئيس لإبلاغه قلت مازحا لرفاقى إننى أستطيع أن أزعم أن الرئيس سيرفض هذه الزيارة. ضحك الرفاق وبدا لهم أن هذه الفكرة مستحيلة لأنها تخالف اللياقة؛ فضلا عن خرقها للأعراف السياسية. المسألة أن هذه الزيارة جاءت بالمناسبة عشية زيارة ليونيد بريجينيف إلى واشنطن، وهو أمر من شأنه أن يدعم بقوة موقف مصر والاتحاد السوفيتى فى النضال الذى يخوضانه من أجل تسوية الوضع فى الشرق الأوسط، كما أن هذه الزيارة كان من شأنها أن تعطى مثالا للتقارب فى العلاقات بين الاتحاد السوفيتى ومصر، وهو ما كان يمثل ضرورة سواء لنا أو للمصريين قبيل هذه المقابلة. باختصار فقد كانت هذه الزيارة من الناحية الشكلية بدعوة من السادات، وهى من ناحية الجوهر تأتى عشية لقاء القمة السوفيتى الأمريكى الجديد، وهى زيارة تعبر عن الاحترام (زيارة رئيس دولة) مما لايدع مجالا للشك أنها تأتى فى وقت حاسم تماما وأنها مبشرة بالنجاح. على أننى رحت أفكر طوال الطريق إلى القناطر، والذى يستغرق أربعين دقيقة تقريبا فيما لو أن السادات رفض فجأة إتمام هذه الزيارة. أمر مستحيل. لكننى فكرت فيه، وكان حدسى يدعمنى فى ذلك...

بعد أن أبلغت السادات بالوصول المرتقب للضيف السوفيتى الكبير، راح السادات يتنفس بصعوبة، وبعد أن عرضت عليه مضمون الرسالة أضفت من عندى قائلا: إن هذه الزيارة، من وجهة نظرى، سوف تُعد ضربة موفقة لكل من يرغب فى المماطلة فى الوصول إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط ولكل خصوم مصر، وخاصة أنها تأتى عشية لقاء القمة السوفيتى الأمريكى.

راح السادات يعبر عن الألم بكل قسمات وجهه، وفى النهاية راح يثرثر، دون أن يعرب عن امتنانه لهذا الخبر أو أن يشيد بقرار حكومتنا، وإنما قال لىّ دون مواربة إنه يطلب منى أن أبلغ موسكو بأنه لن يستطيع استقبال الضيف السوفيتى الكبير لأنه مريض، ليس مريضا تماما، وإنما يشعر بوعكة، وأنه منهك، وأنه لابد أن يكون مستعدا تماما لكى يجرى مباحثات مع الضيف السوفيتى، ثم أردف قائلا: انظر إلى حالتى، محاولا أن يتشكى وقد رسم على شفتيه ابتسامة متكلفة.

كنت غير مستعد لهذا الانقلاب، فقد كان مفاجأة لى على أية حال، ولكنها مفاجأة ليست من العيار الثقيل.

أعربت عن تعاطفى مع السادات وقلت له إن عليه أن يعتنى بصحته وأن يخضع للعلاج والراحة وأنه بالنسبة لهذه الحالة من الإجهاد يكون لقاء أصدقاء طيبين أمرًا مفيدًا للغاية أحيانا، فهم يزيحون الهم عن صدره عند تبادل الحديث معهم، أما حل القضايا المعقدة فيمكن الإعداد له تدريجيا مُقدما، إذا لزم الأمر بالطبع، إذ يمكن عقد اللقاء حتى دون الوصول إلى قرارات جبارة. مرة أخرى أعود إلى أفكارى لأتخيل على أى نحو سوف يكون رد فعل موسكو على رسالتى التى سأخبرهم فيها بأن السادات قد رفض الزيارة! وهل فكر السادات نفسه فى هذا الرد مسبقا، أم تراه اتخذه فى هذه اللحظة عفو الخاطر؟

مرة أخرى يلتقط السادات أنفاسه فى أسى ويقول لى إنه يحس بالضعف إلى حد أنه لن يكون باستطاعته استقبال الضيف رفيع المقام.

عندئذ خطرت برأسى فكرة أخرى: قلت للسادات إن كان من الضرورى أن يأتى البروفيسور تشازوف إلى مصر وهو الطبيب الخبير بحالة الرئيس الصحية وقد يكون بإمكانه تقديم المساعدة له.

هنا أحس السادات أنه من غير اللائق أن يرفض هذه المرة وخاصة أن الأمر يتعلق بصحته على أية حال. تمتم السادات قائلا: حسنا، سوف أكون ممتنا إذا ما سمحت الحكومة السوفيتية بإرسال البروفيسور تشازوف إلىّ، وأضاف: إننى مهتم بالأمر وسوف أكون مستعدا للقائه فى أى وقت مناسب...

هذا مثال آخر على علاقة السادات بالاتحاد السوفيتي. على أي نحو يمكن حساب هذه العلاقة؟ الرجل لم يكن مريضا بالفعل، فها هو يذهب في اليوم التالي على لقائنا سابق الذكر إلى الجبهة مباشرة، حيث دخل إلى الخنادق ثم عقد لقاء مع الجنود والضباط. باختصار فقد أظهر من الصحة والعافية ما يُحسد عليهما. بالمناسبة، لم يجد البروفيسور تشازوف، الذي وصل إلى القاهرة، أي أعراض تشير إلى تدهور حاد في صحة الرئيس بالطبع. وحتى هذا اللقاء جرى على نحو أشبه ما يكون بمشهد من مشاهد المسرحيات الهزلية.

لقد طلب السادات أن يحضر إليه تشازوف فور وصوله مباشرة قادما من موسكو، ولم تكن الحالة الصحية للرئيس تستدعي أي عجلة، وإنما كان يريد أن ينتهي ببساطة من تبعات قراره الخاطئ باستدعاء الطبيب. عند وصول تشازوف لم يجد بانتظاره أية تحاليل أُجريت للرئيس على الرغم من أنه كان من الطبيعي أن يجري الرئيس ولو رسما للقلب أو تحليلات للدم وما إلى ذلك. قدموا لتشازوف رسما للقلب أُجري قبل ستة أشهر وتحليلا للدم أُجري قبل ثلاثة أشهر!

عندما قرَّر السادات البدء في العمليات العسكرية ضد إسرائيل في أكتوبر ١٩٧٣، كان يعوِّل، في رأيي، على أن يتصرف الاتحاد السوفيتي على نحو غير الذي اتخذه الاتحاد السوفيتي فعلاً. كان يفترض أن الاتحاد السوفيتي على الأرجح سوف يسعى لدعم مصر بطبيعة الحال، ولكنه سيحاول أن يوقف العمليات العسكرية بأسرع ما يمكن بالطبع، وأن يتجه لعقد "صفقة" مع الولايات المتحدة الأمريكية، وعندئذ تكون يداه مطلقتين في التعامل مع الأمريكيين. لكن الأمور سارت على نحو آخر. لقد كان موقف الاتحاد السوفيتي إبان هذه الحرب هو دعم القضية العادلة للعرب. واتضح، وهو ما أدهش السادات نفسه، أن القوات المسلحة المصرية وصلت إلى أعلى مستويات الإعداد بفضل الخبراء والفنيين، أما المفاجأة الأكبر بالطبع فكانت في الكفاءة الرفيعة والقدرة العالية للمعدات العسكرية السوفيتية التي يتسلح بها الجيش المصري.

عندما بدأت العمليات العسكرية، لم يكن بنية السادات على الإطلاق أن يحاول إنهاء الصراع في الشرق الأوسط أو أن يجبر إسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية

المحتلة. كلا، إنما كان هدفه أقل من ذلك بكثير وأكثر محدودية، وقد أخبرنى بهذا الهدف بعد يومين اثنين من نشوب الحرب.

كان هدف العمليات العسكرية من الناحية السياسية يتلخص فى، أقولها مجازا، مجرد "تحريك الوضع" وجذب الانتباه إلى الصراع الذى طال أمده وإجبار العالم على أن يتذكر الوضع المستعصى على التسوية فى الشرق الأوسط ودفع القوتين العظميين، أولا وقبل كل شىء، إلى التأثير فى الأحداث. كانت هذه الخطوة تستهدف أساسا جذب الولايات المتحدة الأمريكية إلى استخدام نفوذها.

كل الدلائل كانت تشير إلى أن السادات لم يكن ليتوقع هذا القدر من النجاح الذى أحرزته قواته فى العمليات، والتى استطاعت بسرعة وبأقل الخسائر عبور قناة السويس ثم لتتوقف دون أن تعرف ما الذى عليها أن تفعله بعد ذلك. وهكذا لم تواصل هذه القوات هجومها على الرغم من أنه لم يكن أمامها، لفترة من الزمن، عدو بالمعنى الحقيقى. كان الأمر يتلخص فى أن السادات، كما شرح لىّ بنفسه، لم تكن لديه النية فى استعادة الأراضى المحتلة. فالهدف من الناحية العسكرية كان ينحصر فى مجرد إنزال ما يمكن إنزاله من خسائر مادية وبشرية بإسرائيل، والتلويح بما تملكه القوات المسلحة المصرية من قدرة اليوم، ومن ثم، إلى ما تستطيع فعله فى المستقبل.

أما الهدف من الناحية الإقليمية، إذا جاز القول، فكان الاستيلاء على ممرات سيناء. (متلا والجدى)، وهو ما لم يتحقق؛ فضلا عن أن المصريين فى الأيام الأخيرة من العمليات العسكرية سمحوا بحدوث ثغرة نفذت منها القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة، وأصبح النصر الذى حققه المصريون معلق بشعرة. ومثلما أسهمت مساعدات الاتحاد السوفيتى فى نجاح القوات المصرية فى الأيام الأولى للحرب، أنقذت الخطوات الحاسمة التى اتخذها السوفيت تحديدا مصر من هزيمة وخيمة فى تلك الأيام العصيبة التى مرت بها.

لقد تسنى لىّ أن ألتقى بالسادات إبان الحرب بصفة يومية، بل وكثيرا ما كنت ألتقيه عدة مرات فى اليوم الواحد وفى أوقات مختلفة نهارا أو ليلا، فجرا أو فى ساعة متأخرة من الليل.

لقد بدأ السادات الحرب، وعلى عكس وعوده المتكررة، دون مشاورة مع الاتحاد السوفيتي، بل وحتى دون إنذار حقيقى، وإنما أخبرنى بالأمر فى صباح السادس من أكتوبر فقط، عندما أبلغنى بأنه يود بشدة أن نلتقى خلال الساعات القليلة المقبلة، إذ "ربما تقع أحداث عظام". ولكنه استدرك قائلا: ولكنك، للأسف، قد تكون فى السفارة على ما يبدو لكى تكون على اتصال بموسكو. بالمناسبة، كان السادات يتحدث معى قبل أيام قليلة عن قيام إسرائيل بعمليات استفزازية، وأنه من المحتمل وقوع أحداث ضخمة. عندئذ سألته إن كان يود أن يبلغ الزعماء السوفيت عن التطورات المتوقعة للأوضاع وعن تلك الأحداث التى قد تقع. هنا أجابنى السادات بقوله: سوف أخبرك بذلك "فى حينه". ولكنه، كما رأينا، لم يخبرنى بشىء.

فى الثالثة من ظهر السادس من أكتوبر اتصل بى السادات على الهاتف العادى المباشر فى مقر السفارة. كان أمرا غير معتاد. لم يتصل بى السادات مطلقا من قبل هاتفيا، ناهيك عن أن يتصل على الهاتف العادى، حتى إننى ظننت فى البداية أن فى الأمر لغزا ما. ولكن الأمر كان صحيحا. كان الصوت الذى أسمعه عبر الهاتف صوتا مألوفا ولكنه كان صوتا مفعما بالفرح والانتصار. "سفير (قالها بالعربية)، قواتنا الآن على الضفة الشرقية للقناة! ورايتنا الآن منصوبة على الضفة الأخرى!". هكذا بدأت الحرب.

كان السادات قد أوصى بوضع هاتف خاص بى فى السفارة للاتصال الحكومى من طراز ذى أرقام محدودة خاصة بالمقربين. ولم يكن لدى وزير الخارجية نفسه مثل هذا الهاتف. كان كثيرا ما يتصل بى للتحدث فى شؤون العمل دون مراعاة للوقت، وأحيانا ما كان يتحدث فى الثالثة بعد منتصف الليل. وكنت أبلغه بالأمور العاجلة والطارئة عبر هذا الهاتف. لكن معظم لقاءاتنا كانت ذات طابع شخصى بطبيعة الحال، وخاصة فى تلك الأيام التى كانت تتاح له الفرصة أن يلتقينى فيها وجها لوجه دون حاجة للانتظار.

ما أن بدأت العمليات العسكرية حتى انتقل السادات للإقامة فى قصر الطاهرة بمنطقة هليوبوليس. وكنت أقطع إليه المسافة بالسيارة فى حوالى ٢٥ دقيقة. كان السادات يرتدى آنذاك الزى العسكرى، وكان يحاول أن يتحدث بشكل واضح وباقتضاب. عموما

كان السادات يتميز بقدرته على صياغة أفكاره على نحو واضح ومعبر، وكثيرا ما كان ينتقل للحديث بالإنجليزية عندما يكون نافد الصبر، على الرغم من أنه كان عادة ما يفضل الحديث معى باللغة العربية من خلال مترجم. وقد كان المترجمون دائما من السوفيت، إذ لم يكن من بين المصريين مترجمون ثقاة يجيدون اللغة الروسية. لم نكن بحاجة بطبيعة الحال إلى مترجمين عندما كنا نتبادل الحديث بالإنجليزية. كان السادات ينطقها بشكل جيد لابأس به، وعلى الرغم من أن مخزون الكلمات لديه كان محدودا، إلا أنه كان يُوظفه بشكل سليم. كان الحديث بالإنجليزية لمدة نصف ساعة تقريبا كافيا جدا بالنسبة له وإلا يتسلل إليه الملل بسرعة.

فى لقاءاتنا الأولى كان لدى السادات قدر كبير من التحفظ تجاهى. وعندما اقتنع بالدعم المخلص النزيه والملموس من جانب الاتحاد السوفيتى، أصبحت علاقته بى جيدة للغاية وأحيانا ما كانت الأمور تبدو فى الواقع وكأن عصرا جديدا من العلاقات بين البلدين قد تم تدشينه وأن الرئيس كما لو كان قد تغير تماما. وقد أخبرنى عدة مرات بنفسه أن صفحة جديدة رائعة قد بدأت فى العلاقات بين بلدينا، وأن مصر مدينة لأبعد الحدود للاتحاد السوفيتى، وأنه "سيأتى اليوم" الذى سيحكى فيه عن هذه المواقف الشجاعة للاتحاد السوفيتى بملء فيه. الحقيقة أننى لم أتماسك عندئذ وسألته ولماذا لا يحكى الآن للجميع عن هذه المواقف التى اتخذها الاتحاد السوفيتى. لم يجب السادات وإنما نوّه قائلا: "لا يزال الوقت مبكرا، ولكنه سيأتى". من الواضح أن تصرفى كان غير متوقعا بدرجة ما، حتى إننى أحسست أنه شوش على أفكاره بشكل أو بآخر، وإن كنت قد رأيت أن تصرفى قد حظى بإعجابه.

إبان العمليات العسكرية أحاطنى السادات علما بالاتصالات التى قامت على الفور بينه وبين الأمريكيين. الحقيقة أن ما أمدنى به من معلومات لم يكن مُوثّقا وإنما كان يُقدَّم إلىّ من وجهة نظره فقط، أو بناء على عرض مساعديه لفحوى هذه الاتصالات، وعلى أى حال فقد كانت هذه المعلومات على قدر كبير من الأهمية. لم يكن السادات يتحدث إلىّ قبل ذلك بمثل هذه الصراحة، ومن بين المعلومات التى ذكرها أن الأمريكيين تقدموا إليه باقتراح أن يقوموا بخدمات الوساطة، على الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية، فى واقع الأمر، كانت تحارب مصر!

وقد لفَتُّ انتباه السادات إلى ذلك ونصحته بأن يقدم للأمريكيين اقتراحا بالتشاور مع الاتحاد السوفيتى، حيث بات واضحا فى هذه الفترة إمكانية العمل السوفيتى الأمريكى المشترك فيما يتعلق بالصراع العسكرى. لكن السادات لم يُجب بشىء.

أصبحت العلاقات مع السادات جيدة إلى حد النجاح فى الحصول على بعض المكاسب. بل إن السادات كان يطلب رأيى أحيانا فى هذه أو تلك من الخطوات السياسية. وكان عدد من المقربين منه ينقلون إلىّ أن الرئيس "راضٍ" للغاية عن السفير السوفيتى، وهو ما كان ينقله إلىّ أيضا بعض الذين كانوا يترددون عليه. كان ذلك فى الواقع زمنا طيبا، على الرغم من أننى كنت أحصل على ساعات قليلة من النوم لاتتجاوز ثلاث أو أربع ساعات فى اليوم، أما باقى اليوم فكان مليئا بالتوتر الشديد.

واستنادا إلى آراء الجميع، كان السادات يعلم على أية حال القليل عما كان يحدث فى الواقع على الجبهة. وكثيرا ما كان يجيبنى، عندما كنت أسأله عن آخر المعلومات، بقوله إنه لايعرف شيئا حتى الآن، حيث إنه لم يتلق مؤخرا معلومات من مركز القيادة. فى الواقع أننى كنت أخبره فى بعض الأحيان بوقوع بعض الأحداث على الجبهة كان رفاقنا يحصلون عليها من الأركان العامة للجيش قبل أن تصل إلى السادات. لم يكن السادات يهتم أحيانا بأن يكون على علم بكل التفاصيل. كان الاتجاه العام لديه أن الحرب ليست شأنا عاما، وإنما هى، إذا جاز القول، مسألة احترافية، "عمل" يختص به العسكريون، وهؤلاء يعرفون ما يعملون وما الذى ينبغى عليهم عمله. وكثيرا ما كان يرد على أسئلتى بشأن تصوراته عن سير الأمور بأن هذا من عمل العسكريين، وأنهم هم الذين يضعون الخطط والذين يعرفون كيف ينبغى عليهم تنفيذها.

وهذا ما حدث تماما عندما أحدث الإسرائيليون الثغرة فى نهاية أكتوبر. لفَتُّ انتباه الرئيس إلى الثغرة وطلبت منه حرفيا سرعة تدخل قوات كبيرة للقضاء على هذا الوضع الخطير حتى لايتحول إلى تهديد كبير، واستندت فى ذلك إلى رأى الأصدقاء فى موسكو. لكن جهودى راحت هباءً. راح السادات يهدئ من روعى متحدثا بتلك النبرة الواثقة قائلا: "لا تقلق، قل لهم فى موسكو أن يناموا فى هدوء، إن عسكريينا يعلمون ما الذى ينبغى عليهم عمله".

مازلتُ أذكر جيدا كيف استدعانى السادات ليلة الحادى والعشرين من أكتوبر وتحدث إلىّ بالإنجليزية ليطلب منى أن أبلغ ليونيد بريجينيف على الفور ضرورة العمل على وقف إطلاق النار وقال لىّ: "إننى أستطيع أن أحارب إسرائيل، ولكننى لا أستطيع أن أحارب الولايات المتحدة الأمريكية". كانت هيئته مثيرة للأسى وكان زيه العسكرى مكرمشا. أين ذهب مظهره الواثق وأقواله الحصيفة ونبرته السلطوية؟ لقد حدث بداخله على الأرجح شيء لايمكن تصديقه فهو الآن يطلب!

لقد حاولت، بطبيعة الحال، أن أكون شديد الاهتمام، عطوفا ولطيفا تجاه السادات. أسرعت إلى السفارة حتى أستطيع أن أبلغ موسكو على وجه السرعة بهذا الطلب. ومرة أخرى كان علىّ أن أعود سريعا لمقابلة الرئيس لأشرح له عددا من التفاصيل المهمة. عندما هاتفت الرئيس أجابونى بأنه نائم! كنتُ متوترا بشدة: إنهم مستيقظون الآن فى موسكو والرئيس هنا ينام فى هدوء. رفض الياور أن يوقظ الرئيس، لكننى كنتُ مُصّرا وأخبرتهم أن الأمر عاجل للغاية.

وصلتُ إليه مع خيوط الشمس الأولى. خرج إلىّ من غرفة نومه فى روب وردى اللون. كان قد أخذ قسطا وفيرا من الراحة. بدا منتعشا لايبدو على وجهه أى أثر يشى بالكارثة التى تكبدها بالفعل. بل إنه كان مرحا يفيض بحيوية. وافق على كل ما اقترحته عليه وما طلبته منه. كان من الواضح أن الحرب قد انتهت بالنسبة له، وأن على الآخرين أن يُصلحوا ما أفسده هو.

والآن، أعود بذاكرتى أيضا إلى العناد الذى أبداه السادات عند لقائه بألكسىّ كوسيجين عندما حضر إلى القاهرة فى السابع عشر من أكتوبر إبان العمليات العسكرية لكى يقنع الرئيس بضرورة العمل على وقف إطلاق النار واستغلال الوضع العسكرى والسياسى الجيد الذى تحقق بعد الأيام الأولى من الحرب، لكن السادات بحكم شخصيته، وربما، بناء على حساباته، عارض هذا الاقتراح، بل وقال بلهجة أكثر ثقة إننا نريد أن نحرمه من النصر. باختصار، كان يتصرف كأن الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون غير موجودة، وكأن القوات المصرية تقف عند حوائط القدس! لاشك أن السادات لا يتذكر الآن

هذا الحديث الذى ظل خلاله متشبثا بطلب "ضمانات" سوفيتية أمريكية لانسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضى المحتلة كافة.

لم ألتق بالسادات بعد ذلك. كانت المرة الأخيرة التى تقابلنا فيها فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩٧٣ عندما راح يحاول أن يستكمل ما بدأه فى علاقاته بالأمريكيين وانعطافه الحاد فى اتجاه الولايات المتحدة الأمريكية. كان واضحا أنه قد أدرك أنه لن يجد لحظة أكثر مؤاتاة من هذه اللحظة، بعد أن بلغت هيبة الاتحاد السوفيتى فى مصر وفى البلاد العربية الأخرى ذروتها، فى تلك الظروف التى لم يُعلن فيها بعد عن الدور النبيل الذى قام به الاتحاد السوفيتى فى الحرب التى خاضتها مصر فى أكتوبر! ما الذى كان ينبغى أن يحدث بعد ذلك؟ كان عليه أن يذكر الحقيقة. لكن السادات قرَّر عمدا أن يهيل التراب على هذه العلاقة. ودون أن يحيط الاتحاد السوفيتى علما، حوَّل دفته باتجاه الولايات المتحدة. أرسل إسماعيل فهمى إلى واشنطن، ثم استقبل كيسينچر بكل حفاوة. وافق على الوساطة الأمريكية وأعاد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية. امتنع عن إبلاغنا بالمعلومات الخاصة باتصالاته بالولايات المتحدة... وفى نفس الوقت راح يغرقنا بطلباته حول سرعة إرسال صفقة ضخمة من الطائرات، بل إنه توجه بهذا الطلب تحديدا بعد أن وضعت الحرب أوزارها. ظل يهاتفنى يوميا، دون حاجة ماسة لذلك، ليكرر على مسامعى النغمة القديمة أن الاتحاد السوفيتى قد غيَّر سياسته نحو مصر وهلم جرا. وعندما سألته عن السبب الذى يجعلنا نُغير سياستنا وقد تفاقمت علاقتنا بالولايات المتحدة الأمريكية إلى حد أنها أعلنت حالة التأهب القصوى فى جميع قواعدها فى الخارج، لم يستطع السادات أن يرد. ببساطة، لم ينبس ببنت شفة.

جاءت بعد ذلك مرحلة التعاون بين السادات والولايات المتحدة الأمريكية. مرحلة التعاون العلنى دون تحفظ أمام أعين الجميع، لتبدأ منذ هذه اللحظة الرحلات المكوكية لكيسينچر إلى القاهرة ثم لتتلوها زيارة نيكسون. لم يكن الأمر ليمر بطبيعة الحال دون التشهير بالاتحاد السوفيتى ودون سيل من الأكاذيب وأنصاف الحقائق اعتمادا على أننا لم نكن لنخوض على الملأ فى جدال مع رئيس مصر بشأن هذه القضايا. وفى هذا السياق، جاءت الإفتراءات مباشرة فى حق السفير الروسى، الذى زعموا أنه كان ينقل للرئيس

معلومات مغلوطة حول الوضع فى سوريا وطلبات الرئيس السورى للقيادة السوفيتية. كان السادات يُوجِّه كل هذه الاتهامات معوِّلا على أن الجماهير العريضة لن تُخمن أن أى سفير يقدم للرئيس المعلومات بناء على تفويض من حكومته وأنه لايمكنه أبدا اختراع المعلومات. وقد وصل الأمر بعد ذلك إلى حد أن السادات أعلن صراحة أن على مصر أن تعتمد على الولايات المتحدة لتسوية الصراع فى الشرق الأوسط. وقد أخبرنى دبلوماسيون يعملون فى القاهرة أن الرئيس قرَّر "أن يضع البيض كله فى سلة واحدة"، وأنه بات يتصرف مثل مقامر متهور وهو فى كل ذلك لا يمتلك أى قدر من اللياقة.

على مدى وجودى فى القاهرة لمدة أربعة أعوام، بوصفى سفيرا، صادفت، بطبيعة الحال، مواقف شديدة الحرج. لقد تسنى لىّ أن أرى الرئيس تارة سعيدا وتارة حزينا. تارة صادقا وتارة يقول بهتانا واضحا. رأيته منضبطا، كما رأيته ثملا. رأيته فى أحوال شتى، وكنت شاهد عيان على كل المباحثات التى أجراها مع الزعماء السوفيت. شهدت سياسته فى تقريب الناس منه، ثم التنكيل بهم بعد ذلك. كان السادات يعرف أن سفارتنا على علم تام بالوضع فى البلاد، وأنها على الأرجح تبلغ موسكو بذلك. كان السادات يرى كفاءة السفارة فى التعامل مع مختلف القضايا، السياسية والاقتصادية والعسكرية أيضا بدرجة لا تقل عن غيرها من القضايا. وانطلاقا من ذلك كان من الصعب عليه أن يكذب علىّ أو على الزعماء السوفيت. ولذلك، وبسبب شخصيته، لم تكن سفارتنا تعجبه.

لم تكن علاقته الشخصية بى سيئة، وما يكتبه الصحفيون الأمريكيون فى هذا الصدد عنى هو محض افتراء من وحى خيالهم، وباستثناء هذا الحديث، الذى دار بيننا عندما أبلغنى بلهجة مهينة عن قراره بطرد العسكريين السوفيت من مصر، واضطررت آنذاك أن أرد على نحو حازم، وإن ظللت محتفظا بقدر كبير من التماسك وضبط النفس، كانت كل أحاديثى معه ودية، وإن لم يكن السادات، على الأرجح، سعيدا بهذه الأحاديث، فالسادات لم يكن بإمكانه أن يبلغنى بأية أكاذيب عن العلاقات السوفيتية المصرية أو عن أية قضايا أخرى. كان يشعر بذلك غريزيا. أزعم، باختصار، أننى كنت أعرف السادات على نحو جيد. بل أقول على نحو غير مسموح به بالنسبة لسفير. ولو كان الرئيس شخصا آخر مختلفا من ناحية التعليم والثقافة، وربما من ناحية الشخصية، لكان من الممكن أن

يكون هذا التوصيف من جانب السفير السوفيتى، على العكس من ذلك، مناسبا، ولكن ليس بالنسبة للسادات.

لم يكن السادات يحب التعامل مع السوفيت. ولم أنجح مطلقا، على سبيل المثال، أن أقنعه أن يستقبل ولو لمرة واحدة كبير المستشارين العسكريين السوفيت ليقدم له تقريره. بينما كان ناصر يستقبل العسكريين السوفيت كثيرا وكان يُقدِّر عن حق قيمة المعلومات التى يقدمونها بصورة ودية مستقلة عن الوضع داخل القوات المسلحة. لم يُدْلِ السادات مرة واحدة بحديث للصحفيين السوفيت، مع أنه كان يستقبل برضا تام الصحفيين والمراسلين الغربيين وخاصة الأمريكيين.

سوف أتعرض فيما يلى بالحديث قليلا عن الصفات الشخصية للرئيس. يتضح من محاولاتنا السابقة لرسم صورة السادات الرئيسية إلى أى حد من الصعوبة يمكن التعامل مع زعيم من هذا الطراز. كان السادات يتعامل مع الأمور بسطحية شديدة عندما يتحدث عن مصالح الشعب. بينما يتغاضى عن الحديث عن أعداء الشعب العمال المُمَثَّلين فى البرجوازية المصرية. وكان يحاول أن يجمع بين أمرين متناقضين فى آن واحد، وهو تصرف غير مأمون العواقب، ولذلك كان يسعى لتحقيق أمانه الشخصى قدر استطاعته.

- ٤ -

إن الصفات الشخصية لأى رجل دولة لها دور كبير، بطبيعة الحال، فى تحديد أفعاله وتصرفاته. وهى تضفى عليه ظلالا خاصة ينبغى وضعها أيضا فى الاعتبار. وحتى فى وجود ديموقراطية برجوازية على نحو أو آخر، حيث نجد ما يشبه اتخاذ القرارات على نحو جماعى، وبهذه الصفات الشخصية لرجل الدولة يكون لها دور كبير عند اتخاذ هذه القرارات، حتى فى وجود رجال دولة آخرين يفترض أنهم يشاركون فى تحمل جزء من مسئولية اتخاذ هذه القرارات بصورة ما.

وفى دولة ذات مكانة كبيرة مثل مصر الحديثة، يمتلك الرئيس فى الواقع سلطات لا حدود لها، وهى سلطات لا يشاركه فيها عمليا أحد. فإذا سارت الأمور على نحو حسن تظهر هنا "حكمة" الرئيس المسئول عن القرارات التى اتخذها، أما إذا كان الخطأ فادحا فسيتم العثور على شخص ما آخر تُلقى على كاهله المسئولية. ومن ثم فإن الصفات الشخصية للرئيس المصرى فى دولة لم تتحول بعد إلى حتى ما يشبه الديموقراطية، يكون لها دور مبالغ فيه، سواء تشاور مع أحد ما أم لم يتشاور، فإذا لم يجد مناصا من التشاور فإنه يختار بنفسه من يتشاور معه.

لا توجد بالطبع رقابة على تصرفات الرئيس سواء من البرلمان أو من الاتحاد الاشتراكى العربى. يكفى أن نتذكر فى هذا السياق كيف تعامل السادات مع الناصريين الذين أرادوا تقديم النصح له والتأثير عليه. ووفقا للقواعد المعمول بها فى مصر، فإن توجيه النقد لتصرفات الرئيس يُعد خيانة للدولة. ذات مرة، عندما أثارت التصرفات القمعية للرئيس تجاه الشباب اضطرابات كبيرة فى البلاد، ألقى السادات خطابا تحدث فيه عن وجود ... ديموقراطية فى البلاد. وقال، وقد ارتسمت على وجهه مظاهر الجدية دليلاً على صواب فكرته، أن التفكير فى أى شىء أمر مسموح به فى البلاد. وأضاف الرئيس أن أى عمل ينبغى أن يكون مؤيدا للرئيس، أما ما يجرى التفكير فيه فينبغى أن يظل فى رأس كل من لا يتفق مع السلطة! هذه هى الديموقراطية على الطريقة الساداتية.

لقد تحدثنا آنفا عن العقيدة السياسية عند السادات، وهى الشىء الرئيسى الذى يحكم تصرفاته ومنهجه.

والآن نتحدث عن بعض السمات الشخصية المهمة للرئيس بوصفه رجل دولة.

لقد ترسخ لدىّ اقتناع عميق أن السادات قد تأثر بشدة من جراء تلك العلاقة التى عايشها مع "رفاقه" الآخرين أعضاء مجلس الثورة، إذا جاز التعبير. ومن المعروف أن معظم هؤلاء الرفاق كانوا يتعاملون معه دائما بشىء من التجاهل والسخرية، ربما فى سياق علاقة الصداقة. لكن كثيرا من الناس فى مصر أخبرونى أن السادات قد عانى بشدة

بسبب هذه المعاملة تحديدا. ومن الواضح أن هذا الأمر انعكس فى هذه الرغبة النفسية لدى السادات أن يصبح دائما "أعلى من مُحدثه"، مادام وضعه الحالى يسمح له بذلك.

لقد تولد لديه بسبب ذلك شعور هائل بالارتياب وعدم الثقة إلى حد الوسواس، حتى أنه يغضب بسرعة وعلى نحو عاصف عندما لا يدرك، على سبيل المثال، المغزى من وراء نكتة من النكت. عموما لم يكن السادات من الذين يحبون النكات أو يحكون المُلَح والنوادر. أنا نفسى، على سبيل المثال، لم أسمع منه مرة واحدة حكاية مضحكة أو مقارنة ساخرة. ببساطة لم يحك نكتة أمامى، كما أن ذلك لم يحدث أثناء لقاءاته بالزعماء السوفيت. عمليا لم يكن بمقدور السادات أن يضحك، وإنما كان يفتح فمه ويرفع صوته قائلا: "ها - ها - ها!". وعندما يبتسم فإنه يحرك فمه مبتسما ويهز شاربه، أما عيناه فلا تجد فيهما أثرا للضحك أو الابتسام.

من هنا سعى السادات بكل طريقة لتجنب تلك المواقف التى قد يستشعر فيها أنه "ليس على القمة"، إذا جاز القول. وهنا تحديدا ما يفسر خوفه من الأحاديث الصريحة مع الزعماء السوفيت، وخاصة إذا كان هناك نفر آخرون يحضرون اللقاء. كان يتحفظ بشدة، بحيث يدرك المرء على الفور دون إرادة منه أحاسيسه، أحاسيس رجل فى مرمى النيران. ولهذا كان السادات يفضل أن يتحدث مع الآخرين فى الأمور المهمة على انفراد دون شهود لا حاجة له بهم.

فى أحاديثى معه، والتى كان يرتبها لى بالطبع على نحو مختلف عن الأحاديث التى كانت تدور مع الزعماء السوفيت، كنت بالنسبة له مجرد سفير لا أكثر، شخص أقل رتبة. كان الرئيس يحب أن يطرح فكرته من أعلى. أن يفرض رأيه قسرا، وليس عن طريق الإقناع.

ولم يكن الرئيس يميل، على سبيل المثال، أن تساق إليه حجة مضادة، وقد لا تتعارض هذه الحجة كثيرا مع حججه هو نفسه، وإنما تكون قد جاءت فى سياق المناقشة على سبيل توضيح فكرته ذاتها على نحو أفضل. لم يكن يرغب إطلاقا فى الجدل ولو لتوضيح جوهر الأمر، ناهيك عن الاختلاف، ولهذا كان عنيدا.

كان ناصر أيضا لا يحب أن يعارضه أحد، لكنه كان يسمح بالجدل على نحو ودى. فى مارس من عام ١٩٧٠ كُلِّفتُ بالذهاب لمقابلة ناصر فى مهمة شديدة الحساسية — أن أحاول إقناعه بوقف إطلاق النار، الذى كان دائرا بعنف من جانب المصريين فى الفترة التى عُرفت آنذاك "بحرب الاستنزاف". لم يتكبد الإسرائيليون فى الواقع أية خسائر من جراء هذا الإسراف الهائل فى قصف القنابل من جانب المصريين، فى الوقت الذى كانوا يتعرضون فيه هم أنفسهم لضربات شديدة من الطيران الإسرائيلى فى العمق، حيث كان المصريون قد بدأوا لتوهم بفضل الدعم السوفيتى فى حمايته. وحتى يستمر العمل فى بناء هذه المواقع الدفاعية، وكذلك لصالح الجيش المصرى نفسه، كان من الأنسب وقف هذا القصف غير الرشيد. لكن أحدا لم يكن بإمكانه أن يبلغ ناصر بذلك. كذلك كانت لدىّ قضية أخرى معقدة للغاية تلخصت فى محاولة إقناع ناصر بالموافقة على عدد من الصياغات الخاصة بالشروط النهائية لإحلال السلام عند التوصل إلى تسوية شاملة لمشكلة الشرق الأوسط، التى كنا نتفاوض آنذاك بشأنها مع الأمريكيين، وهى صياغات كان من الصعوبة بمكان أن يقبلها ناصر. لم يكن من السهل على أندريه جروميكو أن يقول لىّ وهو يوصينى قبل السفر، إننى إذا أنجزت مهمتى ولو بنسبة ١٠٪ فإن ذلك يعد إنجازا طيبا.

ولقد أُنجِزَت المهمة على نحو تام. وافق ناصر على وقف إطلاق النار؛ فضلا عن موافقته على الصياغات الخاصة بإحلال السلام عند تحقيق المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية، أى بشرط انسحاب القوات الإسرائيلية، بطبيعة الحال، بصفة نهائية خلال مدة زمنية قصيرة نسبيا. وقد تضمنت صياغة الاتفاق النهائى للسلام عدم السماح بقيام مصر بأية عمليات عدوانية ضد إسرائيل فى حالة التسوية النهائية مع التزام إسرائيل، بالطبع بنفس الشروط بالنسبة لمصر وهلم جرا. كانت مباحثاتى مع ناصر على قدر كبير من الأهمية والصعوبة. لكننى لست بصدد الحديث عن هذا الأمر الآن.

إبان محادثاتى مع ناصر اضطررت للدخول معه فى جدال. لا أعرف إن كان هو الذى استفزنى إلى ذلك أو أنه كان يسعى لعرض أفكاره الحقيقية. ظل يطور فكرته بشأن

أن الصراع فى الشرق الأوسط ليس صراعا بين العرب وإسرائيل، وإنما هو فى واقع الأمر صراعا بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، وكأن الصراع العربى الإسرائيلى ما هو إلا نتاج لهذا الصراع الأساسى.

بطبيعة الحال فإن قبول هذه الفكرة كان سينتهى بنا إلى استنتاجات خاطئة، ليس فقط على المستوى النظرى، وإنما بشكل مضاعف من الناحية العملية. قلت لناصر إننى لا أتفق معه على هذا الرأى. نظر إلىّ ناصر بدهشة وقال: "كيف إذن؟" واقترح علىّ أن أواصل التعبير عن فكرتى. أنصت باهتمام إلى حججى وحاول أن يطرح بدوره بعض التصورات الإضافية، ولكنه فى نهاية الأمر وافق على أن الصراع العربى الإسرائيلى إنما يعكس الصراع بين التحرر الوطنى والقوى الاستعمارية والاحتلال، وأن الاتحاد السوفيتى لا يستطيع إلا أن يقف فى هذا الصراع إلى جانب قوى التحرر الوطنى، بينما تقف الولايات المتحدة إلى جانب القوى الرجعية – إسرائيل.

أذكر أننى عارضت ناصرا ذات مرة فى موضوع آخر يتعلق بقيمة "حرب الاستنزاف" التى كانت تشنها مصر آنذاك. وعلى الرغم من أن مثل هذه الموضوعات كانت تجد معارضة جذرية من جانبه، فإنه لم يكن ليرفض الدخول فى جدل بشأنها، جدل ودى مع شخصية متواضعة [1] مثلى. فيما بعد أخبرنى بعض المقربين من ناصر أنه كان راضيا لكون الحديث بيننا اتخذ طابع الجدل. كان ناصر شخصيا لا يحب، بالطبع، أن يعارضه أحد وإنما يعضده، فالمعارضة كانت تثير استياءه.

كثيرا ما أتذكر وأنا أتعامل مع السادات، كيف كان ناصر ذا طابع مختلف تماما.

هل يمكن اعتبار السادات رجلا صريحا؟ أظن أنه لم يكن كذلك. كان السادات يصوغ موقفه، أو مطالبه، أو آراءه بحيث تبدو صحيحة، ولكى تصبح مقبولة، ولهذا كان يولى اهتماما كبيرا لصياغتها لكى تترك الانطباع المطلوب. كان باستطاعته أن يقول بطريقة مميزة: "والآن سأقول لكم ما لا تعرفونه". وعلى الرغم أن ما سيقوله يمكن أن يكون

---

(1) ڤلاديمير ميخايلوڤيتش ڤينوجرادف كان يشغل آنذاك منصب نائب وزير خارجية الاتحاد السوڤيتى.

معلومات سرية، فإنها تكون فى الأغلب من النوع الذى يمكن معرفته بسهولة. وفى غالب هذه الحالات كنت على علم بهذه المعلومات، ولكننى لم أكن لأفصح بطبيعة الحال عن ذلك.

ومن الأمور التى كانت تلفت انتباهى أيضا بشدة، أن السادات كان يقيس تصرفاته أحيانا بتصرفات "شخصيات فذة" من بينها، من وجهة نظر السادات، ستالين وتشرشل. لا أعرف كيف كان يتصور تشرشل، لكن معرفته بستالين كانت مغلوطة ومحدودة. وكثيرا ما كان يقول لىّ إن ستالين فعل كذا فى الموقف الفلانى، ولم يفعل كذا فى موقف آخر. كان معجبا بموقف ستالين إبان معركة موسكو. وفى الوقت نفسه وفى اليوم التالى لاعتقاله الناصريين فى مايو ١٩٧١ كان شاحبا، مضطربا بشكل كبير وهو يقص علىّ حكاية قالها لىّ من قبل، لكنه راح لسبب ما يؤكدها لىّ مرة أخرى محاولا إثبات صحة ما قام به تجاه الناصريين، وهى أن ستالين أعدم، "من أجل القضية"، نصف أعضاء اللجنة المركزية رميا بالرصاص. كنت مضطرا أحيانا لمقاطعة الرئيس وأن أطلب منه، بأسلوب لائق بالطبع، ألا يردد ما سمعه فى مكان ما من شخص ما.

ذات مرة أخبرنى هيكل على نحو عابر أن محاكاة السادات لستالين ترجع إلى حب السادات لمشاهدة الأفلام السينمائية فى منزله ليلا، وأن أكثر ما يثير إعجابه هو أفلام رعاة البقر الأمريكية وقصص الحب الميلودرامية. كان هيكل يقص علىّ ذلك إبان العمليات العسكرية فى أكتوبر متسائلا فى دهشة عن السبب الذى يدعو السادات أن يهدر وقته وصحته على مشاهدة الأفلام ليلا، فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى جهد وتركيز عظيمين، وخاصة أن الوضع على الجبهة قد بات أكثر تعقيدا. صاح هيكل قائلا: "الإسرائيليون يتسللون هناك، وهو يشاهد السينما ! أين يحدث ذلك؟".

فى الواقع، فإن كل مقار الرئاسة، على كثرتها، كانت مجهزة بمعدات العرض السينمائى، فإذا ما توقف فى أحد المقار التى نادرا ما يزورها، فمن الضرورى أن يحضروا له جهاز عرض نقّال. وقد رأيت ذلك، على سبيل المثال، عندما استقبلنى السادات ذات مرة، لسبب لا أذكره، فى استراحة حلوان.

أثناء حواره يحاول السادات التأثير فى محدثه، مستعرضا مشاعره، وهو محدث لبق، يصيغ أفكاره بشكل واضح ودقيق، ولكنه قادر فى الوقت نفسه أن يقنع من أمامه بشكل مباشر أنه تعرض للإساءة، مثله مثل طفل، وأن الذى أساء إليه يستحق العقاب الفورى.

فى شهر أكتوبر وأثناء العمليات العسكرية تلقيت تكليفا بالقيام بدور ما يشبه بالون الاختبار بأن أبلغ السادات وعلى نحو عابر تماما أننى قبيل قدومى مباشرة للقائه استطعت على عجل أن أطلع على برقية لم "أستطع" قراءتها كاملة، وهى برقية وصلت إلىّ من أحد أقسام وزارة الخارجية وتتضمن أخبارا من نيويورك تفيد بأن ممثلين عن مصر اتصلوا بالأمريكيين وأنهم ألمحوا إلى إمكانية الوصول إلى حل وسط بخصوص وقف إطلاق النار، الذى اقترحه الأمريكيون (من المعروف أن السادات فى الأيام الأولى للحرب رفض رفضا قاطعا أية صياغات بخصوص وقف إطلاق النار، مطالبا بالانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من جميع الأراضى المحتلة باعتباره شرطا أساسيا، وهو مطلب لم يكن واقعيا بالطبع). أدرك السادات أن حديثى لا يخلو من غرض وأن الأمر يتعلق هنا بعدم الثقة: هل سيدير المصريون المباحثات مع الأمريكيين من وراء ظهورنا. لقد فهم السادات على الفور أنه أيا كانت الحقائق (الآن أرى، على سبيل المثال، أن هذه المعلومات لم تكن بعيدة عن الحقيقة) فإنه يجب عليه أن ينفيها وبصورة قاطعة. كم كان غضبه عندئذ شديدا، لقد احمَّر وجهه ولوَّح بيده تجاهى فى غضب، كما لو كان يطرد عنه شيطانا. رحت أعتذر بالطبع لكونى ذكرت له عموما مجرد مدخل الخطاب الذى أرسله فضلا عن ذلك شخص "غير ذى صفة". عندئذ صاح السادات: "كلا، كلا ! لست مخطئا. لقد تصرفت على النحو الصحيح بأن تحدثت إلىّ عن كل ذلك، أما هذا الذى أخبرك بذلك فيستحق العقاب. نعم. نعم، أقسى عقاب"، وقد أبلغت موسكو بذلك كله.

كان السادات رجلا غريب الأطوار، رجلا ذا عادات شرقية تماما، إذا جاز التعبير. فهو يعبر عن نفوره من ضيفه بالطريقة التى ينظم بها مجلسه فى الغرفة التى يستقبله بها. وعندما تكون علاقتنا على ما يرام، كان يستقبلنى عادة فى مكتبه الرسمى، فى غرفة الاستقبال، أو فى غرفة مكتبه فى منزله. كان يجلس على كرسيه ويدعونى للجلوس إلى الأريكة المجاورة ويتعامل معى بأدب جم.

ذات مرة تسنى لىّ زيارته فى وقت من تلك الأوقات التى كان الرئيس يعبر فيها عن شعوره بالغضب تجاه الاتحاد السوفيتي. اقتادونا إلى قاعة كبيرة صُفت فيها آرائك وكَرَاسٍ إلى الحوائط وأمامها وُضعت مناضد صغيرة. وفى وسط هذا المكان الرحب وضع كرسى وحيد متوسط الحجم له ظهر مرتفع، وفى جانب آخر وُضع كرسيان عاديان. لم يكن هذا التنسيق يلائم قاعة كبيرة ذات سقف مرتفع. قلت لرفيقى: "هل صحيح أنه سيستقبلنا رسميا على هذا النحو؟ وهل ينبغى علينا أن نخضع لذلك؟".

ثم ها هو الرئيس يدخل إلى القاعة. كان يسير وقد حمل ملفا تحت إبطه. خمَّنت على الفور من ملامح وجهه أنه سوف يجلسنا فى هذه الأماكن التى تم إعدادها خصيصا لنا. وهو ما حدث بالفعل. جلس الرئيس على المقعد ذى الظهر المرتفع إلى جانب إحدى الموائد وقد كساه الوقار (أصدر الكرسى صريرا عند جلوسه، كان كرسيا من طراز قديم للغاية، لم أر مثله فى القدم)، وعلى الجانب الآخر للكرسى جلسنا أنا ورفيقى. وإذا بمصور يظهر فجأة من حيث لا ندرى، الأمر الذى كان ينذر بشىء لا يبعث على الاطمئنان. التقط لنا صورا ظهرت فى الصحف فى اليوم التالى. تمدد الرئيس فى كرسيه مزهوا بنفسه، عصاه إلى جواره وقد وضع ساقا على ساق، وعلى الجانب الآخر جلس السفير ومستشاره على كرسيين وقد انتصب ظهراهما (لم يكن من طريقة أخرى). كان كل شىء يجرى على نحو برجوازى مهيب للغاية.

واقعة مثيرة للفضول: جرى اللقاء التالى مع السادات فى نفس المكان، ولكن بعد شهر تقريبا، وعلى مدى هذا الشهر كانت المياه قد عادت لمجراها الطبيعى. استقبلنا السادات فى نفس القاعة الكبيرة، على أنها هذه المرة كانت مؤثثة تأثيثا غاية فى البساطة. اتخذت مقعدى إلى جوار الحائط، لكن الرئيس دعانى للجلوس على الأريكة. اختفى من وسط القاعة ذلك المقعد الوثير واختفت معه الكراسى والمنضدة التى تم إعدادها فى المرة السابقة.

كنت قد لاحظت سابقا أن السادات شخص شديد الريبة، مما يجعل بينه وبين الغدر خطوة واحدة. وعلى مدى السنوات الأربع الماضية التى جمعت بيننا تراكمت لدى أمثلة كثيرة. لم يُبعد السادات من حياته دُولا فقط؛ بل إنه ألقى فى السجون بكل الذين أحاطوه،

وخاصة الذين ساعدوه على أن يصبح رئيسا، كما أبعد أيضا الذين شغلوا مناصب كبرى من الناصريين. أقصىَ عزيز صدقي وعبد السلام الزيات ومحمود رياض ومحمد صادق وحافظ إسماعيل ومراد غالب وحتى هيكل وآخرين. وهؤلاء الذين دعموا السادات بإخلاص رئيسا، لم تكن لديهم أية أفكار للحد من سلطته، بل على العكس تماما، جميعهم كانوا يسعون للعمل معه. لكنهم ظلوا على صراحتهم، وكانت لديهم آراؤهم المستقلة، ببساطة كانوا أناسا أذكياء. يمكننا ألا نشك أن الرئيس، عند الضرورة، لم يكن أيضا ليأخذ بعين الاعتبار أولئك الذين كان يوليهم ثقته فى الوقت الراهن ليتولوا مقاليد الأمور فى مختلف المجالات، والذين يسيرون الآن على نهجه بكل حماس، فالرجل سوف يدير دفة الأمور إلى حيث يشاء، ثم يلقى بالمصيبة على رؤوس من ينفذون تعليماته طوال الوقت بمبدأ السمع والطاعة.

هل للسادات أصدقاء؟ إن كان هناك، فمن هم؟

هذا سؤال صعب، لعل أحدا فى مصر لا يملك الإجابة عليه. البعض يقول إن أصدقاءه هم الذين أنهوا معه الكلية الحربية، وهم ليسوا ممن أصبحوا من المشاهير، وإنما الذين بقوا فى الظل لسبب أو آخر. ربما. لكن انطباعا تولد لدىّ مفاده أن السادات كان وحيدا بالمعنى الإنسانى. لعل ذلك يرجع، على الأرجح، لأنه كان شخصا شديد المراس. ومن ثم يصعب التقرب منه، فأمثاله لا يحبون أن يتعاملوا مع الناس ببساطة وحسن طوية، وهو من الذين لا يكترثون بالآخرين ولا يعترفون لهم بحقهم الكامل فى أن تكون لهم أفكارهم المستقلة، بقدر ما يخشون أن يقوم أحدهم بالتآمر عليه أو تقويض نفوذه.

كان السادات شكاكا ليس فقط تجاه الناس، وإنما أيضا تجاه صحته. كان كثيرا ما يشكو لىّ أن صحته ليست على ما يرام بسبب سوء حالة قلبه. وقد قاموا فى موسكو بفحصه عدة مرات فلم يجدوا لديه أيا من تلك الأمراض التى من شأنها أن تكون سببا بالفعل لاعتلال صحته.

لكن صحته لم تمنعه من تدخين الحشيش، وهذه المسألة لا تعد فى مصر من الرذائل الكبيرة، وفى الوقت نفسه، كان المثقفون المصريون يأخذون موقفا سلبيا تجاه هذه العادة

التى يمارسها الرئيس. كان السادات يدخن الحشيش فى وجودى دون خجل، فكان يحشو غليونه بشكل دورى بتلك الكرات البيضاء. وعندما جاء ألكسىّ كوسيجين إلى القاهرة أثناء العمليات العسكرية، كان السادات يدخن غليونه دون انقطاع إبان المباحثات دون أن يخجل من حشوه بالحشيش.

لاحظت أن الرئيس كان ينتابه التعب بسرعة إذا تطرق الحديث إلى موضوعات تثير انفعاله، وخاصة إذا كان الحديث جادا، فى الوقت الذى يكون الرئيس قد وضع نصب عينيه أن يخلق انطباعا محددا لدى محدثه وإقناعه بوجهة نظره هو. وبسبب هذا الانفعال يشعر بالإجهاد وتصبح نظرته زائغة ويصبح الحديث خاملا. عندئذ يُخرج السادات غليونه ويحشوه بالحشيش، ثم يجذب بضعة أنفاس عميقة، وما هى إلا برهة حتى تتحول الصورة. يعود الرئيس إلى نشاطه وتتلألأ عيناه ويصبح حديثه حيويا بهيجا. إنه الآن فى أفضل حالاته.

ومن المعروف أيضا فى مصر أنه كان محبا للشراب. عموما، فقد كان لقائى الأول بالسادات فى موسكو، عندما جاء لزيارة الاتحاد السوفيتى باعتباره المبعوث الخاص لناصر وذلك فى شتاء عام ١٩٧٠. كان ثملا للغاية فى السفارة المصرية، وكان يتبادل التحية والقبلات مع كل الموجودين تقريبا بما فيهم أنا، مع أننى كنت ألتقى به للمرة الأولى. وإبان زيارته لموسكو فى ربيع ١٩٧٢، راح الرئيس المنتظر "يسرف" فى الشراب على مائدة الإفطار، ومن ثم كان يحاول بصعوبة الحفاظ على توازنه عند إجراء مراسم تقديم السفراء الأجانب، وهنا راح يخلط بين سفيرى الهند وباكستان. كان الوضع هزليا وخصوصا أنه فى هذه الفترة كانت رحى الحرب دائرة بين الهند وباكستان!

كان الكحول يساعد السادات بشكل واضح على التخلص من الضغط النفسى فيصبح أكثر صراحة وإخلاصا.

فى صيف عام ١٩٧١ سافرت فى إجازة إلى الاتحاد السوفيتى، وقد صادفت إجازتى وقوع أحداث غير سارة فى مصر وفى السودان على وجه الخصوص. فى هذه الفترة سرت شائعات عن ظهور "سحابة" فى العلاقات السوفيتية المصرية، على الرغم من أنه

لم يكن هناك من جانبنا أى شيء يمكن أن يكون مسوغا لتأكيد ذلك. كانت خطوة دورية اتخذها أعداؤنا وأعداء مصر كذلك، لكن الشائعات راحت تتضخم لتبدو للرئيس كأنها هى الحقيقة: فتور علاقة الاتحاد السوفيتى تجاه مصر. وعلى الرغم من أن الإجازة هى مسألة روتينية، فإن الرئيس ارتاب فى غياب السفير السوفيتى لدى مصر. تم إحاطة سفارتنا علما بأن الرئيس يرغب فى مقابلة السفير، وتساءلوا عما يعنيه هذا الغياب الطويل للسفير وهلم جرا، وسرعان ما تلقيت تعليمات بسرعة عودتى إلى القاهرة.

كان اللقاء الأول فور عودتى مع الرئيس بطبيعة الحال. دعانى لمقابلته فى استراحته بالمعمورة بالقرب من الإسكندرية. وصلت إلى هناك فى الحادية عشر صباحا. لم أر مطلقا شخصا أكثر انشراحا منه. وعلى الرغم من ارتفاع حرارة الجو فقد أمر بتقديم الفودكا والسردين، وهنا قال لىّ للمرة الأولى إنه آسف لأن السفير لايشرب، ولهذا سوف يفعل هو ذلك وحده. لم أشأ أن أُغير من رأى الرئيس. كان يوما قائظا، أما هو فقد أكبَّ على الزجاجة وحده. اتسم حديثنا بالصراحة وإن شَابَهُ بعض الدهاء والمراوغة التى اعتاد عليهما الرئيس. قال الرئيس إنه مستعد لأن يعطى الاتحاد السوفيتى كل شاطئ البحر المتوسط من أجل تحقيق أهدافنا المشتركة، وأنه مستعد لكذا وكذا وهلم جرا. ثم أعرب عن عتابه على الاتحاد السوفيتى لعدم فهمه مصر وما يجرى فى البلاد العربية، وطرح على نحو واضح فكرته حول ضرورة أن نغير من طريقتنا بمزيد من السماحة والكرم وما إلى ذلك. كثيرا مما قاله آنذاك، خمسون بالمائة منه تقريبا قاله، من وجهة نظرى، بصراحة، عن اقتناع. أما الخمسون بالمائة الأخرى فكان حديثا منمقا بطبيعة الحال لترك انطباع قوى.

ظل الرئيس يشرب وحده حتى شعرت بالحرج وخشيت أن يقع أمرٌ ما، حتى إننى اقترحت عليه أن أشاركه الشراب أصبح حديثنا أكثر إمتاعا لكلينا، لأنه كان صريحا على نحو نادر، حتى إن الحديث امتد بنا إلى ما يزيد على أربع ساعات.

بعدما تسلمت عملى سفيرا لدى القاهرة، كان الرئيس يقول مازحا للزعماء السوفيت إن الجميع معجبون بالسفير الجديد، وأنه لا يستطيع بأى شكل أن يُرضى الرئيس ويُرسل

إليه الڤودكا على سبيل الهدية. فى البداية تعاملت مع هذا الكلام باعتباره مُزاحا، لكن الرئيس ما فتئ يكرر مزاحه المعاتب مرة بعد الأخرى، وعلى الرغم من أننى "حاولت" - فكنت أرسل إليه فى الظروف المناسبة من زجاجتين إلى ست، فإننى عرفت من موظفينا القدامى بالسفارة أن السادات، قبل أن يصبح رئيسا، كان ضيفا بصفة غير رسمية على السفير الذى سبقنى، وأن السفير كان يضطر فى كثير من الأحيان أن يساعده فى العودة إلى المنزل. عندئذ قررت أن أرسل له صندوقا من الڤودكا، وسرعان ما توقفت "الشكوى"، بل على العكس تماما كان الرئيس يقول لى مازحا إن الأمور على خير ما يرام - الغليون يعمل مع الڤودكا.

لا أعرف عن الحياة المنزلية للرئيس كثيرا. لم أكن أُستقبل فى عائلته، على الرغم من أننى كنت معروفا، بطبيعة الحال، لحرمه، التى كانت، كما يقولون، ذات تأثير معروف عليه (الأمر الذى لا أصدقه)، كما كنت معروفا لأولاده. كانت بناته يحضرن إلينا فى أرتك(*)، وقد زوجهن الرئيس من أنجال أثرياء مصريين. كانت زيجات لها حساباتها بالطبع. كان يحب ابنته الصغرى چيهان بشكل خاص، وهى فتاة تتميز بالجمال والجاذبية، وقد دعوناها إلى السفارة للاحتفال مع الأطفال بمناسبة العام الجديد، وقد رقصت بكل سرور وحماس مع الأطفال العرب والسوڤيت وشاركتهم الغناء واللعب. باختصار كانت تتصرف فى غير تكلف وعلى سجيتها تماما. ترى أى مصير ينتظرها؟

كان السادات فخورا بجدارة بناته وأبنائه. كانوا بالفعل قد تلقوا تربية حسنة. كم من مرة استقبلنى السادات فى بيته عندما كان مزاجه طيبا. كان يصفق بيديه فجأة مستدعيا الأطفال فيهرعون إليه. يؤدون التحية ثم يأمرهم بالغناء فيغنون بالروسية "الأمسيات فى ضواحى موسكو"(**). كان الأمر يبعث الرضا فى نفوس الضيوف؛ فضلا عن صاحب البيت.

(*) أرتك: معسكر للرواد يقع فى منطقة القرم على شواطئ البحر الأسود، وهو منتجع للاستجمام ويستقبل سنويا ما يزيد على ثلاثين ألف طفل (المترجم).

(**) من أشهر الأغانى الروسية. (المترجم)

كان السادات، مثله مثل أي رئيس، لديه بالطبع حشم كثير، يذهبون ويجيئون في البيت، مما كان يجعل البيت مكانا غير مريح، مفتقدا إلى الجو العائلي، فيبدو مسكنا حكوميا على نحو ما.

عموما لم يكن الرئيس يهوى البقاء في مكان واحد. كان كثيرا، بلا انقطاع في الواقع، يغير من مكان إقامته كان قصر القبة هو المقر الرسمي للرئاسة وكان نادرا ما ينزل فيه. كان يلتقي فيه برؤساء الدول وبالقرب من هليوبوليس كان له مقر آخر هو قصر الطاهرة. كان كثيرا ما يقيم فيه عندما يكون مشغولا بأمور الحرب.

وفي الجيزة أُقيم له مقر رسمي جديد في مبنى كان يشغله متحف للفنون الجميلة، اُستخدم ديوانًا للرئاسة، وبذلك أُوقف العمل بهذا المبنى باعتباره مؤسسة ثقافية. وأمام المبنى تم على وجه السرعة، خلال عدة أشهر، إقامة مخبأ على عمق يعادل خمسة طوابق.

يطل مقر الإقامة هذا على نهر النيل، وقد تم اختياره في هذا المكان حيث يقع بالقرب منه عبر طريق صغير المنزل الخاص للرئيس، وكان قد اشتراه قبل أن يشغل منصبه الرفيع (خطر ببالي دون إرادة مني فكرة أن مقر الإقامة الرسمي يلائم مكان سكنه، وهذا يعني أن الرئيس ينوي شغل منصبه للأبد).

كان هذا الجزء من الكورنيش هو الأفضل والأنظف في الجيزة، وكان يجتذب الناس للتنزه فيه، والحقيقة أنه كان المكان الوحيد اللائق في القاهرة حيث يمكن للمرء أن يسير فيه. في الأشهر الأولى بعد تولي الرئيس منصبه، كان من الممكن للجمهور أن يتنزه هنا، ولكن بعد مايو من عام ١٩٧١ تم إغلاق الكورنيش بالحواجز، كما أُغلق الممر بتحصينات قوية، وأمام مقر الرئاسة رست على شاطئ النهر مركب كبير كان الرئيس يحب أن يجلس فيه منفردا بنفسه في المساء للتأمل.

وعلى بعد ٣٥ دقيقة من القاهرة تقع استراحة الرئيس الأخرى فى القناطر عند تفرع نهر النيل. منزل جميل تعود ملكيته إلى إدارة الرى، ويقع على جزيرة صغيرة خضراء وله حديقة صغيرة تتوسطها شجرة أثرية ضخمة ذات جذور هوائية تضرب فى الأرض لتنمو مكونة أعمدة. وإلى جوار البيت وفوق مجرى النهر يرسو اليخت الملكى للملك السابق فاروق يستخدمه الرئيس صيفا للاستجمام.

وفى الصحراء وعلى بعد مائة كيلومتر تقريبا من الإسكندرية فى اتجاه ليبيا تقع برج العرب، وهناك توجد أيضا إحدى استراحات الرئيس. وقد تسنى لىّ الذهاب إلى هناك أيضا عدة مرات، وهناك يوجد منزل منعزل تماما فى الصحراء. المكان يُعد واحة صغيرة ليس أكثر. هدوء مطلق وخاصة بالليل.

وإلى الشرق من الإسكندرية يقع منتجع المعمورة، حيث توجد على شاطئ البحر استراحة أخرى للسادات تقع بجوار منزل كان قد بُنى ذات يوم لناصر. حديقة جميلة من أشجار الدفلى تحيط بمنزل من طابقين.

ويمتلك السادات أيضا منزلا فى قريته التى وُلد فيها ويقع فى دلتا النيل على بعد مسيرة ساعة من القاهرة بالسيارة. وهناك يستقبل السادات ضيوفه المقربين. وقد تسنى لىّ أيضا الذهاب إلى هناك عدة مرات. فى المرة الأولى كان المنزل متواضعا مكونًا من دورين تحيطه حديقة صغيرة وقد نمت حوله كثير من الأشجار جُلبت شتلاتها من الاتحاد السوفيتى. كل شىء كان متواضعا، بل شديد التواضع مع شىء من الإهمال.

بعد عام تقريبا، اضطررت للذهاب إلى هناك مرة أخرى. الآن تبدل الوضع تماما فى الداخل؛ لا يوجد هنا سوى بريق الرخام والبرونز والزخارف الجصية والنقوش البارزة من النحاس. ظهرت الأحجار الفخمة الرائعة وإن تميزت بالضخامة، وانتشر الأثاث على الذوق المصرى وما إلى ذلك. كل ذلك كان يبدو متناقضا مع الشوارع الريفية القذرة التى ظلت على حالها هى وبيوت الجيران البائسة والماشية الهزيلة الهائمة فى الطريق والتى تشبه فى مظهرها الفلاحين الكادحين.

استقبلنى الرئيس مرتين فى هذه الأماكن التى لم أكن لأزورها – مرة فى استراحة حلوان الخاصة التى تمت مصادرتها، والأخرى فى النادى الذى كان مخصصا سابقا للضباط فى هليوبوليس.

كان الأثاث فى منزله فى الجيزة، مثله مثل باقى الأماكن والاستراحات يفتقد، من وجهة نظرى، إلى الذوق. كان هناك خلط بين العصور، فهذه قطع يعود طرازها إلى منتصف القرن التاسع عشر فى فرنسا وإلى جانبها أثاث آخر من طراز أوائل القرن العشرين فى الولايات المتحدة. العديد من الزخارف الجصية والستائر والسجاد والجوبلات والأثاث الثقيل واللوحات مجهولة القيمة، والتى يبدو جليا أنها اختيرت بمحض الصدفة. كل شىء يفتقد إلى الأصالة فيبدو تقليدا لشىء ما "حقيقى". المهم أن يوحى "بالثراء". على أية حال لم أر فى مصر عند أىٍ من كبار المسؤولين شقة مجهزة بذوق رفيع. دائما ما ترى اندفاع أصحابها لإبهار الضيوف بثرائهم المزعوم الممثل فى التماثيل الخزفية وبعض الهدايا الصينية ومن غيرها من بلدان الشرق فى كل ركن من الأركان، باختصار كشكل من أشكال الاستعراض وهو ما يعنى أن كل شىء غير حقيقى.

كان السادات يرتدى ملابس تتسم بالبساطة والذوق الرفيع. كان واضحا أنه يحب الملابس المريحة الملائمة التى لا تعوق حركته وتتماشى فى الوقت نفسه مع الموضة. كان يراقب وزنه مراقبة دقيقة. كان ممشوق القوام، رشيقا، أدخل عادة السير بالعصا تحت الإبط. لعل ذلك كان محاكاة لسلوك الضباط الإنجليز، الذين كانت أعدادهم كبيرة فى مصر. وهؤلاء كانوا يحملون تحت إبطهم سوطا قصيرا، وقد ألغى ناصر هذه العادة.

ومن الفضائل المميزة للسادات قدرته على الخطابة فى الاجتماعات واللقاءات الجماهيرية. كان لديه إحساس بالجمهور العربى، المصرى إن شئنا الدقة، فيتحدث أمامه بالعامية المصرية وباللهجة المحلية. كان يبنى خطبه بمهارة وتركيز. يبدأ فيطرح جوهر الموضوع ولو على نحو موجز. ولكنه يعود إليه مرة أخرى بل وربما يكرره، ولاعيب فى هذا، فهو يبدو وكأنه يتبادل الحديث مع الشعب. تجرى عملية الإبداع عنده على نحو علنى، عملية خلق الخطاب وطرح الفكرة، وهذه الطريقة تؤثر دائما فى أى جمهور، ولذلك يصل

مضمون الخطاب على نحو منطقى. لا يجبر السادات المستمع على التفكير فيما يقوله. يطرح الفكرة باعتبارها حقيقة ثابتة، أى موجودة، لا يفعل شيئا سوى أن يجعلها أكثر وضوحا. ملائمة لنقلها إلى المستمع.

لم يقرأ خطبه إطلاقا من ورقة، على الرغم من أنه فى كثير من الأحيان، كان لديه نص مكتوب، وما يقرأه منه، يقرأه على نحو معبر تماما.

كان السادات يمتلك قدرة ممتازة على الإلقاء، يمكن القول إنها كانت مثالية. ليس من قبيل المصادفة أن "الضباط الأحرار" عندما قاموا بثورة ١٩٥٢ بقيادة ناصر كلفوه بإعلان الثورة عبر الإذاعة. كان ذلك، بالمناسبة، تعويضا له على عدم مشاركته فى الثورة التى "تأخر" عليها لوجوده فى دار السينما مع ابنه ولم يتلق فى الوقت المناسب تحذيرا من ناصر عن بدء الانتفاضة.

على أن الخطب الجماهيرية كانت تنهكه بشدة. كان يتصبب عرقا فيضطر طوال الوقت لاستخدام منديل يجفف به عرقه. كان يبدو بعد الانتهاء من إلقاء خطابه متعبا للغاية. لكن الأمر كان ينتهى دائما على نحو رائع لاشك فى ذلك. كان خطيبا مفوها بالنسبة للجمهور العربى.

* * *

إلى هنا كان من الممكن أن نصل إلى الخاتمة. على أننى أود أن أضيف أمرا آخر على جانب كبير من الأهمية.

كان السادات يمتلك حدسا فذا، كأنه يمتلك شعورا باطنيا يرشده فى هذه اللحظة أو غيرها انطلاقا من التوجه العام الذى كان ينتهجه إلى ما يراه فى مصلحته، وهو الذى يمتلك السلطة فى أكبر دولة عربية وأقدمها، فى مصر. كان توجهه التكتيكى الرئيسى يتلخص فى أن تظل يداه طليقتين سواء فى علاقته بأصدقائه أو مع أعداء مصر.

لم يشأ أن يكون مرتبطا بأية التزامات مع أحد، ومن هنا كان سعيه لاستغلال التناقض بين شركائه إلى أقصى درجة ممكنة. ولهذا كان يؤمن بأن الآخرين، مثلهم مثله، سوف

يتصرفون بنفس الطريقة. والمثال الأعلى هنا هو ذلك الانقلاب الحاد نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ومن ثم الابتعاد عن الاتحاد السوفيتي فور انتهاء العمليات العسكرية فى عام ١٩٧٣، عندما كانت هيبة الاتحاد السوفيتى، على ما بدا، فى أوجها. لقد تحول نحو الولايات المتحدة الأمريكية لأنه كان يدرك أيضا، بسبب تركيبه الذهنى، أن المواقف الصادقة النزيهة التى اتخذها الاتحاد السوفيتى ستجلب لكل مواطن سوفيتى سمعة رفيعة، أما ما بدا له غير مقبول أن يبدو هو نفسه كما لو سقط فى التبعية للاتحاد السوفيتى. لقد شعر السادات أنه سيكون عليه أن يكون إلى جانب الاتحاد السوفيتى. ولمّا كان منهجه هو سياسة الأيدى الطليقة، فقد عوّل على التحول الحاد والمفاجئ لكثير من الناس. وهو ما كان يتسق تماما مع شخصيته ويناسب سماته التى جُبل عليها بوصفه فردا وباعتباره رئيسا وحاكما ديكتاتورا.

هل باستطاعة السادات أن يقوم بسهولة وعلى نحو مفاجئ بعمل انقلاب عكسى؟ يستطيع بالطبع تبعا للظروف. ولكن ليس هذا هو المهم. بالنسبة لنا المهم أن نعرف دائما لماذا قام بهذا الانقلاب. ما هى الحسابات التى تقف وراء هذا الانقلاب. فالانقلاب لا يعنى أن السادات قد تغير بوصفه إنسانا ورئيسًا. سوف يكون انقلابه خطوة تكتيكية أملتها عليه الظروف. وإذا ما أضفت هذه الظروف التى تقوده إلى اتخاذ هذه الخطوة، فينبغى أن ننتظر من الرئيس خطوات أخرى نحو اتجاهات جديدة.

هذا إذا ما استمر السادات رئيسا بالطبع، وإذا ما شعر أنه يستطيع أن يخدعنا كما حدث من قبل.

إذا....

يناير ١٩٧٥

موسكو

ملاحظات على هوامش كتاب

محمد حسنين هيكل
"الطريق إلى رمضان"

لفت كتاب "الطريق إلى رمضان" للصحفى السياسى العربى البارز محمد حسنين هيكل عن الحدث الأكبر الذى وقع مؤخرا فى العالم العربى، والذى تمثل فى العمليات العسكرية المصرية والسورية ضد إسرائيل فى أكتوبر من عام ١٩٧٣، لفت الانتباه إليه فى العالم العربى وفى خارجه[1] .

لقد أتاحت أحداث أكتوبر التى وقعت فى الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ الفرصة لظهور الجوانب المختلفة لسياسة الدول العربية، وإسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية ودول غرب أوروبا. كما ألقت الضوء أيضا على الدور الكبير للاتحاد السوفيتى وعلى سياسته الدولية وأظهرت دور الانفراج فى العلاقات وفضله على قضية السلام والظواهر الجانبية التى نتجت عنه.

استمرت العمليات العسكرية فى الشرق الأوسط حوالى عشرين يوما، لكنها أظهرت الكثير وكشفت عن مختلف جوانب حياة وسياسة العديد من الدول. وقد تباينت الآراء حول هذه الأحداث. والإسرائيليون، الذين سلّموا بأنهم ارتكبوا "أخطاء" فى الفترة الأولى

---

(1) Heikal. Mohamed. The Road to Ramadan. London, 1975

الكتاب معروف جيدا للباحثين، وهو يعد واحدا من أهم المصادر الخاصة بالأحداث التى سبقت حرب أكتوبر 1973. ملاحظة الناشر.

من الحرب، عندما أخذ العرب بزمام المبادرة، راحوا يرفعون عقيرتهم معلنين انتصارهم العسكرى فى الفترة الأخيرة، مؤكدين على أنه لولا اتخاذ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراره بوقف إطلاق النار، لألحقت إسرائيل بالعرب هزيمة عسكرية ساحقة.

أعلن المصريون افتخارهم بانتصارهم العسكرى وبالإعداد العسكرى الرائع لقواتهم المسلحة، لكنهم صمتوا فى خجل عن أنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من تلقى هزيمة عسكرية كاملة، إذ إنهم لم يأخذوا على عاتقهم، بوعى أو لأى سبب آخر، اتخاذ الإجراءات اللازمة للقضاء على الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون ليصلوا منها إلى الشاطئ الغربى لقناة السويس فى أفريقيا.

أما السوريون، الذين تكبدوا خسائر أكثر فداحة فقد أكدوا أن سوريا كانت مستعدة للبدء فى هجوم مضاد هائل فى اليوم التالى مباشرة لإعلان وقف إطلاق النار، الذى وافق عليه السادات دون تشاور معها.

وهنا راح الأمريكيون يؤكدون فى نفاق، كعادتهم، أن اهتمامهم الأول كان منصبا على حقن الدماء وتحقيق السلام والهدوء فى الشرق الأوسط، وفضّلوا السكوت عن ذكر الصفقات السريعة الهائلة لإمداد إسرائيل بأحدث الأسلحة القادمة مباشرة من مخازن السلاح الأمريكية، بل وبأطقمها، باتجاه الأراضى المصرية التى يحتلها الإسرائيليون (فى العريش بسيناء)، ناهيك عن الدعم السياسى الصريح لإسرائيل.

أما عن الموقف الحقيقى للاتحاد السوفيتى فيتلخص فى أنه قدم المساعدة والدعم للعرب لكى يحققوا ظهورا مؤثرا مهيبا لقدراتهم الكامنة، أى الانتصار بالمعنى السياسى العسكرى ولإنقاذ العرب عندما تحولت دفة الحرب لغير صالحهم. وقد سعى الاتحاد السوفيتى بروح الانفراج للتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية فى قضية حل النزاع فى الشرق الأوسط، بل إنه لم يخش المخاطرة بالدخول فى مواجهة مع الولايات المتحدة عندما بدا أن هناك تهديدًا بهزيمة ساحقة للعرب بسبب الإمدادات الهائلة من جانب الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل.

يحتوى كتاب هيكل على تقديرات وعلى حقائق. ومن ثم فإننا سوف نولى اهتمامنا الأساسى، من خلال تعليقاتنا، للحقائق، ومع ذلك سيكون علينا أن نتحدث أيضا عن بعض التقديرات التى أوردها الكاتب فى كتابه، وخاصة أن هذه التقديرات تنطلق فى كثير من الأحيان إما عن إحاطة بالوقائع، وإما نتيجة لطرحها طرحا غير دقيق. (التعليقات مطابقة لترتيب نص الكتاب).

المقدمة :

صـــ٨ : يبدأ الكاتب عمله بالتأكيد على حتمية نشوب حرب جديدة فى الشرق الأوسط.

الأرجح أن الأمر لم يكن يستحق مثل هذا الحكم القاطع، إذ كان من الممكن ألا تقع الحرب فى المستقبل المنظور لمدة، لنقل، من عشر إلى خمس عشرة سنة. الأمر يتوقف على السياسة التى كانت ستنتهجها كل من إسرائيل ومصر.

كان من الممكن أن يبادر العرب بالحرب، لو أنهم تأكدوا أن مصر ستشارك فيها بحزم. فبدون مشاركة مصر لما خاضت الدول العربية الأخرى غمار حرب ضد إسرائيل، لأنها كانت ستخشى من الأمر الواقع وهو تلقى الهزيمة على يد إسرائيل. ولهذا فالدول العربية، أغلب الظن، كانت ستتعامل بواقعية تجاه إمكانية نشوب أعمال عسكرية دون مشاركة مصر فيها. ومع وجود السادات فى الحكم وانتهاجه لسياسة التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية، لم تكن مصر لترغب فى المستقبل القريب فى الدخول فى حرب ضد إسرائيل، حيث إن ذلك يمثل تناقضا مع نهجها فى التعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية. فضلا عن ذلك فمن الصعب أن نتصور قيام عمليات عسكرية إذا ما عادت قناة السويس للعمل. ليس من قبيل الصدفة أن الإسرائيليين والأمريكيين كانوا كثيرا ما يعلنون أن أفضل خط دفاع لإسرائيل هو قناة السويس فى حالة عملها. على أية حال، لايمكن الحديث الآن عن انتظار إسرائيل لهجوم عربى مفاجئ.

من غير المحتمل فى الظروف الحالية أن تُظهر إسرائيل أى مبادرة أو أن تبدأ حربا واسعة ضد مصر، فإسرائيل يهمها استمرار السادات فى تقديم التنازلات للولايات المتحدة الأمريكية. ومن الناحية العسكرية الصرفة فإن هذه "الحملة العسكرية" لن تعود بالنفع على إسرائيل، لأن الولايات المتحدة ليست مهتمة بقيام حرب فى الشرق الأوسط، لأن ذلك يعوق من ممارستها لمنهجها العام فى النفاذ إلى الدول العربية.

كان الأرجح هو قيام إسرائيل بمهاجمة سوريا تحت أى مبرر ولكن على إسرائيل عندئذ ألا تنسى علاقات التضامن التى لا تزال موجودة بين الدول العربية، حتى ولو كانت هذه العلاقات قد أصابها الضعف، وهو ما يعنى احتمال دخول دول عربية أخرى فى الحرب، ولو ضد إرادتها (مثل مصر على سبيل المثال)، وهو ما يمكن أن يتنافى فى نهاية الأمر مع المصالح الحالية للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل.

ولهذا فمن الصعب، من وجهة نظرنا، القول على هذا النحو القاطع "بحتمية" نشوب حرب جديدة فى الشرق الأوسط فى المستقبل القريب. ولكن لا يمكن من الناحية التاريخية، بطبيعة الحال، التنبؤ بما سيحدث، كما أن من الجائز أيضا أن تتغير طبائع الدول العربية، بل وإسرائيل نفسها، كما تتغير سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، وأخيرا، فمن الممكن أيضا وقوع ما لم يكن فى الحسبان.

إن ملاحظة الكاتب بشأن حتمية نشوب حرب جديدة أمر ينبغى النظر إليه باعتباره تعبيرا عن الأسى لأن حرب أكتوبر لم تؤد إلى حل النزاع، بل إنها أرجأته أيضا، وباعتبار أن الشرق الأوسط قد بات فى الواقع محلا لتجمع قدر كبير من القضايا القابلة للاشتعال.

"عرفان من الكاتب"

صـ٩ : لم يكن الكاتب بحاجة إلى توجيه الشكر إلى المدعو چون بارى على "التصحيح النهائى للحقائق والأرقام"، إذ إن الكتاب يحتوى على عدد كبير من المعلومات غير الدقيقة؛ فضلا عن الأخطاء الجسيمة فيما يختص بالوقائع.

الفصل الأول: "المفاجأة"

صـ ١٥ : يبدو إعلان مدير المخابرات الحربية المصرية أن إسرائيل سوف تعرف بموعد العمليات المصرية ضد إسرائيل قبل بدايتها بخمسة عشر يوما، أى فور بدء الاستعدادات لها أمرا معقولا. ومن الناحية العملية فإن إخفاء هذه الاستعدادات الجادة فى الظروف المصرية أمر مستحيل. ليس فقط بسبب طبيعة الأرض وجسامة هذه الاستعدادات، وإنما أيضا نتيجة لقدرة المخابرات الإسرائيلية والتى تحدث عنها الكاتب نفسه بالمناسبة.

للأسف فإن الكاتب لم يطوّر فكرته بشأن استحالة قيام المصريين بهجوم "مفاجئ" وليته فعل. إذ لو تأكد على نحو صحيح أن الإسرائيليين لم يكونوا ليُباغتوا على حين غرة، وأنهم كانوا سيعلمون بموعد قيام الحرب قبلها بخمسة عشر يوما (!)، لكان من الضرورى وجود تقييم آخر للأحداث؛ فضلا عن إلقاء الضوء على الوقائع وعلى طريقة تناولها.

صـ ١٦ : إن التأكيد على أنه كان من الممكن خفض فترة خداع الإسرائيليين من خمسة عشر يوما إلى أربعة أو خمسة أيام يبدو ساذجا. وحتى لو افترضنا أن ذلك سينجح لظلَّ الوضع على ما هو عليه، لو تأكد أن الإسرائيليين كانوا على علم بموعد بدء الهجوم العربى قبلها بأربعة أو خمسة أيام على أقل تقدير! فهذه الفترة كانت كافية لأن يتخذ الإسرائيليون الإجراءات المضادة المناسبة سياسيا وعسكريا. هذا إذا ما أرادوا بالطبع اتخاذ هذه الإجراءات.

صـ ١٨ : التصريح بأن الأمريكيين كانوا يعرفون خطة العمليات العسكرية المصرية منذ شهر مايو من عام ١٩٧٣ أمر جدير بالاعتبار. وفى معرض طرحه للمعلومات الخاصة بخطط العمليات العسكرية للعرب، بما فى ذلك توقيت بدء هذه العمليات، وأنه كان معروفا من قبل الأمريكيين، ومن ثم الإسرائيليين، يختلط الأمر على هيكل على نحو ما عندما يقدم استنتاجاته. لماذا؟ لو أن هيكل التزم التفكير المنطقى لما فاتته الاستنتاجات المنطقية أيضا حول أن الأمور لم تكن جميعها على هذا النحو من الشفافية من الناحية السياسية لهذه القضية. هنا حاول هيكل بشكل ساذج تماما أن يجد مخرجا من هذا الموقف استنادا إلى تأكيدات الأمريكيين، على حد قوله، أنهم لا يصدقون خطط المصريين! هل صحيح أنهم لم يكونوا يصدقونها؟ أين هى إذن تلك الاتصالات الدائمة المزعومة بين أجهزة المخابرات

المصرية والأمريكية التى تحدث عنها الكاتب مرارا، والتى لم تتوقف مطلقا حتى فى وقت الحرب؟ إنه لأمر غريب ألا يكون الأمريكيون متأكدين آنذاك عبر هذه القنوات (وغيرها) من صحة "خطة بدر"؟

مما سبق نصل إلى ما يلى: كانت الولايات المتحدة الأمريكية على علم بخطة العمليات العسكرية المحتملة وأنها، على الأرجح، قد أبلغت إسرائيل بها على أقل تقدير.

صـ ٢٢ : كان هيكل على صواب من الناحية الشكلية: فقد أعلن السادات، بالفعل وبكل الوسائل أن هذه "الحرب" هى، على حد قوله، عمل احترافى يختص به العسكريون، مثل كل عمل يمارسه أناس ملائمون للمهنة. وراء ذلك توارى مكر السادات البدائى: يتم إلقاء المسؤولية على العسكريين فى حالة فشل العملية، وقد كان مؤمنا بالفشل ولم يكن السادات يتوقع مثل هذا النجاح العسكرى الذى تم بالفعل، والذى كان مفاجأة للسادات أكثر من أى شخص آخر. كل الشواهد تؤكد ذلك. أما النتائج الإيجابية، فالرئيس دائما لديه القدرة على أن ينسبها لنفسه، وهو ما حدث فى واقع الأمر. كان السادات حريصا على أن تنسب إليه كل الإيجابيات التى أدت إليها العمليات العسكرية وأن يتم إبراز هذه المآثر العسكرية التى اجتُرحت لتضاف إلى حسابه. أما الفشل والأخطاء، وعلى وجه الدقة تلك الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون لينفذوا منها إلى الضفة الغربية للقناة فقد نُسبت إلى... رئيس الأركان الشاذلى. والسبب، على ما يبدو، أنه لم يكن مطلعا على دهاليز خطط السادات الفاسدة سياسيا، ولذلك فقد قدم تقديرا بالوضع الحقيقى فيما يخص الاختراق الذى قام به الإسرائيليون. لقد كان هذا الرجل ببساطة هو الذى نقل خبر المصيبة ولهذا كان من الطبيعى، من وجهة نظر السادات، أن يجعل الشاذلى "كبش فداء"، وهو ما تم بالفعل. فيما بعد تم تعيين الشاذلى... سفيرا لمصر لدى إنجلترا.

صـ ٢٤ : حجج السادات الغريبة (كما صورها هيكل): هل يُبلغ السادات الاتحاد السوفيتى بموعد بدء العمليات العسكرية أم لا؟ لماذا لم يأت هيكل هنا على ذكر أمر آخر ولو مرة واحدة: تلك التأكيدات العديدة التى أعلنها السادات للزعماء السوفيت بأن مصر لن تبدأ الحرب دون تشاور مع الاتحاد السوفيتى (ناهيك عن الالتزام بإبلاغه بذلك بموجب

معاهدة الصداقة والتعاون الموقعة بين البلدين). يرجع قرار السادات بعدم إبلاغ الاتحاد السوفيتى لأسباب بعيدة كل البعد عن السياسة النزيهة تجاه الاتحاد السوفيتى. يمكن أن نفترض أن السادات كان يدرك أنه بعدم إبلاغه الاتحاد السوفيتى فهو لن يُحسِّن، على أية حال، من علاقاته به، بل على العكس من ذلك، كان يعرف أن هذه الخطوة لن تجد ترحيبا من جانب الاتحاد السوفيتى، ومن الواضح أن السادات لم يكن ليعبأ برد الفعل السلبى للاتحاد السوفيتى (مخالفة شروط معاهدة الصداقة، العواقب المجهولة بالنسبة للعالم العربى، التسوية الشاملة، قضية الانفراج فى العلاقات السوفيتية الأمريكية وهلم جرا).

ينبغى أيضا أن نفترض أن السادات كان يعوِّل على رد الفعل السلبى من جانب الاتحاد السوفيتى، ومن ثم فقد كان السادات بحاجة إلى هذا الأمر. لماذا؟ بالطبع ليس من أجل التقارب مع الاتحاد السوفيتى، الذى كان على مصر أن تعتمد عليه إبان العمليات العسكرية. إن هذه اللفتة العدائية تجاه الاتحاد السوفيتى كانت، فى الوقت نفسه، بمثابة لفتة ودية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية (لنتذكر الاتصالات المصرية الأمريكية المستمرة وأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على علم بخطة العمليات العسكرية المصرية).

من هنا كان قرار السادات عدم إبلاغ الاتحاد السوفيتى بموعد بدء العمليات العسكرية استعراضا وديا تجاه الولايات المتحدة الأمريكية التى "قدَّرت" فى حينه هذا النوع من "حسن السلوك".

كان على هيكل أن يكتب تحديدا عن هذا الأمر، بدلا من الحديث عن المبررات التى لا وزن لها، والتى زعم أن السادات عكف عليها وهو يبحث مسألة هل عليه أن يخبر الاتحاد السوفيتى أم لا يخبره.

ومن غير المستبعد أن يكون السادات قد فعل ذلك أمام هيكل خصيصا ليدفع به إلى نوع من الضلال لعلمه ببعض أفكار هيكل المؤيدة للصداقة مع الاتحاد السوفيتى، وهى أفكار كانت تقف آنذاك على النقيض من نيات السادات نفسه.

صـ ٢٤ : انقطع حديث السفير السوفيتى مع السادات عشية الحرب، وانقطعت معه، على وجه الخصوص، آراؤه التى لم يسجلها بالمناسبة أحد من المصريين فى تلك الأمسية.

إن أى سفير سوفيتى لم يكن بإمكانه إطلاقا أن يقول إنه كان يعرف مسبقا أى جواب سيعطيه القادة السوفيت على هذا الطلب أو ذاك من جانب رئيس دولة أجنبية. جدير بالذكر أيضا أن السادات فى هذا اللقاء لم يذكر أى كلمة "تنبؤية" حول أن الأيام القادمة سوف تكون "اختبارا حقيقيا وعمليا للمعاهدة السوفيتية المصرية". كل ذلك يقودنا إلى فكرة أن قصة هذا الحديث (الذى أورده هيكل فى كتابه – المترجم)(*) قد أوحى بها السادات إلى هيكل، أو أن هيكل قد اختلقها جزئيا.

فى هذا الحديث اكتفى السادات بالحديث مغمغما حول عدم قدرة مصر "تحمل" مثل هذا الوضع وأنه لا يستبعد "انفجاره".

صـ ٢٦ : فى اجتماع مجلس الأمن القومى فى الثانى من أكتوبر عام ١٩٧٣ ألقى السادات تصريحا مثيرا للانتباه حول أن الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية مستعدان، على ما يبدو، للتوصل إلى اتفاقٍ حول كل القضايا، بما فى ذلك قضية الشرق الأوسط، ولهذا فإن لدى مصر، على حد قوله، فرصة أخيرة للقيام بأعمال مؤثرة.

كان السادات يعلم جيدا أن الاتحاد السوفيتى لاتربطه بالولايات المتحدة الأمريكية أية معاهدات بشأن الشرق الأوسط، لكنه كان بحاجة إلى أن يخلق انطباعا فحسب بوجود مثل هذا الاتفاق فى حالة إذا ما اعتزم الانتقال إلى انتهاج سياسة موالية للأمريكيين.

ليس هناك أى شيء مخالف لسياق الأمور فى زيارة الجنرال جونين إلى المواقع الإسرائيلية فى سيناء، والمصريون لم يلحظوا أية تغييرات فى توزيع القوات الإسرائيلية هناك بعد هذه الزيارة. والإسرائيليون كانوا على استعداد، لو افترضنا أنهم عرفوا بهجوم

(*) "... رفع (السادات) سماعة التليفون وطلب من سكرتيره أن يتصل بالسفير السوفيتى ويبلغه أن الرئيس ينتظره فى الساعة السابعة، وحين جاء السفير قال له الرئيس إنه لم يعد فى استطاعتنا أن نتحمل العجرفة الإسرائيلية أكثر من ذلك، وأشار إلى تصريح بيان فى شأن ميناء ياميت، ثم قال: «وربما نجد أنفسنا مضطرين إلى التحرك بسرعة». وقال السفير السوفيتى ما يقوله السفراء السوفيت عادة: «سأبلغ موسكو». فقال الرئيس: «أرجو أن تبلغ ذلك لبريجنيف فقط». فرد فينوجرادوف: أظن أننى أعرف – ومن دون حاجة إلى انتظار رد بريجنيف – ما سيقوله. إنه سيقول إن القرار قراركم، وإننا – كأصدقاء – سنبذل كل ما فى وسعنا لمساعدتكم». وقال الرئيس: «قل لبريجنيف إن الأيام المقبلة ستكون اختبارا حقيقيا وعمليا للمعاهدة السوفيتية – المصرية». (ص ٢٤)

مصرى متوقع، للتضحية بمقاتليهم على خط بارليف من أجل التوصل إلى "أهداف سياسية عليا". وبالمناسبة، فقد تبين، لسبب ما، أن عددهم هناك كان قليلا للغاية، فقد تركزت القوات المسلحة الإسرائيلية فى الشمال مستهدفة اجتياح السوريين على حدة، ما دامت مصر، بحسب توقعاتهم، لا نية لديها لمساعدتهم.

صـ ٢٧ : اعتراف صيغ على نحو بليغ يفيد أن إسرائيل كانت، على أقل تقدير، على علم بالاستعدادات الواضحة للقوات المسلحة المصرية على الأرض. وقد وصف هيكل سلوك الإسرائيليين بأنه سلوك "غريب"، لم يكن هناك شىء "غريب"، إذا ما افترضنا أن الإسرائيليين لم يريدوا ما كان ظاهرا للعيان، بما أن كل شىء كان يسير حتى الآن وفقا لخطة مُعدة سلفا. باختصار، لا ينبغى أن نعتبر أن الإسرائيليين هم أناس حمقى، بينما المصريون إلى هذا الحد من العبقرية والدهاء.

صـ ٢٨ : مرة أخرى يعود هيكل ليفسر على نحو ساذج سلوك الإسرائيليين الذين "ألغوا التعبئة دفعة واحدة، ثم أولوا اهتماما أقل بما يجرى من تطورات على الجانب الآخر من القناة". هذا "التفسير" السطحى يمكن أن يكون مناسبا للقراء قليلى الخبرة فى العالم العربى، الذين يطالعون مقالات هيكل. هؤلاء الذين غرقوا فى موجة "تحيا الوطنية".

إن الحقائق تقول إن إسرائيل لم توقف نشاطها الاستخباراتى فى مصر مطلقا، وقد تحدث هيكل بنفسه عن ذلك مرارا.

صـ ٢٨ : لم يكن ما نشرته وكالة أنباء الشرق الأوسط فى الثانى من أكتوبر عام ١٩٧٣ بشأن أن الجيشين الثانى والثالث قد وُضعا فى حالة تأهب من قبيل "الصدفة" بطبيعة الحال، ولم يكن من الممكن ألا تلاحظ إسرائيل هذا الخبر. فإذا كانت إسرائيل لم تتخذ أية إجراءات حيال هذا الخبر، فإن ذلك يعنى أن ذلك كان قرارًا واعيًا من جانب القيادة الإسرائيلية.

صـ ٢٩ : من المثير للانتباه هذه التفاصيل التى أوردها هيكل بشأن البرنامج المعد مسبقا لتهيئة الرأى العام لبدء العمليات العسكرية بمبادرة من مصر، إذ تم إعداد الأمر بحيث يتم التذرع بأن إسرائيل هى التى بادرت بالقيام بعمليات عسكرية!

صـ ٣٠ : اعتراض السوريين على الحل المنفرد من جانب المصريين، الذين لم يراعوا مصالحهم، المهمة تماما، كان اعتراضا منطقيا. فيما بعد، وبعد مرور نصف عام، صرح الزعماء السوريون فى أحاديثهم الشخصية علانية أن مصر "استغلت" سوريا لتحقيق مصالحها أكثر من مرة. إن كون المصريين لم يولوا اهتماما إلى طلب السوريين أن يمنحوهم فسحة من الوقت لتفريغ خزانات الوقود فى حمص، يعد مثالا على مثل هذا السلوك. وبالفعل فقد أشعل الإسرائيليون النيران فى مصنع لتكرير النفط وفى الاحتياطات فى أحد الأيام الأولى للعمليات العسكرية. وفى الوقت نفسه، بالمناسبة، لم تقم القوات الجوية الإسرائيلية بشن أى غارة على أى من المنشآت الصناعية المصرية، على الرغم من أن مركز الصناعة الحربية العربية موجود فى القاهرة تحديدا. أليس أمرا غريبا؟!

صـ ٣٠ : لو أن المصريين قاموا بالفعل بإقناع السوريين بشأن موعد بدء العمليات العسكرية على النحو الذى أورده هيكل فإن حججه فى هذا الشأن تكون ساذجة تماما. آنذاك كان هناك أمر واحد شديد الوضوح: لم يكن المصريون على اتفاق حتى فى هذا الأمر المهم مع السوريين، بل إنهم أصروا على موقفهم، الذى من شأنه إيقاع الضرر بالقرار السورى، هذا على الرغم من أن المصريين كانوا يعلمون أن الجيش الإسرائيلى كله متمركز ضد سوريا، وأنه كان على السوريين تحديدا أن يحملوا عبء الاتفاقات الإسرائيلية، ولو فى بداية الحرب.

صـ ٣٢ : إن التأكيد على أن الإسرائيليين فى الثالث من أكتوبر استبعدوا إمكانية شن حرب من جانب المصريين والسوريين يتناقض مع تأكيد مضاد آخر لهيكل. ينبغى ألا ننسى أيضا أنه بحلول تلك الفترة كان الأمريكيون يملكون بين أيديهم، كما يؤكد الكتاب، الخطة المصرية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت القوات المسلحة المصرية قد أجْرت بالفعل "مناورات"، وحتى الضباط فى أركان الحرب أصبحوا يرتدون ملابس الميدان وأغلقت الكليات العسكرية فى مصر، كما تم رفع كبارى العبور من مواقع التدريب فى النيل. وهناك حقيقة أخرى بالغة الأهمية وهى البدء فى الإخلاء الجماعى لأفراد عائلات العاملين السوفيت فى كل من مصر وسوريا. كما ينبغى ألا ننسى التصريحات الواردة فى الكتاب، والتى أدلى بها العسكريون المصريون بشأن أن إسرائيل سوف تعرف حتما بموعد بدء

العمليات العسكرية قبلها بأربعة أو خمسة أيام! الحديث هنا يدور عما جرى من أحداث وقعت فى الثالث من أكتوبر، أى قبيل بدء الهجوم بثلاثة أيام. وعليه فالإسرائيليون إما تظاهروا بأنهم لايعرفون شيئا عن استعدادات المصريين الواضحة والملموسة، وإما أن تقرير لجنة أجرانات ببساطة أخفى الحقائق، أى إنه كان تقريرا مزيفا.

صـ ٣٣ : أمر غريب: يورد هيكل العديد من الحقائق تؤدى مباشرة إلى وجود استعدادات ملموسة من جانب المصريين لبدء العمليات العسكرية، كما يتحدث فى الوقت نفسه عن فعالية المخابرات الإسرائيلية.(*) كل ذلك يتناقض مع تأكيده بشأن مفاجأة الهجوم المصرى. ومع ذلك فإن الكاتب يعزو تقاعس الإسرائيليين (ومن ثم الأمريكيين) إلى غطرسة الإسرائيليين، بزعم أنهم لم يكونوا راغبين فى رؤية وتصديق ما رأوه وما سمعوه! هل يمكن أن يكون هذا أمرًا جادًا؟

قلت لنفسى: أليست هذه اللغة التى يستخدمها الكاتب هى ذاتها لغة "إيزوب"(**) – يتحدث عن حقائق ولكنه يفسرها (يؤولها) على نحو آخر أو، ببساطة، لايفسرها (لايؤولها)؟

صـ ٣٤ : الواضح أن السادات لم يُحط هيكل علما برسالة القيادة السوفيتية المؤرخة الرابع من أكتوبر. لم تطلب هذه الرسالة على وجه الخصوص، السماح بإجلاء "المستشارين المدنيين السوفيت وعائلاتهم" من مصر. وإنما تضمنت أنه نظرا لصعوبة الوضع فقد قررنا السماح بمغادرة أفراد عائلات العاملين السوفيت فى مصر. تناول الحديث فقط أفراد

(*) ولدى الإسرائيليين – كما تعرف السلطات المصرية جيدا – هيئة تجسس نشطة تعرف باسم "مثيكال". وتتكون من عدد من اليهود معظمهم من المصريين – يتكلمون اللغة العربية. تسللوا إلى منطقة القناة وجُهزوا بأدوات إرسال المعلومات إلى إسرائيل. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء الجواسيس قد أبلغوا رؤساءهم ما حدث فهيأوا القيادة الإسرائيلية العليا فترة تحذير مدتها ست ساعات على الأقل. كذلك فإن القذائف التكتيكية نقلت إلى منصاتها فجر يوم ٦ أكتوبر. وكان هناك احتمال أن تكون عملية النقل هذه قد رصدت وأبلغت إلى الإسرائيليين أيضا وزودتهم بالتحذير. (ص ٣٢)

(**) لغة إيزوب: نسبة إلى كاتب الحكايات اليونانى إيزوب فى القرن السادس قبل الميلاد وهى لغة الكتابة الغامضة بهدف التمويه على الفكرة التى يضمرها الكاتب، وذلك باستخدام المجاز والاستعارة والخيال والسخرية والأسماء المستعارة وغيرها من الوسائل (المترجم)

عائلات العاملين، أى الزوجات والأطفال وليس الخبراء. وبالمناسبة فقد بلغ عدد الزوجات والأطفال الذين تم إخلاؤهم خلال عدة أيام من مصر ما يزيد على ٢٧٠٠ فرد.

صـ ٣٥ : مرة أخرى يعود هيكل للحديث عن استدعاء المستشارين المدنيين السوفيت، وهو ما لم يحدث فى الواقع. من هنا يصبح واضحا "المعاناة" المصطنعة للسادات تجاه ما يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة لموقف الاتحاد السوفيتى. وهذه من بنات أفكار هيكل. تضمنت رسالتنا ليس فقط الحديث عن دعم مصر، وإنما أيضا الإسراع بتوريد المعدات العسكرية! حتى إن السادات لم يكن بحاجة إلى أن يشغل فكره بما إذا كان سيتلقى مساعدات أم لا.

يمكن تفسير هذه التناقضات العديدة مع الحقائق بجهل الكاتب بالوضع الحقيقى للأمور، ومن هنا خياله ذو الطابع الأدبى حول ما عاناه السادات من "عذاب الشك". وإما أن السادات أوعز لهيكل برواية الرسالة بهذه الصيغة وعن إجلاء المستشارين، وليس أفراد عائلاتهم وعن "شكوكه"، بعد أن صمت، بالطبع، عن استعداد الاتحاد السوفيتى لتقديم الدعم، وهو ما تم التعبير عنه فى الرسالة السوفيتية.

صـ ٣٦ : حسنا. هاهو إثبات آخر يأتى على نحو عفوى أن الإسرائيليين لاحظوا تمركز معدات العبور المصرية ليس فقط فى التاسعة والنصف من صباح السادس من أكتوبر، وإنما أيضا فى الخامس من أكتوبر. وهل كان من الممكن ألا يُلاَحظ ذلك الأمر؟ وكيف يمكن الحديث عندئذ عن "مفاجأة" الهجوم المصرى؟ كم مرة يقع الكاتب فى تناقض مع نفسه!

صـ ٣٦ : دليل آخر يتمثل فى أن الإسرائيليين كان عليهم أن ينتبهوا على الأقل. هيكل الوحيد الذى لم تكن لديه معلومات دقيقة: فالمستشارون السوفيت لم يجر إجلاؤهم، وإنما أفراد عائلاتهم الذين وصلت لنقلهم طائرات إيليوشن، وليست طائرات توبيلوف.(*)

صـ ٣٦ : مرة أخرى يقدم هيكل تأكيدا بعيدًا عن الحقيقة مفاده أن القيادة الإسرائيلية لم تستطع أن تصدق هذا السيل المتدفق من المعلومات الواردة عن تحرك القوات المصرية. هكذا صوّر هيكل الإسرائيليين باعتبارهم أناسًا شديدى الحمق!.

(*) يورد هيكل فى كتابه أنها كانت ست طائرات من طراز إيليوشن بالفعل (ص٣٦) (المترجم).

صـ ٣٨ : لم يأت السادات فى لقائه الذى تم معى فى السادس من أكتوبر على ذكر إجلاء المدنيين السوفيت ولم يعبر عن استيائه بشأن توريد المعدات السوفيتية (يبدو أن ذلك، مرة أخرى، نتيجة لمعلومات موجهة صدرت عن السادات).

على العكس من ذلك، فقد بالغ السادات فى هذا اللقاء فى المجاملة، بل إنه قال لىّ إن "أحداثا" ستقع فى الساعة الثانية ظهرًا – ما هى هذه الأحداث، لم يقل، لكنه أعرب عن أمانيه أن يكون السفير السوفيتى قريبًا منها، لكنه "استدرك" قائلا إنه ينبغى على السفير السوفيتى أن يبلغ موسكو عن حديثنا ، ومن ثم فإن عليه أن يذهب إلى السفارة. باختصار، فالسادات ظل "يناور" حتى اللحظة الأخيرة.

صـ ٣٩ : لم يجر السفير السوفيتى فى هذا اليوم أى حديث مع حافظ إسماعيل، ولهذا لم يكن على الكاتب أن يستخرج هذا الاستنتاج متعدد المعانى حول "سرعة الاتصال" بين واشنطن والقاهرة والقدس وموسكو. كان هذا "فرقعة" صحفية!

صـ ٤٠ : اتصل السادات بالسفير السوفيتى فى الساعة الثانية والنصف ظهرًا، وليس فى الثالثة والنصف، وقد التقط سماعة التليفون السكرتير وفاء جوليزادى، وليس "خادم" السفير، حيث إن السفير ليس لديه خدم.

صـ ٤١ : لم يبلغ أحمد إسماعيل السفير السوفيتى بأية معلومات حول سير عملية عبور القناة، وإنما اكتفى (وعلى نحو كئيب) بتكرار ما قاله السادات للسفير السوفيتى بفرح وحماس بأن القوات المصرية قد عبرت القناة. وقد أجاب أحمد إسماعيل بحزن بالغ على تمنيات السفير المهذبة النمطية بقوله: "إن شاء الله!".

صـ ٤١ : عبثا تحدث هيكل باستخفاف عن حذر المستشارين العسكريين السوفيت بشأن صعوبات عبور الحاجز المائى – القناة. وهو حذر فى واقع الأمر صحيح تماما، وقد بذل الخبراء العسكريون السوفيت جهودا فائقة فى تدريب المصريين على تجاوز الحواجز المائية.

لماذا عبر المصريون القناة بمثل هذه السهولة وبأقل قدر من الخسائر (يُقال إن الخسائر إجمالا بلغت حوالى مائة وخمسين فردا، وهو ما يستطيع رامى رشاش واحد

أن يحصد به عددا أكبر بكثير من الجنود). يمكن أن نجد إجابات كثيرة على هذا السؤال. هنا يمكن أن نتحدث عن التدريب العسكرى الذى تحقق على يد المستشارين العسكريين السوفيت وعن النوعية الجيدة للسلاح السوفيتى والذى لم يكن كثير من الناس فى مصر يثقون فيه، وكذلك التعبئة النفسية الرفيعة للقوات المصرية التى كان لديها هدف واضح انتظرت طويلا لتحققه، وربما لكل هذه الأسباب معا.

صـ ٤١ : لم يعقد السفير السوفيتى أية اجتماعات، ناهيك عن أن تكون "عاجلة" مع "اثنين من الجنرالات" من أعضاء السفارة لمعاونته فى إعداد تقرير يبعث به إلى موسكو. هذه ترهة محضة – قصة ابتدعها الكاتب.

صـ ٤٢ : لو أن كيسينچر أبلغ المصريين بعد نشوب العمليات العسكرية أن عليهم أن ينتظروا هجومًا إسرائيليًا مضادًا ومكثفًا، لكان ذلك معناه أن الأمريكيين كانوا على ثقة من انتصار إسرائيل، لكنهم أعلنوا أنهم لن يسمحوا باحتلال إسرائيل لأراضٍ جديدة – فما الذى يعنيه ذلك؟ لو أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على يقين من أن مصر تتخذ موقفًا معاديًا للأمريكيين، مهما كان شكل هذا الموقف ولو ظاهريًا، فهل كان باستطاعة الأمريكيين أن يخرجوا بهذا التصريح، فى الوقت الذى كانت "صديقتها وحليفتها" أو، إن شئنا الدقة، صنيعتها – إسرائيل، تعانى من الهزيمة (حتى حينه)! إن تصريح كيسينچر يمكن أن يكون تأكيدا على أنه كانت هناك "قواعد للعبة" مخطط لها سلفًا فى هذه الحرب، لايُسمح للمشاركين فيها – مصر وإسرائيل – بتخطيها. كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى قائد الأوركسترا وهى المُخرج لهذه اللعبة المخططة، ومن هنا كانت شرعية هذا التصريح العجيب الذى قاله كيسينچر للمصريين من أن إسرائيل سوف تنزل بمصر ضربة بقوة محسوبة مسبقا، أى إن الولايات المتحدة الأمريكية لن تسمح لإسرائيل باحتلال أراضٍ جديدة.

صـ٤٣ : عبارة كيسينچر التى وجهها للمصريين: "آمل ألا تتصرفوا على هذا النحو حتى لاتخرج الأمور من أيديكم" قيلت بعد بدء العمليات العسكرية، ولو أنها قيلت قبلها لكانت تحمل ربما معنى آخر. وكونها قيلت بعد أن اندفع آلاف الجنود المصريين ومعهم أسلحتهم ودباباتهم إلى الضفة الشرقية لايعنى سوى التذكير بالقواعد التى وُضِعت سلفًا

ودعوتهم إلى الالتزام بها. باختصار فقد طَلَبَ كيسينچر السيطرة على العمليات العسكرية. إن هذه العبارة التى أوردها هيكل فى كتابه تؤكد أفضل من أى شىء آخر تداول فكرة الاتفاق الذى عُقد سلفا بين الجانبين المتحاربين والولايات المتحدة الأمريكية كحقيقة فى حد ذاتها؛ فضلا عن أنها تؤكد على طابع العمليات العسكرية التى جرت فى أكتوبر ١٩٧٣.

صـ ٤٣ : يطرح هيكل هنا سؤالا منطقيا – كيف حدث على أية حال أن الإسرائيليين فوجئوا تماما سواء من الناحية الاستراتيجية أو التكتيكية؟ على أنه يعطينا إجابة ساذجة: إن الإسرائيليين، على حد قوله، أساؤوا فهم مسيرة التاريخ. إجابة سطحية. لاتليق به. أم تراه، ربما، لم يشأ أن يذكر الإجابة الصحيحة؟

صـ ٤٤ : غير صحيح ما أكده هيكل أن الإسرائيليين كانوا مستعدين لإغراق قناة السويس... بالنابالم! لقد سرت شائعات حول إمكانية صب مازوت أو وقود الديزل أو أى نوع آخر من المشتقات البترولية، التى يمكنها أن تشعل القناة. على أنه قد تبين أن هذه المعلومات غير مؤكدة.

الفصل الثانى. "الأيام الأخيـــرة لنــاصر"

صـ ٤٨ : قام هيكل بتشويه طابع المباحثات التى دارت مع ناصر على نحو فظ. فالاتحاد السوفيتى لم يطلب مطلقًا أية تسهيلات فى مصر، بما فيها الأراضى. أما ما ورد بشأن طلب السوفيت رفع "الراية الحمراء" فمن الواضح تماما أنه قيل من قبيل الاستظراف.

لسبب ما يخشى هيكل أن يذكر الحقيقة حول موقف الاتحاد السوفيتى. وأحيانا يتظاهر عن قصد بالشجاعة – انظروا، إننى لا أدافع عن الاتحاد السوفيتى. إنه يستخدم هذا الأسلوب وكأنه يسعى ليضفى الاحترام على صحة ما يقول.

صـ ٤٩ : حسنا فعل هيكل عندما لم يخش أن يذكر مآثر محمد فوزى وزير الحربية الأسبق، الذى أدانه السادات بتهمة سخيفة هى "خيانة الدولة"، وفى حقيقة الأمر فالذين جاءوا بعده هم الذين حصدوا نتاج غرسه.

صـ ٥٠ : عبثا ألصق هيكل بالمارشال زاخاروف خصالا ليست فيه، وخاصة القسوة الشديدة. وها هو يعود بعد ذلك ليقيمه تقييما جيدا وعادلا على هذا العمل الذى أداره لإعادة بناء الجيش المصرى بناء كاملا تقريبا بعد هزيمة مادية ومعنوية مُنى بها فى عام ١٩٦٧.

صـ ٥٤ : عبارة سيسكو حول أن مصر لا يمكنها أن تُعوِّل على عودة كل الأراضى المحتلة وإقامة السلام، هى من العبارات المميزة لسيسكو. والأفضل الحديث عن موقف الولايات المتحدة المدافع المخلص عن المصالح الإسرائيلية، حتى إن السادات قال ذات مرة للسفير السوفيتى إن المصريين لن يسمحوا بدخول سيسكو إلى الأراضى المصرية. على أن ذلك لم يمنع السادات فيما بعد من أن يعتبر سيسكو "صديقه".

صـ ٥٤ : لا يزال هيكل مولعًا بأساليب البلاغة الأنيقة فى كتابته، والتى لايكون لها مغزى أحيانا. فنجده يضع على لسان ناصر عبارات تبدو جميلة، لكنها فى الواقع كانت تسىء للرجل فى كل الأحوال. بل كانت تصور ناصر نفسه فى صورة غير جادة. كيف لناصر أن يقول إنه طلب من الاتحاد السوفيتى معدات للعبور مع ضرورة إعادتها على الفور بعد عبور قناة السويس إلى الضفة الغربية حتى لايتمكن من عبر إلى الضفة الشرقية من العودة مرة أخرى؟

إذا افترضنا أن ناصر استطاع أن يقول ذلك فى فورة حماسه باعتبارها جملة بليغة، فلم يكن على هيكل أن يقتبس هذه الجملة بالضرورة من ناصر على هذا النحو من الجدية. من المدهش أن نجد هيكل يوائم كثيرا بين الذوق الردىء والموهبة فى وصف الأحداث.

صـ ٥٦ :. يرى هيكل، وهو على حق فى ذلك، أن هدف ناصر تمثل فى جر الاتحاد السوفيتى أكثر فأكثر بقدر الإمكان إلى قضية الصراع فى الشرق الأوسط. وفى حديثه معى، على سبيل المثال، فى مارس ١٩٧٠، حاول ناصر أن يطور فكرة أن الصراع يُعد فى جوهره صراعًا سوفيتيًا أمريكيًا، بل هو بمثابة مواجهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. وقد بيّنت له، بطبيعة الحال، خطأ هذا المدخل.

صـ ٦٥ : يعطى هيكل انطباعا خاطئا كما لو أن الاتحاد السوفيتى قد أخرج يارنج من حساباته، غير عابئ به. كان الأمر على النقيض من ذلك. فالاتحاد السوفيتى، كان الدولة

الوحيدة، ربما، التى أيدت وبشدة مهمة يارنج، مُراهِنةً عليها، مُحاوِلةً بكل الوسائل دعم هذه المهمة. بالطبع، فقد كان من الواضح فى هذه الفترة أيضا ما يقوم به أعداء مهمة يارنج الأشداء، وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، التى كانت تريد أن تقوم بدور الوسيط بنفسها وعلى نحو منفرد.

صـ٦٥ : مرة أخرى يكرر هيكل أكذوبة السادات التى يزعم من خلالها أن مصر تدفع مرتبات المستشارين العسكريين السوڤيت بالعملة الصعبة. هذه الشائعة المستفزة، التى انتشرت بهدف إثارة السخط على قرار ناصر بدعوة المستشارين السوڤيت.

صـ ٦٥ : ترهة هيكل الدورية التى تزعم أن قسطنطين مازوروف كان مسؤولا عن قضايا حركة التحرر الوطنى.

صـ ٨٨ : آنذاك (١٩٧٧) لم يكن من الممكن أيضا الحديث عن توريد طائرات الاستطلاع م – ٥٠٠. هذا الموضوع لم يُطرح إلا بعد وفاة ناصر (١٩٧١).

صـ ٩٠ : كثيرا ما يقوم هيكل "بتنظير" أمور غاية فى البساطة. فالطيارون الروس لم يكن بمقدورهم تبادل الحديث سوى باللغة الروسية.(*)

صـ ٩٠ : من الواضح أن هيكل يختلق هنا موضوع استعراض الاتحاد السوڤيتى لوصول العسكريين السوڤيت إلى مصر. الأمر على العكس تماما، لقد تم بذل أقصى جهد وعلى نحو عقلانى قدر الإمكان لتجنب انتشار أية معلومات عن وجود عسكريين سوڤيت فى مصر. وفى الوقت نفسه عبَّر ناصر وهيكل عن رغبتهما فى أن يكون وصول العسكريين السوڤيت لافتا للنظر. كان ذلك من شأنه أن يساعد توجههما فى جذب الاتحاد السوڤيتى إلى أقصى حد إلى قضية الشرق الأوسط. ولهذا فنحن لسنا مضطرين للحديث عن مشاركة الاتحاد السوڤيتى فيما يسمى "لعبة الأمم الكبرى" فى الشرق الأوسط، فالاتحاد السوڤيتى لم يشارك إطلاقا فى هذا النوع من "اللعب"، وكان دائما يتعامل مع الحروب بحذر ومسؤولية كبيرين.

(*) حول تبادل الطيارين الروس الحديث فيما بينهم باللغة الروسية عند مطاردة الطائرات الإسرائيلية وتفسير هيكل ذلك بأنها إشارة إلى الأمريكيين بأن السوڤيت وصلوا إلى مصر. (المترجم)

صــ ٩٤ : لا أتذكر الموقف الذى وصفه هيكل بخصوص "الورقة" التى تم تبادلها فى الكرملين. فإذا كان هذا الموقف قد حدث فعلا فإن ذلك يعنى أن ذكرها جاء بمثابة تحذير للسادات الذى كان يستعد لعمل انقلاب، وهل الانقلاب عمل فارغ، كما وصفه هيكل، مجرد "ورقة صغيرة"؟ مستحيل أن يكون ناصر قد رأى فى هذا العمل "بيروقراطية زائدة عن حدها". (*)

صــ ٩٥ : يخطئ هيكل هنا، فقد أشار الجانب السوفيتى آنذاك على ناصر بقبول ما عُرف "بمبادرة" روجرز، إذ رأى أنها يمكن أن تكون مفيدة للمصريين فى تلك الظروف، فالمصريون لن يخسروا فى الواقع شيئا، بينما كان على الإسرائيليين الالتزام بالقيام بمشاركة فعَّالة فى "مهمة" يارنج، الأمر الذى لم يكونوا يرغبون فى عمله. الواضح أن هيكل يخلط بين "المبادرة" وبين ما عُرف باسم "خطة روجرز"، التى ظهرت بعد ذلك، والتى كانت تنظر فى انسحاب القوات الإسرائيلية من الضفة الشرقية للقناة حتى الممرات الجبلية ثم فتح قناة السويس أمام الملاحة لكل الدول بما فيها إسرائيل، وبدء المفاوضات المصرية الإسرائيلية. وقد رفض المصريون هذه الخطة التى طُرحت عام ١٩٧١، بينما قبلوا فى عام ١٩٧٤ الطبعة الأسوأ كثيرا منها (حدث ذلك بعد النجاح العسكرى فى أكتوبر).

صــ٩٦ : يحاول هيكل دون لباقة أن يسوغ مبررا لخطأه الفاحش الذى ارتكبه هو تحديدا عندما تولى المسؤولية باعتباره وزيرا للخارجية بالنيابة. ما معنى "قيل لنا إن كل شيء (وقف إطلاق النار – المترجم) يجب أن يتم خلال ساعات؟" من الذى قال؟ وماذا عن هذا الفرض؟ وفى الوقت نفسه، فقد اعترف هيكل فى حديثه مع السفير السوفيتى أنه،

(*) "وقد شهد هذا الاجتماع الذى عُقد فى الكرملين حادثا غريبا، إذ رأينا الباب يفتح على غير انتظار ويدخل منه أحد كبار المسؤولين فى وزارة الخارجية ويعطى فلاديمير فينوجرادوف نائب وزير الخارجية ورقة صغيرة قرأها، ثم أعطاها لجروميكو وزير الخارجية فقرأها، ثم قام من مقعده وأعطاها لكوسيجين فقرأها، ثم أعطاها لبريجنيف. فقرأها، ثم أعادها لكوسيجين فأعطاها بدوره لبودجورنى فقرأها، ثم أعادها إلى كوسيجين (...) قال لىّ عبد الناصر: «أرأيت ما حدث؟» قلت: «تعنى تلك الورقة الصغيرة؟» قال: أجل..أليست هذه بيروقراطية زائدة عن حدها..فإذا كان مجرد إرسال برقية إلى الجنرال زياد فى الصومال يتطلب توقيع الثلاثة كلهم، إذن فإننا فى مأزق. ولقد فهمت الآن السبب فى أن طلباتنا تستغرق مثل هذا الوقت الطويل قبل أن تظهر نتائجها» (ص٩٤).

وهو الذى لايملك صلاحيات كافية، راح "يدرس" ما ذكره الأمريكيون فى نص اقتراحهم "وقف إطلاق النار مع بقاء القوات فى المواقع التى يشغلونها". (standstill ceasefire). فى الواقع فإن هذا المصطلح، كما هو معروف، لم يرد من قبل فى القضايا الدولية. عموما فإن هذا الشرط يعد شرطا استفزازيا لأنه لامعنى له. ما الذى يعنيه إذن هذا الشرط بصفة عامة عند التطبيق الدقيق له: هل يعنى أن على كل الجنود أن يلزموا أماكنهم وألا يتحركوا إلى الأمام أو إلى الخلف؟ يبدو أن الأمريكيين قد أوقعوا المصريين فى الفخ.

صـ ١٠٤ : من جُماع المشهد الذى جرى وصفه على نحو درامى لموت ناصر يظل هناك شىء غامض: من الذى استدعى ڤ. ب. بولياكوف القائم بالأعمال السوڤيتى لدى مصر فى الساعة السادسة مساءً إلى منزل الرئيس؟ ولماذا؟ لقد وصل بولياكوف إلى هناك وظل فترة طويلة دون أن يهتم به أحد، لم يتحدث إليه بكلمة إلى أن غادر منزل الرئيس دون أن يلحظه أحد.

أمر آخر يبقى غامضا فى وصف هيكل. هل وصل هيكل عندما كان ناصر لايزال على قيد الحياة، أم أنه دخل إلى غرفة نوم ناصر بعد أن أسلم الروح؟ ليت الأمر كان واضحا هنا.

صـ١٠٧ : تصريح غريب تماما أعلنه السادات فور وفاة ناصر عن ضرورة مناقشة موضوع مد وقف إطلاق النار، الذى ينتهى فى التاسع من نوفمبر. توفى ناصر فى الثامن والعشرين من سبتمبر، أى قبيل التاسع من نوفمبر بشهر ونصف تقريبا. ألم تكن فى رأس السادات أفكار أخرى فور وفاة ناصر؟

بالمناسبة، لماذا يُذكّرنا هيكل بذلك؟ وأى خصلة من خصال السادات يود هيكل أن يبرزها؟

صـ ١١٢ : تم هذا الحوار(*) بالفعل بين السفير السوڤيتى وهيكل على النحو الذى وصفه الأخير تقريبا، فيما عدا استشهاد السفير السوڤيتى، بطبيعة الحال، بما حدث فى المكتب السياسى. لماذا قرر هيكل أن يُضمِّن كتابه هذا المقطع؟

(*) "حين زارنى ڤلاديمير ڤينوجرادوف فى مكتبى فى الأهرام قلت له: «لماذا لا تأتى وتصبح سفيرا سوڤيتيا هنا؟» فقال: «محمد.. أنا مندهش. هل سمعت شيئا؟» فسألته عما يعنيه فقال: «قبل أن أحضر إلى هنا كان هناك اجتماع للمكتب السياسى، تقرر فيه اختيارى للسفارة السوڤيتية فى القاهرة» (ص ١١٢).

صـ١١٢ : شارك هيكل فى الاجتماعات التى جرت بين الكسىّ كوسيجين والقيادات المصرية فور الانتهاء من دفن ناصر. والحقيقة أن هيكل يخلط هنا بين الأمور كثيرا، فهو ينسب ما قاله علي صبرى إلى محمد فوزى، أما ما قاله كوسيجين فينسبه إلى زخاروف.(*) يصف هيكل مضمون الاجتماع على نحو دقيق تقريبا، الأمر الأهم أنه أورد بدقة دعوة القيادة السوفيتية للقيادة المصرية إلى ضرورة الحفاظ على الوحدة.

صـ ١١٣ : صحيح أن الكسىّ كوسيجين تحدث كثيرا عن ضرورة الحفاظ على الوحدة بين زعماء البلاد.

صـ ١١٣ : ينهى هيكل هذا الفصل من كتابه على نحو صائب ورائع عندما تحدث عن ناصر منصفا علاقاته مع الزعماء السوفيت، التى اتسمت بالقوة والصراحة. وهى كلمات تأتى على النقيض تماما من الطريقة التى تصرف بها أنور السادات – خليفة ناصر – فى علاقاته بالزعماء السوفيت.

الفصل الثالث: "السادات يسير عكس الريح"

صـ ١١٥ : يبرر هيكل اتصالاته مع الأمريكيين، وحتى انجذابه نحوهم، بأنها محاولات واعية "لتحييد" الولايات المتحدة الأمريكية، باعتبار أن ذلك يمثل ضرورة أساسية للمعركة القادمة مع إسرائيل.

(*) "وقد تحدث الفريق فوزى فى الاجتماع عن الموقف الجديد الذى نشأ نتيجة لبرنامج التسليح الأمريكى الجديد والضخم لإسرائيل، الذى يتضمن تزويدها بصواريخ "شرايك"، وكذلك بطائرات "الفانتوم" و"سكاى هوك" وأشار إلى مدى الأهمية القصوى بضرورة إحساس القوات المصرية، بعد وفاة عبد الناصر، بالثقة فى السلاح السوفيتى وبتدفقه المستمر على مصر. ووعد زخاروف بأن يبذل ما فى مقدوره، وأن يكن قد أعرب عن رأيه فى أن قائمة مشتريات السلاح التى قُدمت إليه كبيرة جدا (....) كذلك قال إنه يرى أن علينا بذل كل جهد لكى يحل المصريون محل كل الروس الموجودين فى مصر قبل بدء المعركة» (ص ١١٢).

يتحدث هيكل كما لو كان يؤيد "مغازلة" مصر للأمريكيين، وإنما إلى حد معلوم (وهو يعترف بذلك، على سبيل المثال، للسفير السوفيتى). فهل كان من الممكن الاعتماد بهذه الطريقة على "تحييد" الولايات المتحدة الأمريكية، أى إلزامها بوقف دعم إسرائيل (ناهيك عن عدم وقوفها أيضا إلى جانب العرب) أو حتى حثها على تخفيض هذا الدعم؟ إن التفكير على هذا النحو والمناداة به كان يعنى دخول الكاتب؛ فضلا عن شعبه نفسه فى متاهة.

ما وجه الاختلاف إذن بين وجهات نظر هيكل ووجهات نظر السادات بشأن العلاقة مع الولايات المتحدة الأمريكية؟ يبدو أن الاختلاف، إذا جاز القول، خلافا فى الكم لا فى النوع وحسب. لقد ذهب السادات بعيدا للغاية للقاء الولايات المتحدة الأمريكية، كما ابتعد كثيرا للغاية عن الاتحاد السوفيتى. على أية حال، كان هيكل يعول على إمكانية حدوث هذا الوضع، عندما تذهب مصر للقاء الولايات المتحدة الأمريكية، ولكنه كان يرى ضرورة تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتى، أو ألا تسوء هذه العلاقة على الأقل. كل هذا حساب باطل، لأن الولايات المتحدة الأمريكية كان بإمكانها تحسين علاقاتها مع مصر فقط عند تنفيذ الشرط الجازم المطروح مقدما وهو تقليص علاقات مصر مع الاتحاد السوفيتى. وقد صرح كيسينچر بذلك مباشرة وبما تميز به من صلف لهيكل وعلى نحو صريح.

يحكى هيكل أن كيسينچر طرح عليه صراحة خلال زيارته الأولى للقاهرة فى السادس من نوفمبر ١٩٧٣ ثلاثة شروط للتدخل الأمريكى فى النزاع العربى الإسرائيلى:

(١) لا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تضمن قيام إسرائيل بسحب قواتها من كل الأراضى التى احتلتها فى عام ١٩٦٧.

(٢) يجب ألا يعود الحظر مرة أخرى على تصدير البترول العربى إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الآخرين.

(٣) يجب أن تتخلص مصر من "الوجود" السوفيتى، أى أن تقلص بشدة علاقاتها بالاتحاد السوفيتى.

إذا كان هيكل صادقا فيما كتبه، فإنه يمكن القول، على الأقل، إلى أى نتائج سخيفة قد أدت الأيديولوجيا القومية "غير الطبقية".

صـ ١١٥ : إن الملاحظة التى أبداها هيكل بشأن رفض ناصر لأى شكل من أشكال "المغازلة" مع الولايات المتحدة الأمريكية لأمر مثير للفضول، وكذلك ما أشار إليه الكاتب مرتين بأن السادات، وبعد أن أصبح رئيسا، لم يكن مرتبطا "بميراث معاد للأمريكيين"، ومن ثم فقد استطاع المضى قُدُما نحو تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية، ثم القيام بانقلاب فى السياسة الخارجية للبلاد. ومن المميز، ونحن نتحدث عن تغيير طابع العلاقات المصرية الأمريكية بعد وفاة ناصر، أن الكاتب لم يأت مطلقا على ذكر ما الذى تغير فى موقف الولايات المتحدة الأمريكية فى علاقاتها بمصر وإسرائيل، فلايوجد ما يقال بشأنها هنا: فالولايات المتحدة الأمريكية لم تعد إلى مصر، وإنما مصر هى التى عادت إلى الولايات المتحدة مقدمة كل التنازلات الضرورية من أجل ذلك.

صـ ١١٦ : هكذا قام السادات بعد مرور ما يقرب من شهرين أو ثلاثة على توليه منصب الرئيس بممارسة لعبة سياسية نشيطة من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى. ولعل من الضرورى أن نلقى بالضوء هنا على هذا الظرف، إذ إن السادات ظل على مدى ما يزيد على ثلاث سنوات منذ توليه الحكم يؤكد فى تصريحاته للزعماء السوفيت (وللسفير السوفيتى أيضا) أنه لن يجرى أى اتصالات مطلقا مع الولايات المتحدة الأمريكية من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى دون أن يبلغه بها.

إن الواقعة التى وصفها هيكل، عندما فوضه السادات فى إبلاغ الأمريكيين على نحو سرى أن مبادرة السادات فى الرابع من فبراير(*) ١٩٧١ لم تكن مطلقا بإيعاز من الاتحاد السوفيتى، تمثل النموذج الأول من بين النماذج التى أصبحت معروفة فيما بعد، على تعاون السادات مع الأمريكيين، فالسادات لم يذكر كلمة واحدة للجانب السوفيتى حول هذه الاتصالات.

(*) "أن توافق مصر على مد فترة وقف إطلاق النار لمدة شهر، وأن يبدأ العمل فى تطهير قناة السويس، بشرط أن تكون إسرائيل مستعدة لانسحاب جزئى من سيناء مصحوبًا بجدول زمنى للانسحاب الكامل إلى حدود مصر الدولية بموجب القرار ٢٤٢".

ص ١١٧ : . لم يبلغ السادات الجانب السوڤيتى بفحوى الرسالة المهمة التى أرسلها إليه نيكسون. أتذكر فى هذا السياق المشاهد العاصفة التى أعدّها السادات للسفير السوڤيتى، عندما قمت من جانبى بالتلميح وعلى نحو مهذب بضرورة أن تكون هناك اتصالات سوڤيتية مصرية مستمرة، وأن يتم تبادل المعلومات والتنسيق فى العمل. لقد اشتعل السادات غضبا وتحدث صائحا عن أنهم فى الكرملين لايثقون فيه وما إلى ذلك. إن كتاب هيكل، بالمناسبة، يمثل أهمية كبرى حيث يسمح بكشف أكاذيب السادات – فى علاقته غير المخلصة تجاه القيادة السوڤيتية، وفى كل صراخه حول عدم الثقة فيه كان (والأرجح أنه سيكون دائما) أمرا مصطنعا. إن هيكل، أقولها ببساطة، يفضح السادات، ربما دون قصد منه.

ص ١١٨ : أصاب هيكل عندما قال إن السادات كان مختلفا تماما عن ناصر، وأنه لم يكن بإمكانه منافسته بأى مقياس من المقاييس. والدليل الساطع على ذلك أن السادات كان "مطلق اليدين" فى علاقته بالغرب. ما العجيب إذن فى أن يتولد لدى الجانب الروسى آنذاك الشك فى علاقته به؟

ص ١١٨ : يخلط (هيكل) الأمور عندما يلقى بالضوء على الزيارة "السرية" التى قام بها السادات إلى موسكو فى أوائل شهر مارس عام ١٩٧١. من الواضح أن أحدا لم يوفر لهيكل أى معلومات موثوق بها. كان الوفد المصرى يضم آنذاك، فضلا عن السادات، الفريق محمد فوزى وشعراوى جمعة، وكلاهما وجهت إليه بعد شهرين فقط تهمة "خيانة الدولة"، ناهيك عن أنهما لم يكونا، من الواضح، يشعران بالود تجاه هيكل، بل ويعتبرانه صديقا للأمريكيين وعدوا للنمو التقدمى لمصر. وهؤلاء لم يكن باستطاعتهما أن يقدما معلومات لهيكل، أما السادات فلم يكن بحاجة إلى إذاعة أية تفاصيل عن هذه الزيارة، فهو الذى أفشلها بنفسه؛ إذ اتسمت تصرفاته خلالها بالحمق وغياب الرصانة، الأمر الذى جعله يخفى الحقيقة عن أى شخص بطبيعة الحال.

لم يقدم هيكل فى هذا الشأن سوى بقايا معلومات حصل عليها من "مائدة غيره".

إن الجانب الشكلى المهم فى هذا الأمر، والذى قدمه هيكل، واستغله السادات بهدف إفشال المباحثات، يتمثل فى الواقع فيما إذا كان باستطاعة السادات أن يتولى قيادة

الطائرات السوفيتية الموجودة فى مصر بأطقمها السوفيتية، والتى تعد جزءا من القوات الجوية السوفيتية!

هذا الأمر كانت له مقدماته، عندما طلب ناصر فى حينه (وليس علي صبرى كما كتب هيكل) نشر طائرات قاذفة للصواريخ فى مصر (عليها علامات مصرية بطبيعة الحال)، بينما تقودها ٤ أطقم سوفيتية، مع الأخذ فى الاعتبار أن الإسرائيليين كانوا على علم بوجود إمكانات لدى مصر بتوجيه ضربة فى عمق إسرائيل إذا لزم الأمر، أى فى حالة قيام الإسرائيليين أولا بتوجيه ضربة فى العمق المصرى. كان هذا هو، إذا جاز القول، "سلاح الردع". لم يتطرق الحديث مطلقا حول تسليم هذه الطائرات للمصريين ولا بقيام الطيارين السوفيت بالخدمة لدى المصريين. ومن الضرورى أن السادات يعلم ذلك. كما أن الأطقم المصرية لم تكن مدربة على هذه الطائرات. باختصار، فإن الأمر كان واضحا دائما وضوح الشمس أمام الجميع. على أن السادات استغله عمدا بقصد إثارة الخلاف مع الزعماء السوفيت.

أسفرت المباحثات التى جرت فى موسكو عن الموافقة على إعطاء السادات طائرات من طراز تو – ١٦، وذلك بناء على الشروط التى تم الاتفاق عليها قبل ذلك مع ناصر بطبيعة الحال، وعلى الرغم من أنه قد تبين أن السادات لم تكن لديه أية تصورات واضحة عن تحركات مصر بشأن ما عُرف باسم مسألة "الاستراتيجية المشتركة". كل ما هنالك أن السادات اكتفى بالتأكيد على "ضرورة حل" أزمة الشرق الأوسط وطلب أسلحة ثم المزيد من الأسلحة، وقد اتضح أنه لم تكن لديه أية خطط محددة، بما فى ذلك الخطط العسكرية.

وعندما وصل الأمر إلى مسألة الطائرات تو – ١٦، أظهر السادات "تعاليه" وراح يعترض على أن تتلقى الأطقم السوفيتية لهذه الطائرات أوامرها من القيادة السوفيتية. بدأ فى الغضب ثم ازداد غضبه (أو تظاهر بأنه فقد أعصابه) وفى النهاية أعلن عن رفضه استلام هذه الطائرات، وهو ما أثار دهشة فوزى وجمعة.

إن كل الحوارات التى تتعلق بهذا اللقاء والتى أوردها هيكل بما فيها تلك التى وضعها بين أقواس، لم تحدث فى الواقع.

صـ ١١٩ : إنه لأمر عجيب أن يكون السادات قد أكد لهيكل أنه كان مضطرا أن يمثل دور الغاضب حتى يحصل فى النهاية على ما يريد.(*) فى الواقع أن السادات لم يحصل على شىء نتيجة تصرفه، على الرغم من أن طابع اللقاء إجمالا، بطبيعة الحال، كان مثيرا لاهتمام الجانب السوفيتى. على أن مقولة السادات حول كونه اتخذ موقف الغضب، لافتة للانتباه من زاوية أخرى. فالسادات "غَضِبَ" (دعنا نقل ذلك) بعد أن تلقى الموافقة على توريد طائرات تو– ١٦ ! لعله شعر بالفزع بعد أن وجد أن طلبه الذى ظل طوال الوقت يطرحه، والذى كان يبدو بمثابة حجر عثرة (ألقاه هو بنفسه) فى طريق علاقته بالاتحاد السوفيتى وقد تحقق؟ أو لعله كان يعوّل بالمناسبة على أن طلبه سوف يُرفض مرة أخرى، وعندئذ انهارت لعبته، عندما رأى أن تسلُم هذه الطائرات سوف يلزمه بشىء ما أمام الاتحاد السوفيتى.

صـ١٢٠ : إن التأكيد الذى أعطاه السادات للأمريكيين فى مطلع نوفمبر عام ١٩٧٠ بأنه سوف "يبعد الروس عن مصر" بعد إنجاز المرحلة الأولى من انسحاب القوات الإسرائيلية الموجودة فى سيناء هو، ربما، أكثر الاعترافات أهمية والذى يكشف عن خيانة السادات للاتحاد السوفيتى، إذ يجىء هذا التأكيد بعد شهر ونصف فقط على رحيل ناصر والوعود المنمقة التى قطعها السادات على نفسه بالإخلاص للاتحاد السوفيتى واستمرار الصداقة معه. شىء ما آنذاك كان معروفا حول مساعى السعوديين التى كانت موجهة لقطع العلاقات بين الاتحاد السوفيتى ومصر، وتقريب الأخيرة من الولايات المتحدة الأمريكية، وعن محاولات السعوديين القيام بدور الوسيط المباشر بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية. لكن أحدا لم يكن على الأرجح يتصور أن يكون حجم خيانة السادات بهذا القدر.

صـ ١٢٢ : إن اعتراف هيكل بأنه لو تم قيام اتحاد الجمهوريات العربية (مصر، سوريا، ليبيا) لما وجد السادات تأييدا له من غالبية الأعضاء سواء فى البرلمان الاتحادى أو

(*) "وكان من بين ما قاله لىّ (السادات) حين عاد من موسكو وروى لىّ ما حدث: "كان لابد لى من أن اتخذ موقف الغضب، لكنى فى النهاية حصلت على ما أريد"". (ص ١١٩)

فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى لهو اعتراف له دلالة كبرى! على أن هيكل لم يذكر الأسباب، وإن كان الأمر واضحا: إنه نهج السادات فى التعاون مع الأمريكيين وغياب الهيبة التى ينبغى أن يتحلى بها القائد التقدمى، ولأنه شخصية مخاتلة وغدَّار.

صـ ١٢٣ : لقد ذاق هيكل هذا الشعور الشخصى بالكراهية تجاه من أُطلق عليهم "المتآمرون" (كان هذا الإحساس رد فعل عكسى بدرجة معلومة، فالناصريون كانوا ينظرون بقدر من الشك تجاه مغازلة هيكل للأمريكيين ومحاولاته أداء دور المفسر الوحيد لوجهات نظر الراحل ناصر)، وكانت واحدة من التهم التى وجهها هيكل إليهم تتلخص فى أنهم... "كانوا يرددون مبادئ وأقوال عبد الناصر كالعميان" وأنهم كانوا "يبجلونه دون تفكير". لماذا كان حتما أن يقودهم ذلك إلى "المؤامرة" — أمر لازال غامضا. وحتى إذا افترضنا أن هؤلاء الذين أحاطوا بناصر قبل ذلك، والذين ساروا وراءه "كالعميان" وتآمروا بعد موته لنفس السبب، فإن سؤالا يطرح نفسه: ضد من كان "التآمر" آنئذ. من الواضح أن المؤامرة كانت ضد هؤلاء الذين وقفوا ضد ناصر وأرادوا أن يقضوا على الناصرية! لكن "المؤامرة" كانت ضد السادات. وهل يعنى هذا أنها كانت محاولة لمنع الخروج على الناصرية؟

إن هيكل يثير ببعض صياغاته أفكارا مباغتة تماما.

صـ ١٢٦ : إذن كان السادات يشعر بالشك الذى اعتمل فى نفوس الناصريين تجاهه فور وفاة ناصر! إن تأكيد هيكل على ذلك أمر، على ما يبدو، صحيح. غير أن هذا التأكيد يكشف لنا مرة أخرى إلى أى حد كان السادات ماكرا غدارا، إذ ظل يؤكد دائما على ثقته فى الناصريين المحيطين به حتى قبيل اعتقالهم بيومين فى الثالث عشر من مايو ١٩٧١!

صـ ١٢٨ : إن تأكيد الكاتب على أن السادات كان يريد إقامة الوحدة مع سوريا وليبيا، ومع ما يترتب على ذلك من تشكيل مؤسسات سلطوية جديدة وإجراء انتخابات جديدة (يمكنه عن طريقها التخلص من الناصريين) لأمر ذى دلالة. على أن ذلك التأكيد يتناقض مع ما ذكره الكاتب قبل ذلك فى صفحة ١٢٢، حيث أكد على أمر مختلف تماما.

صـ١٢٩ : يورد هيكل هنا قصة لايمكن تصديقها تتعلق بالجلسات الروحية، التى يزعم أن الناصريين كانوا يقيمونها للتحدث مع روح "ناصر". وقد نشر هيكل هذا الأمر فى صحيفة "الأهرام" فى حينه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيرا من المصريين شكّكوا فى صحتها. ومن ثم فإن المشهد كله يناسب ذهنية السادات، الذى كان يسعى للنيل من خصومه السياسيين بأى وسيلة.

صـ ١٣١ : لم يأت ظهور هيكل فى اجتماع اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكى العربى محض صدفة. لقد جاء (أو دُعى للحضور) لمساعدة السادات ومحمد فوزى، الذى كان يلقى دعما من هيكل آنذاك، والذى كان يرتبط به هيكل بعلاقة صداقة دائمة. ويزعم هيكل فى كتابه أن ناصر أبلغ الزعماء السوفيت فى حينه بالوحدة المقترحة مع سوريا وليبيا، وكان من المفترض، على ما يبدو، أن توهن هذه الحجة من عزيمة خصوم الوحدة، فموسكو أيدت هذه الخطوة.

إذا كان هيكل قد قال فعلا ما كتبه، فقد تصرف إذن على نحو يفتقد إلى الأمانة. صحيح أن ناصر تحدث بالفعل إلى الزعماء السوفيت فى يونيو ١٩٧٠ عن وحدة مرتقبة، على أنه تلقى ردا على ذلك اتسم بالموضوعية، مدعوما بالحجج حول أهمية التأنى فى اتخاذ مثل هذه الخطوة ودراساتها دراسة عميقة وما إلى ذلك. باختصار، لم يجد ناصر تشجيعا على الوحدة، بل على العكس من ذلك، فقد تلقى النصح بعدم التسرع فى التعامل مع هذه الفكرة. وعلى هيكل أن يتذكر هذه الحقيقة.

صـ ١٣٢ : هكذا بدأ السادات بالفعل المباحثات مع الأمريكيين باعتبارهم وسطاء حول "الحل الوسط" مع إسرائيل، وذلك فى مطلع عام ١٩٧١! وكان السادات قد أبلغ الاتحاد السوفيتى أنه لن يجرى أية مباحثات مع الأمريكيين.

صـ١٣٢ : لم تجر مباحثات المصريين فى مطلع شهر مايو ١٩٧١ على النحو الذى وصفها به هيكل. وإذا كان هيكل على علم بالحقائق فإن عليه أن يصف هذا المشهد السخيف عندما راح السادات يتحدث على انفراد مع روجرز، بينما جلس وزير خارجيته محمود رياض فى غرفة الاستقبال المجاورة، ومثله مثل أى شخص آخر، لم يكن رياض على علم

بالحديث الدائر بين روجرز والسادات. وقد ذكر رياض نفسه أنه شارك فى المباحثات شكليا فحسب.

من الواضح أن السادات بدأ بالفعل منذ هذه اللحظة فى بذل الوعود بعيدة المدى التى تتلائم وأمانى الأمريكيين(*).

صـ ١٣٣. لا يأتى هيكل على ذكر سيسكو الذى طار إلى القدس ثم عاد ليجرى مباحثات خاصة وعلى انفراد مع السادات.

حكاية الضابط الشاب التى زعم هيكل أنه أحضر ليلا للسادات شرائط مُسجلٌ عليها أحاديث تليفونية، لم يقبلها حتى أكثر الناس ميلا للتصديق من المصريين، وكانت موضع سخريتهم بل واعتبروها من الطرائف. وقد أوردها هيكل عبثا باعتبارها حكاية جادة. يبدو هنا وبقوة السيناريو الذى كتبه ومثّله السادات نفسه. بالمناسبة فإن اسم هذا "البطل" لايزال مجهولا حتى الآن.

صـ ١٣٣. لم يذكر الكاتب أى شىء (والأرجح أنه تصرف هنا بحصافة) عما سمعه السادات عند فحصه للشرائط التى أحضرت إليه، ولماذا جلس حتى الصباح إلى جوار جهاز التسجيل. كما أنه لم تذكر فى المحكمة أية "فضائح مدوية" بفضل الشرائط المسجلة. ليس من قبيل الصدفة أن المصريين ذوى الألسنة اللاذعة راحوا يتساءلون فى دهشة: ولماذا لجأ السادات بعد ذلك إلى حرق الأشرطة وعليها تسجيلات للمكالمات، وهى التى زعموا أنهم وجدوها فى وزارة الداخلية، إذ كان من الممكن ببساطة مسح المكالمات والاحتفاظ بهذه الأشرطة باهظة الثمن. لقد تم إضرام النار فى فناء وزارة الداخلية وقام السادات بنفسه أمام كاميرات التليفزيون بإلقاء الصناديق فيها، وفيما بعد عرضت هذه الملهاة فى فيلم تسجيلى.

(*) مذكرات محمود رياض، ١٩٤٨ – ١٩٧٨. البحث عن السلام... والصراع فى الشرق الأوسط. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨١، ص٣٥٤، ٣٧٢، ٣٧٣ (المترجم).

على أنه استنادا إلى الأحداث التى وردت فى الكتاب، والتى بدأت مبكرا فى صباح العاشر من مايو ١٩٧١، كان من المفترض أن يحاول السادات بوعى أن يخفى المعلومات عن السفير السوفيتى أو حتى يعد له أمرا مستفزا. وفى مساء الحادى عشر من مايو أجرى السفير السوفيتى حديثا وديا طويلا مع السادات، انتهى بسؤال وجهه السفير إلى السادات عمن يمكنه الآن التحدث معه بصراحة وكأنه يتحدث إلى الرئيس. وقد سأله السادات بدوره عن الدافع وراء هذا السؤال. فأجاب السفير بقوله إنه وبعد إحالة علي صبري إلى التقاعد فقد سرت شائعات مختلفة ونظرا للعلاقات العميقة بين البلدين على جميع المستويات، بما فيها العلاقات ذات الطابع السرى، فإن على السفير السوفيتى، بطبيعة الحال، أن يكون حذرا للغاية وألاّ يسىء التصرف مع من يتعامل معهم. أجاب السادات دون تفكير بقوله: "إن أفضل أصدقائى هم شعراوى جمعة والفريق فوزى وسامى شرف، وهؤلاء باستطاعتك أن تتحدث معهم بصراحة كما تتحدث معى". لقد ذكر لىّ السادات ذلك، ثم تبين أنه كانت لديه تلك "الأشرطة"، وفى الثالث عشر من مايو، أى بعد يومين فقط، قام باعتقالهم جميعا.

فيما بعد قصَّ السفير على هيكل هذه الواقعة وسأله كيف يفسر هذه الإجابة من الرئيس تحديدا على سؤال كان منطقيا تماما فى تلك الآونة. فأجاب هيكل على الفور أن السادات كان يتعامل مع السوفيت جميعهم على هذا النحو من الشك، وأنه كان يريد أن "يختبر" السفير السوفيتى فيما إذا كان وراء "المؤامرة". فعندما كان السادات يستمع إلى بعض الشرائط المسجل عليها مكالمات السفير السوفيتى مع بعض المسؤولين المصريين، الذين أشار السادات على السفير السوفيتى بالتعامل معهم، لم يجد أية "أدلة" تشير إلى تورط السفير السوفيتى فى "المؤامرة"، وعندها شعر، على حد قول هيكل، بالغيظ – هنا يتضح لنا واحدة من الخصائص بالغة الدلالة على علاقة الرئيس بالاتحاد السوفيتى.

صـ ١٣٤. يترك الكاتب لخياله العنان وهو يعلن أن الفريق صادق أقسم يمين الولاء للسادات فى الثانى عشر من مايو ١٩٧١ بعد أن نطق بعبارة واحدة. هذه رواية تثير ما هو أكثر من الشك. لم يكن خافيا على أحد أن رئيس الأركان (صادق) رجل شديد الطموح، وكان يتطلع بقوة إلى السلطة وقد نفد صبره على تحمل وزير الحربية الفريق فوزى. ظهر

ذلك فى التفاوت فى الوضع الاجتماعى والتفكير العسكرى، فصادق يمثل طبقة العسكريين العليا الموسرة، وهو من الأغنياء بالمفهوم المصرى، بل إنه كان مالكا لمصنع، وكان ميالا، بطبيعة الحال، للغرب. أما الفريق فوزى فيمثل بالنسبة له النقيض فى كل شىء. كان صادق لا يحب الاتحاد السوفيتى، وكان يرى أن العلاقة العسكرية معنا شر لابد منه. وقد أصبح فى النهاية وزيرا للحربية، وكما اتضح بعد ذلك أنه كان المنظم لعدد من التصرفات الاستفزازية الدنيئة ضد العسكريين السوفيت.

كان فوزى على العكس من ذلك. عمل من أجل تعاون أكثر قوة وإخلاصا مع الاتحاد السوفيتى.

لم تكن العلاقة الشخصية المتوترة بين كل من فوزى وجمعة وسامى شرف تجاه السادات بالأمر الخافى على صادق، ناهيك عن معرفته بميول السادات نحو أمريكا. وعلاوة على ذلك، ولسبب ما غير معلوم حتى الآن، كان صادق مدعوا على العشاء فى منزل شعراوى جمعة، حيث حضر العشاء أيضا كل من محمد فوزى وسامى شرف والسفير السوفيتى وكبير المستشارين السوفيت الجنرال أكونيف. إبان هذا العشاء انتقد جمعة وفوزى وسامى شرف السادات على نحو شخصى لتعاونه مع الأمريكيين، بينما التزم صادق الصمت واكتفى بالإنصات...

لايمكن أن نستبعد أنه لم يوجد إطلاقا "ضابط شرطة شاب" لديه شرائط تسجيل، وإنما كان هناك الفريق صادق، الذى أبلغ السادات بالكيفية التى تلائم نفسيته، ومن ثم فقد عيّنَه السادات وزيرا للحربية فور اعتقال فوزى. وكان ذلك متوقعا من الجميع.

ويصف هيكل أيضا سياق أحداث مايو وإنما على نحو مختلف بعض الشىء مقارنة بما قصَّه السادات نفسه على السفير السوفيتى. فوفقا للسادات فهو قد عرض على جمعة، على حد قوله، أن يختار بين أن يستقيل "طواعية" أو يقيله السادات بنفسه. وفى تلك الفترة، كما أخبر السادات السفير السوفيتى، كان السادات مهتما باختيار بديلين لمنصبين مهمين فى هذه الحالة: وزير الحربية (صادق) ووزير الداخلية (ممدوح سالم). وبعد أن أقال السادات شعراوى جمعة، أعلن الذين عُرِفوا "بالمتآمرين" عن استقالاتهم الجماعية

بالفعل و... توجهوا إلى بيوتهم ليناموا. كانت هذه الليلة تحديدا ليلة سهاد وأرق بالنسبة للسادات، فقد كان يتوقع قيام انقلاب ضده، أى أعمال صريحة يُواجه بها. لكن "المتآمرون" ذهبوا إلى بيوتهم ليناموا فى أسِرَّتهم.

من المؤسف أن هيكل لم يصف هذا السلوك الغريب الذى قام به "المتآمرون". فلو أنهم أرادوا أن يقوموا بانقلاب فما هى التهمة التى وجهها إليهم السادات لاحقا وما الذى لم يعترفوا به، أى لو أنهم أرادوا إزاحة السادات بالقوة لكان الأمر يسيرا عليهم، فقد كان على رأسهم جميعا القوات المسلحة والشرطة والمخابرات والبرلمان والاتحاد الاشتراكى العربى ووسائل الإعلام. لم يكن صعبا على هيكل أن يعبر عن موقفه بشأن إثبات تهمة "المتآمرين" "بخيانة الدولة"، وأنه قد حُكم عليهم بالإعدام شنقا فى البداية، وهو الحكم الذى استبدله السادات بالسجن المؤبد.

صـ ١٣٥. الكاتب ليس على صواب عندما يتحدث عن عدم وجود بعض الأعمال هنا أو هناك دفاعا عن المعتقلين، والحقيقة أنه لم تكن هناك بالفعل أية اضطرابات جماهيرية "فالمتآمرون" لم يُعدّوا الجماهير لانقلاب تقوم به الحكومة.

صـ ١٣٦. اتضح أن ما قاله الفريق فوزى حول أن "البلد سيباع للأمريكيين" هو مجرد تكهنات. ولمّا كان صادق يعلم أنه سيصبح حتما وزيرا، فقد نصح فوزى بالذهاب إلى بيته "ليستريح". وفى الوقت نفسه فقد وُضع منزل فوزى تحت الحراسة، أى إنه أصبح معتقلا بالفعل على يد رئيس أركان جيشه.

صـ ١٣٧. لم يكن السفير السوفيتى إبان مقابلته للسادات فى السادس عشر من مايو مُحرجا، فلم يكن هناك أى مدعاة لحرجه. بالمناسبة فهيكل لم يحضر هذه المقابلة، ولهذا لم يكن باستطاعته أن يحصل على أية معلومات حول هذه المقابلة إلا من خلال السادات نفسه، الذى كان عليه أن يجد أحدا ما ليوقعه فى "الحرج"...

كان السادات إبان هذا اللقاء مرتبكا للغاية، لم يكن شاحبا فحسب، وإنما كان مغموما، يتصبب العرق من وجهه دون توقف. هكذا كان الحال دائما مع السادات عندما يعتريه اضطراب شديد. اعترف السادات أنه لم يذق طعم النوم ثلاث ليال متتالية. إذن فملاحظة

هيكل حول أن السادات كان هادئ الأعصاب تملق يفتقد إلى الذكاء، فالسفير السوفيتى لم ير السادات على مدى السنوات الأربع التى قضاها فى الخدمة فى مصر فى هيئة من الارتباك أكثر من تلك التى كان عليها آنذاك.

صـ ١٣٧. يروى هيكل عن لقاء سامى شرف ببريجنيف فى موسكو على نحو غير دقيق. لم يكن سامى شرف رئيسا للوفد المصرى إلى المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى، وإنما كان الرئيس هو عبد المحسن أبو النور الأمين العام للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى. أما لقاء سامى شرف بليونيد بريجنيف فجاء بطلب من شرف بناء على تفويض مباشر من السادات!

لم يقل شرف إن ناصر عهد إليه تحديدا بمسؤولية الحفاظ على روابط الصداقة بين مصر والاتحاد السوفيتى، وإنما ذكر أن ناصر قد عهد بهذه المهمة إلى السادات وجمعة وفوزى وله.

صـ ١٣٨. من أين استمد هيكل هذه المعلومات المجافية للواقع تماما؟ لم يبحث سامى شرف إطلاقا مسألة إعداد معاهدة مع الاتحاد السوفيتى، ناهيك عن الحديث عن أن نص هذه المعاهدة، كما زعم هيكل، قد أعده سامى شرف. من الواضح، مرة أخرى، أن ذلك كان تضليلا من السادات.

وعلاوة على ذلك، فلم يتناول النقاش إنشاء أكاديمية عسكرية بحرية فى مرسى مطروح، وإنما عن تأسيس كلية عسكرية جوية مصرية هناك. وذلك بناء على طلب من السادات نفسه، وليس من الجانب السوفيتى.

صـ ١٣٨. لم يحدث أى اتفاق إبان مباحثات سامى شرف بشأن زيارة أحد الزعماء السوفيت إلى القاهرة. ولم يدر أى حديث فى هذا الصدد.

لقد جرى الأمر على نحو مختلف، فالرئيس السادات وبعد اعتقاله "للمتآمرين" طلب أكثر من مرة أن يحضر إلى القاهرة أحد الزعماء السوفيت، وفى الوقت نفسه طرح السادات فكرة عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.

من المرجح أن يكون الطلبان مجرد خطوة تكتيكية من جانب السادات. لم يكن السادات يُعوّل على زيارة على مستوى رفيع من الاتحاد السوفيتي إلى القاهرة، أو على موافقة على عقد معاهدة فى مثل هذه الظروف. وإلا لماذا شعر بالارتباك عندما تم إبلاغه بالموافقة على اقتراحيه؟

صـ ١٣٨. لم يحاول سامى شرف مطلقا أن يقنع السفير السوفيتى بعدم الدخول فى تعامل مباشر مع الرئيس السادات، بل إنه لم يطرح مثل هذا الموضوع عموما. وعلى ذلك فإن كل ما سبق، بما فى ذلك وصف رد فعل السفير السوفيتى، لم يكن سوى خيال محض اختلقه هيكل. وهذه القضية لها جوانب أخرى، فالسادات طلب أن يقوم السفير السوفيتى بزيادة اتصالاته بسامى شرف، وكأنه قد فوضه "بإحاطة السفير السوفيتى"، الذى كان قد وصل لتوه، "علما بمجريات الأمور".

صـ ١٣٨. بالطبع فقد أعطى السادات لهيكل نسخة مشوهة من المباحثات التى أجراها مع نيكولاى بودجورنى. الأمر الأهم أنه (هيكل) لم يذكر أن السادات كان مُصّرا قبل ذلك على عقد هذه المعاهدة. وقد تم تصوير الأمر ليبدو وكأن الاتحاد السوفيتى كان هو المبادر بعقد هذه المعاهدة.

صـ ١٣٨. يبدو التشوش السياسى واضحا تماما فى رأس الكاتب فى هذا المثال الذى طرحه، عندما حاول أن يقيم توازنا بين المعاهدة الإنجليزية المصرية عام ١٩٣٦، والتى استعبدت مصر، ومعاهدة الصداقة السوفيتية المصرية التى جعلت مصر دولة قوية ودعمت استقلالها. يا له من "قصر نظر" غريب من الكاتب!

صـ ١٣٨. بالفعل، طلب المصريون أن تكون المدة المحددة للمعاهدة خمسة عشر عاما، ومن المدهش للجميع، وهو ما لم يزعج السادات فيما بعد، أن يؤكد، عندما كان ذلك ضروريا له، أنه، كما يزعمون، كان مُصِرا على جعلها ثلاثين عاما، بينما وافق الروس على أن تكون لمدة خمسة عشر عاما فقط!

صـ ١٣٩. "الاستقبال الحماسى" الذى قوبل به الضيوف السوفيت فى شوارع القاهرة كان مُعدا إعدادا جيدا من قِبل مؤسسات السلطة، وهو أمر لايثير الدهشة. كما

أنه لاخلاف على أن أحدا (من الضيوف - المترجم) لم يتساءل عن مشاعر الجماهير تجاه جماعة علي صبري. فى أحيان كثيرة نجد الكاتب يلجأ إلى الاختلاق، فمن أين له هذا الكلام؟

صـ ١٣٩. تُعد رسالة نيكسون إلى السادات والتى يقترح فيها مواصلة الاتصالات حول "وسائل الدبلوماسية الهادئة" دليلا على مواصلة السادات لسياسته ذات الوجهين تجاه الاتحاد السوفيتى. فالاتحاد السوفيتى لم يُحط علما، بطبيعة الحال، بالاتصالات الجارية مع الأمريكيين.

صـ ١٣٩. علينا أن ندرك أن هيكل وصف بطريقة ساخرة كيف اقتنع نيكسون بتأكيدات الملك فيصل بأن البلشفية هى نتاج للصهيونية! من الواضح هنا أن هيكل يتباهى بمعرفته بفيصل، وفى الوقت نفسه لم يحدث مطلقا أن "اشتكى" هيكل للسفير السوفيتى من أن فيصل يمنع مقالاته من النشر فى العربية السعودية وأنه يعتبره عدوا له.

صـ ١٤٠. من أكثر الاعترافات الصريحة والمدهشة فى كتاب هيكل هو اعترافه، بل وتأكيده، على حقيقة أنه على الرغم من غياب أية تصريحات معادية لأمريكا، فإن السادات فى لقاءاته مع الزعماء السوفيت كان يقسم لهم أغلظ الأيمان بأنه لاتوجد هناك أية أعمال فى الخفاء، بينما كانت هناك مراسلات مستمرة بين السادات ونيكسون عبر القناة الموجودة بين المخابرات المركزية للولايات المتحدة (!) والمخابرات المصرية! مما يعنى وجود تعاون بين جهازى المخابرات فى البلدين. مثل هذه الخيانة للاتحاد السوفيتى لم تكن لتحدث بأى حال بالطبع فى زمن ناصر.

صـ ١٤١. لم يخبر السادات الاتحاد السوفيتى حتى عن هذه الاتصالات التى تمت مع الأمريكيين، عندما أبدوا اهتمامهم بإمكانية أن يكون لمعاهدة الصداقة السوفيتية المصرية تأثير على علاقة مصر بالولايات المتحدة الأمريكية، أى، من الناحية العملية، على التحركات القادمة وفقا "لخطة روجرز"، وكما ندرك من الوصف، فإن السادات واصل دعمه لآمال الأمريكيين؛ فضلا عن أنه أظهر صراحة استعداده للتعاون معهم من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى، على الرغم من أنه كان يبدى فى العلن رفضه "لخطة روجرز".

الخطأ هو أن أحدا لم يتصور أن السادات يمكن أن يتصرف على هذا النحو من الخسة.

صـ ١٤٣. فى عرضه لرد الفعل السوفيتى تجاه الأحداث التى وقعت فى السودان عام ١٩٧١ (*) يعود هيكل مرة أخرى ليعطى لنفسه قدرا كبيرا من الحديث بلا قيود مستندا إلى ما أخبره به السادات (على سبيل المثال، عن علاقته بعبد الخالق محجوب) وقد بات من الواضح أكثر أن السادات لم يكن ينقل إلى هيكل معلومات غير دقيقة فحسب، وإنما كان يتعمد فى كثير من الأحيان دفعه نحو تشويه الحقائق (للتشهير بالاتحاد السوفيتى فى كل الأحوال). من أين، على سبيل المثال، هذا الغباء الهائل فى التأكيد على أن "السوفيت" التقطوا المكالمة التليفونية بين السادات والنميرى؟

صـ ١٤٣. لدى هيكل حساسية مَرَضية بالغة تجاه النقد، وخاصة إذا كان هناك ما يشينه بشكل واضح، وحيث إنه كان يكتب، إلى جانب ما يكتبه من حقائق وأكاذيب، مقالات استفزازية أيضا عن الاتحاد السوفيتى تصل أحيانا إلى درجة العداوة، فقد كان كثيرا ما يُواجه بالنقد حتى فى أثناء لقاءاته الشخصية، كما كان هناك من ينبهون القادة المصريين إلى كتاباته، لكن الأمر لم يصل مطلقا – بطبيعة الحال – إلى حد أن يشرح أحد للمصريين كيف يكتب هيكل، أو عن ضرورة "التخلص منه"(**). وهناك أمر آخر، وهو على أى نحو كان السادات ينقل لهيكل ما يمكن أن يمثل مادة لمقالاته، الأرجح أن السادات كان يُحرض هيكل ضد الاتحاد السوفيتى بكل الوسائل، وكان أكثرها جدوى هو التضليل، فهيكل بعد وفاة ناصر لم يعد لديه منفذًا إلى الأوراق الشخصية للرئيس الجديد.

صـ ١٤٤. الحديث الذى ذكره هيكل إبان مأدبة الغداء، التى حضرها بوناماريوف، نُقل على نحو مُحرَّف تماما. إن الكاتب يستغل هنا بصفاقة وضع ضيفه من أجل أن يستعرض ذكائه، بينما يبدو الحضور أغبياء. لم يتصرف هيكل فى أثناء هذا الغداء،

(*) اعتقال شفيع أحمد الشيخ رئيس اتحاد نقابات العمال فى السودان وعبد الخالق محجوب الزعيم الشيوعى السودانى وآخرين وإعدامهم (المترجم).

(**) "أعرف أن القيادة السوفيتية تسيئ فهم الكثير مما أقول وأكتب، وأنها لمحت للرئيس عبد الناصر أنه يفعل خيرا لو فصلنى. وحين جاء بودجورنى إلى مصر فى يناير عام ١٩٧١ قال للرئيس السادات: 'هذا وقت التخلص من هيكل'". (ص ١٤٣).

أقولها بدماثة، على النحو الأمثل. لقد حاول هيكل في هذا الغداء أن يرد اعتباره في عيون السوفيت. هذا بالضبط ما أراده. لكنه لم ينجح في ذلك.

صــ ١٤٦. تحريف بشع للحقائق. لم يكن بيرجوس في ضيافة محمد رياض(*)، وإنما في ضيافة محمود رياض(**)، وقد ترك له، بالفعل، مذكرة، وقد قام الوزير، المخلص في علاقته بالاتحاد السوفيتي، بدعوة السفير السوفيتي فور انصراف بيرجوس مباشرة وسلمه وهو يشعر بالاستياء نسخة من "مذكرة" بيرجوس.

صــ ١٤٧. يختلق هيكل هنا حديثا عن "جماعة علي صبري"(***) وما إلى ذلك.

صــ ١٤٨. اعتراف مثير آخر حول الاتصالات بين المخابرات المصرية والأمريكية، وفي هذه المرة يرد ذكر اسم العميل الأمريكي يوجين ثرون (وكان نشاطه معروفا).

لم يخبر المصريون أصدقاءهم السوفيت، بطبيعة الحال، بشأن اتصالاتهم بالأمريكيين، على الرغم من أن الأمر كان يمس العسكريين السوفيت. ووفقا للاتفاق السوفيتي المصري، كان الجانب المصري ملزما باتخاذ كل التدابير الضرورية الخاصة بنظام مكافحة التجسس من أجل ضمان قيامهم بعملهم على نحو طبيعي.

صــ ١٥٠. الأرجح أن راندوبولو قد قُتل.

صــ ١٥٠. إلى هذا الحد يُعجب المصريون بالأسماء الألمانية، حتى إن هيكل اخترع للجنرال السوفيتي اسما هو... شفارتسكوف(****).

(*) محمد رياض: مساعد وزير الخارجية (المترجم).

(**) محمود رياض: وزير الخارجية (المترجم).

(***) "وقادنا هذا النقاش إلى الحديث عن جماعة علي صبرى. وقال (بوناماريوف): 'إن كل ما أطلبه بالنسبة إليهم هو محاكمة عادلة'" (ص ١٤٧)

(****) "صدرت التعليمات إلى اللواء سعد الشاذلي بأن يطلب إلى نظيره السوفيتي الجنرال شفارتسكوف مستشار رئيس الأركان أن يسحب ضباط الصواريخ الثلاثة، وأن يصدر أمرا بمنع جميع الخبراء السوفيت من الحديث مع أى مصرى في أى موضوع خارج نطاق شؤون التدريب». (ص ١٥٠)

صـ ١٥١. يكتب هيكل أن السفير السوفيتى دعاه إلى الحديث ومناقشة موضوع معه "بصفة شخصية وسرية للغاية". حسنا ثم لا يخجل هيكل أن يصف بعد ذلك هذا الحديث الذى دار بينهما. أليس لديه وازع من ضمير؟

صـ ١٥١. لم يقدم المصريون أى تقرير عن نتائج التحقيق.

صـ ١٥٢. مرة أخرى يود هيكل تأكيدا على علاقات الولايات المتحدة ومصر فى مجال الاستخبارات. لقد أطلق السادات سراح الجاسوسة الأمريكية فقط من أجل الإبقاء على هذه القناة مفتوحة(*).

صـ ١٥٤. لم يكن الخلاف فى وجهات النظر بين السادات ووزير خارجيته محمود رياض وهما، كما أعلن ذلك الكاتب، وإنما كان حقيقة. إن رياض الوطنى النزيه وصاحب الخبرة العريضة فى الاتصالات مع الأمريكيين، كان يدرك أهدافهم، ويعرف عادتهم أيضا. كان رياض ضد التواطؤ مع الأمريكيين (فضلا عن أن يتم ذلك من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى)، ومن الواضح أنه لم يكن على علم بالاتصالات السرية بين السادات ووكالة المخابرات المركزية، وفى كل الأحوال، فهو لم يكن مطلعا على مضمون الرسائل الدؤوبة بينهما. ليس من الغريب إذن أن قام السادات على الفور بإزاحة رياض من منصبه كوزير للخارجية، بعد أن راح يتعاون على نحو أكثر علانية مع الولايات المتحدة الأمريكية.

كان السادات قد غيَّر من نهجه، ولهذا راح يتعامل مع رياض بقدر من الريبة، الأمر الذى ساعد عليه أن رياض كان متعاطفا مع علي صبري، وكان يعتبره من أكثر الرجال ذكاءً فى البلاد.

(*) "كان لحكاية راندوبولو فائدة خاصة... من ناحية أنها كشفت عن طريق للاتصال بين مصر والولايات المتحدة أصبح فيما بعد على درجة كبيرة من الأهمية. هذا الطريق كان يبدأ من رئاسة الجمهورية فى مصر إلى إدارة المخابرات المصرية، ومنها إلى إدارة المخابرات الأمريكية، فإلى مجلس الأمن القومى الأمريكى وكيسينجر فى البيت الأبيض. وكان هذا الطريق والإبقاء عليه مفتوحا، هو السبب الذى من أجله وافق الرئيس السادات فى النهاية على إطلاق سراح مس سوين" (ص ١٥٢)

صـ ١٥٧. إن الملاحظة التى أبداها هيكل بشأن أن الاتحاد السوفيتى لم تكن له أية علاقة فيما يخص الخطط العسكرية المصرية هى ملاحظة صحيحة. بل إن الأمريكيين أنفسهم كانوا يرفضون فى وقت ما أن يصدقوا ذلك.

صـ ١٥٧. كان السادات يسمح لنفسه بالفعل بالتحدث على هذا النحو المفتقد إلى اللياقة عن الزعماء السوفيت. ودائما ما كان يحب أن يقارن نفسه تارة بستالين وتارة بتشرشل. باختصار كانت أكاليل المجد تقض مضجعه.

من الصفات المميزة لهيكل أنه كان يخشى أن يذكر أى شىء إيجابى عن الشخصيات التقدمية من طراز عزيز صدقى. وهو لم يُقدِّر على أى نحو حقيقة استبدال صدقى بمحمود فوزى لمنصب رئيس الوزراء. من الواضح أن هيكل، وقد كان قريبا دائما فى علاقته بالدكتور فوزى، كان على علم بالخلاف القائم بين محمود فوزى والسادات فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الأمريكية تجاه مصر. وتكشف الأحداث التى وقعت بعد عامين، أنه على الرغم من أن محمود فوزى كان يقف دائما إلى جانب إجراء اتصالات مع الأمريكيين واستغلالهم لصالح مصر، فإنه لم يستطع أن يوافق على المغازلة التى لاحدود لها، والتى كان يبديها السادات للولايات المتحدة الأمريكية، وقد ترك محمود فوزى منصبه باعتباره رئيسا للوزراء لهذا السبب تحديدا. وقد قصَّ هيكل على السفير السوفيتى عن الخلافات التى نشبت بين محمود فوزى والسادات.

صـ ١٥٨. يفتقد تأكيد هيكل بشأن إصابة القاذفات من طراز تو ١٦ إلى أى دليل، والأرجح أنه استمع إلى هذه القصة من السادات، الذى قام بتضخيمها بعد أن نجح فى الحصول على هذه الطائرات من الاتحاد السوفيتى. فبعد أن تسلم السادات هذه الطائرات وجد نفسه وقد فقد الحجة على توجيه الاتهامات للاتحاد السوفيتى، عندئذ قام بتلفيق هذه الحكاية ليثبت أنها دون المستوى! آنذاك كان المصريون قد بات باستطاعتهم العمل على الطائرات من طراز تو ١٦، التى – مثلها مثل أى طائرة – كانت، إلى جانب خواصها الإيجابية، بها عيب هو قلة سرعتها نسبيا. على أنها كانت مجهزة لقذف الصواريخ من الجو إلى الأهداف بعيدة المدى. فإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن المسافات المتاحة فى مسرح

العمليات العسكرية المصرية ليست واسعة، فإن هذه القاذفات ليست بحاجة إلى طلعات تصل فيها إلى سرعتها القصوى، الأمر الذى يمكن أن يمثل خطورة عليها، فالطائرة تو ١٦ هى بالدرجة الأولى "سلاح ردع" لإسرائيل. ليس من العجيب إذن أن السادات، بعد أن تسلم أخيرا القاذفات من طراز تو ١٦ التى كان ناصر قد طلبها، بدأ على الفور حملة تشهير لكى يبرر عدم الاستفادة بها. إذ إنه، كما اتضح، لم يكن فى الحقيقة يعتزم القتال!

صـ ١٥٨. مثال مهم يدل على أى نحو تدار السياسة فى الشرق العربى، هذا بالطبع إذا لم يكن هيكل قد اخترعه، فالسادات، على حد قوله، قد أبلغ الملك فيصل أن تتلقى قيادة القوات المصرية أوامرها منه مباشرة (بالطبع فى حالة حدوث أى طارئ) فى أثناء غيابه فى موسكو. شيء من هذا لم يحدث مطلقا بطبيعة الحال، ولم يكن هناك أحد فى مصر يمكن أن يخطر بباله أن يمتثل لأوامر الملك فيصل. لكنها لفتة كريمة على أية حال. ليس ذلك هو الأمر المهم. فى الواقع فقد وعد فيصل السادات بإهدائه عشرين قاذفة مقاتلة من طراز "لايتننج" وقد حاول السادات أن يبتز بها الاتحاد السوفيتى. لكنه لم ينجح فى التأثير على أحد. فى موسكو قالوا له: تريد أن تأخذ طائرات "لايتننج" — خذها، لكننا نعلم أنها ليست من نوعية رفيعة. ولم يربط السوفيت بين قرار توريد الطائرات تو-٢٢ وطائرات "لايتننج" (بالمناسبة فقد رفض المصريون استلام تو-٢٢) أما الطائرات من طراز "لايتننج" فلم يرسلها السعوديون مطلقا لأنها كانت فى حالة سيئة.

صـ ١٦٠. قام الرائد مصطفى الخروبى (عضو مجلس الثورة الليبى — المترجم) بأداء الصلاة فى الكرملين فى مكتب الكسىّ كوسيجين بالقرب من صورة كارل ماركس مباشرة. فى الواقع كان مشهدا لم يسبق له مثيل فى الكرملين.

صـ ١٦٠. يعرض هيكل حكاية استفزازية تتعلق بنقل مشغولات ذهبية. كان استفزازا من طراز كلاسيكى تماما إذا جاز القول. لم يحمل الخبراء السوفيت مطلقا معهم أية كميات كبيرة من الذهب، وإنما كانت هدايا تذكارية عادية، من تلك التى يلاحق بها الباعة المصريون كل السائحين الأجانب، الذين يزورون القاهرة.

لقد توفر لدى الخبراء السوفيت على مدى إقامتهم فى مصر لمدة عام أو عامين بعض المال بطبيعة الحال، راحوا ينفقونها على شراء الهدايا التذكارية، التى لا تتمتع فى مصر بالتنوع الكبير. كم من مرة طلب الدبلوماسيون السوفيت من السلطات المصرية أن يقيموا كشكا خاصا تحت إشراف المصريين لبيع مختلف الهدايا التذكارية للعسكريين السوفيت العائدين للوطن، وفى كل مرة كان المصريون يرفضون. لم يحمل مواطنونا مطلقا سبائك من الذهب كما كتب هيكل.

جدير بالذكر أيضا أن العسكريين السوفيت كانوا يتمتعون بالإعفاء من التفتيش الجمركى، بناء على اتفاق سوفيتى مصرى. على أن الفريق صادق أصدر توجيهاته بخرق هذا الاتفاق. سعت السلطات المصرية بعدم السماح للدفعة الدورية من العسكريين السوفيت المسافرين للوطن، وطلبوا تفتيشهم بشكل كامل، بما فى ذلك التفتيش الشخصى. حدث سوء تفاهم، فاستدعى المصريون جنودا يحملون الرشاشات قاموا بإحاطة مبنى المطار العسكرى، وقد اتخذ الاستفزاز شكلا أكثر صراحة بعد ذلك، عندما فشل السفير السوفيتى فى الاتصال بالفريق صادق أو بعبد العزيز حجازى (وزير المالية آنذاك والذى تتبعه مصلحة الجمارك) أو بوزير الخارجية أو بالسادات. لقد اتضح أن جميعهم موجودون، فجأة، "خارج القاهرة". كان اليوم يوم عمل. ولم يكن أمامنا سوى اللجوء إلى مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومى حافظ إسماعيل، الذى وعد "بإبلاغ الرئيس"، ووصف ما حدث مباشرة بأنه عمل استفزازى من جانب السلطات، وطلب ألا نستجيب لهذا الاستفزاز، الذى يستهدف تفجير غضب الجانب السوفيتى.

وقد أصدر السفير السوفيتى تعليماته بأن يكشف العسكريون السوفيت عن كل ما لديهم للتفتيش الجمركى. وقد تبين أن كل مسافر يحمل معه فى المتوسط هدية تذكارية واحدة من المشغولات الذهبية، بروش أو عقد وما إلى ذلك.

لم ينكر هيكل فيما بعد، عندما انهار هذا العمل الطائش، أن السادات قدم اعتذاره للسفير السوفيتى فى حديث تليفونى معه بعد أن قال له "إنه يشعر بالخجل أن فى مصر أناسا لايحملون الجميل للروس".

بالمناسبة، فالسفير الروسى لم يذهب للمطار، على عكس ما أكده هيكل.

صـ ١٦١. يطرح هيكل أيضا قصة إحلال أطقم الدفاع الجوى المصرية محل الأطقم السوڤيتية على نحو يفتقر إلى الضمير، بدءا من استخدامه لهذا التأكيد المغلوط الذى روَّجه السادات، والذى يزعم فيه أن مرتبات العسكريين السوڤيت الموجودين فى مصر تُدفع بالعملة الحرة. أما حضور الماريشال جريتشكو إلى مصر فلا علاقة له إطلاقا بقصة استبدال الأطقم السوڤيتية.

فى واقع الأمر، فقد أعلن الفريق صادق أولا، ثم تلاه السادات، أنهما يريدان تغيير نصف أطقم الدفاع الجوى السوڤيتى (ثم عادا ليطلبا تغيير الثلث)، وإحلال أطقم مصرية بدلا منها من التى عادت لتوها من الاتحاد السوڤيتى بعد أن أنهت تدريباتها. فى الواقع لم تكن هناك حاجة لاستعجال هذا التغيير؛ فضلا عن أن المصريين كانوا سيتسلمون بالضرورة منصات دفاع جوى جديدة لم تكن هناك أطقم جاهزة للعمل عليها آنذاك. وكان قبول اقتراح المصريين يعنى، ربما، حدوث تدهور حاد فى وضع الدفاع الجوى للبلاد، يصبح الاتحاد السوڤيتى مسؤولا عنه بدرجة أو بأخرى، وقد تم لفت انتباه السادات إلى هذا الوضع.

لكن هذا الأمر كان له جانب سياسى أيضا. فقد سارع السادات بإعلان استبعاد مجموعة كبيرة من العسكريين السوڤيت عشية وصول الرئيس نيكسون إلى مصر لإجراء مباحثات كان من أهم ما تضمنته مناقشة الوضع فى الشرق الأوسط. وقد اكتشف الجانب السوڤيتى وعلى نحو صحيح مغزى تصرف السادات واعتبره استعراضا أمام الأمريكيين لمشاعره غير الودية وكأنه يقدم بهذا عربونا لنيكسون.

وقد تم لفت انتباه السادات إلى ذلك إبان زيارته الأخيرة إلى موسكو فى أبريل ١٩٧٢، وقد أعلن السادات آنذاك أنه سوف يتريث قليلا فى سحب العسكريين السوڤيت من مصر. ولم يحدث مطلقا أن أصرَّ الجانب السوڤيتى على بقاء الوحدات العسكرية السوڤيتية فى مصر.

صـ ١٦٢. لم يكن هيكل يعلم شيئا عن قصة صفقة توريد الطائرات من طراز ميج-٢٣. من الواضح أنه سمع من أحد ما حكايات ملفقة عن هذه الصفقة. شيء واحد يمكن أن نقوله فى هذا السياق: إن مصر لم تدفع سنتا واحدا بالعملة الحرة ثمنا ولو لطائرة واحدة قام الاتحاد السوفيتى بتوريدها لمصر. لقد تم توريد كل الطائرات بقرض ذى شروط تفضيلية ميسرة على أمد طويل وبنصف الثمن يُدفع بالجنيه الحسابى السوفيتى المصرى، أى، فى نهاية الأمر، مقابل بضائع مصرية. ونظرا لأن هذه القروض كانت طويلة الأجل إلى حد بعيد، فإنه يمكن القول إن المصريين لم يبدأوا حتى الآن فى تسديد هذه القروض بشكل جاد مقابل تلك الصفقات. ومن ثم فإن هذه القروض لاتزال مسجلة كديون.

صـ ١٦٣. أكذوبة أخرى يرويها هيكل، ومن جديد استنادا إلى حكاية نشرها السادات. لم يصدر أى بيانات أو مشروع إعلان باسم "اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى" (!!؟).

بعد زيارة قام بها السادات إلى قاعدة غرب القاهرة الجوية العسكرية بصحبة المارشال جريتشكو، حيث استعرض السادات الطائرات من طراز م-٥٠٠ وسوخوى-٧ وسوخوى ١٧- ب (التى أراد المصريون شراءها) تم، بناء على موافقة السادات، صياغة بيان صحفى قصير، تمت صياغته وإذاعته فى القاعدة يفيد زيارة الرئيس لإحدى القواعد العسكرية الجوية، حيث استعرضا الطائرات القتالية الحديثة بما فيها بعض الطائرات، التى تبلغ سرعتها ثلاثة أضعاف الصوت، وقد أعرب السادات وجريتشكو عن تمنياتهما بنجاح الطيارين المصريين فى الذّود عن سماء بلادهم. لم يرد فى هذا البيان أى ذكر أن الطيارين المصريين يجيدون قيادة مثل هذه الطائرات. ترجع أهمية هذا الإعلان إلى أنه يفيد وجود طائرات حديثة فى مصر وقد وافق السادات دون أى تردد على التصريح بهذا الخبر للصحافة.

من الأمور اللافتة للاهتمام أن السادات وافق بصعوبة على زيارة هذه القاعدة الجوية العسكرية بصحبة جريتشكو، لكنه رفض رفضا باتا الذهاب إلى الإسكندرية لاستعراض السفن الحربية السوفيتية، إذ كان يرى أن ذلك يمثل استعراضا كبيرا يصب فى مصلحة الاتحاد السوفيتى عشية زيارة نيكسون إلى موسكو.

صـ ١٦٤. نشر هيكل بالفعل بعض المعلومات التى تفيد اهتمام الاتحاد السوفيتى بدرجة ما باستمرار حالة "اللاسلم... واللاحرب". ومثل أى شخص غير مطلع على العلوم، يرى هيكل أن كل ما يتذكره العقل الإلكترونى هو حقيقة قطعية، وهو لايعلم أن هذه "الحقيقة" تتوقف على المعلومات التى يتم بها تغذية العقل الإلكترونى وعلى أى نحو. عموما، فمن المشكوك فيه أن تكون مثل هذه التجربة قد أجريت. وعلى أية حال، فمن غير المعروف، أين ومن الذى أعد هذا "البرنامج" الذى تم تغذية العقل الإلكترونى به وعلى أى نحو(*).

صـ ١٦٧. هل كان لزاما على هيكل أن يعود ليكرر السخافات التى ينشرها أعداء مصر حول استخدام الروس للمطارات المصرية! فى الواقع هل كان من الضرورى أن يبعث الاتحاد السوفيتى بقواته إلى مصر؟ يعلم هيكل تمام العلم كم من الوقت استغرقه ناصر وهو يطلب من الزعماء السوفيت أن يرسلوا أطقما سوفيتية للعمل على منصات الدفاع الجوى!

بالطبع، فإن الحديث عن حاويات ضخمة وصلت، ربما، إلى مطار غرب القاهرة يمكن تفسيره حسب هوى كل من أراد. ولعل هناك من يؤكد إن كانت هذه الحاويات قد وصلت عموما.

صـ ١٦٧. مرة أخرى يعود هيكل ليكرر كذب السادات حول دفع مرتبات الخبراء السوفيت بالعملة "الصعبة". لم يحدث ذلك كما لم يحدث أن أرسل ليونيد بريچينيف أى رسائل فى هذا الشأن للسادات كما ذكر هيكل.

صـ ١٦٧. يبدى هيكل ملاحظة صائبة حول أن المصريين (السادات) كانوا يجرون مباحثات مع الزعماء السوفيت حول العلاقات بين البلدين إجمالا وحول قضايا الحصول

(*) "وفى ذلك الوقت تقريبا أجرى اختبار فى عقل إلكترونى لتقدير درجة إفادة مختلف الدول من حالة اللاسلم واللاحرب القائمة. وأعطيت للعقل الإلكترونى كل المعلومات المهمة، وكانت النتيجة: ٤٢٠ نقطة لإسرائيل و ٢٨٠ نقطة للولايات المتحدة، و ١١٠ نقاط للاتحاد السوفيتى" (ص ١٦٤)

على السلاح السوفيتي. صحيح أيضا ما أشار إليه حول أن طلبات المصريين كانت دائما مبالغا فيها، من الواضح أن ذلك كان مرده إلى الرغبة في تبرير مناخ السخط على الاتحاد السوفيتي، الذي دأب السادات دائما على خلقه.

صـ ١٦٨. لا يلحظ هيكل دناءة ما يكتب. بالفعل كان الوضع غريبا: هاهم الجنود السوفيت في حالة الاستعداد القتالي القصوى يعيشون في مخابئ تحت الأرض في صحراء وهم يحرسون بكل يقظة وانتباه سماء مصر، ذلك لأنهم يخدمون ضمن قوات الدفاع الجوى للبلاد.

أي تناقض كان يمثله لهم تسكع الشباب المصرى وهو يثرثر في دعة ودون مبالاة وعدم اكتراث كل مساء في الإسكندرية الساطعة بالأنوار! كان من الصعب علينا أن نشرح لجنودنا وضباطنا كل هذه الأشياء، والأهم الإجابة عن سؤال: لماذا جاءوا بنا إلى هنا إذا كان المصريون يتعاملون مع الخدمة العسكرية، بل ومع الحرب عموما بهذا القدر من اللامبالاة.

أما فيما يتعلق بتصريح السادات حول "التعبئة الذاتية" التلقائية للشعب "ما إن تنطلق الطلقة الأولى"، فإن صياح الديكة هذا، للأسف، كثيرا ما يحل محل الاستعداد الجاد لعواقب الأعمال الحربية. وفي القاهرة لم يتم بناء مخبأ واحد ليلجأ إليه الناس في حالة وقوع غارات جوية، كما لم يتم إعداد مراكز للإسعافات الأولية. ومن حسن حظ المصريين أن قنبلة أو صاروخا إسرائيليا لم يسقطا على القاهرة. وإنني لعلى يقين أنه لو حدث ذلك لأصاب الناس عندئذ ذعر لا نظير له، بدلا من "التعبئة الذاتية"، ناهيك عن الحرائق الحتمية ووقوع الضحايا وما إلى ذلك. إن الشعب المصرى، لم يعرف ما الحرب على حقيقتها، لعل الأقدار تحفظه من هذا الابتلاء الصعب.

صـ ١٧٠. عبثا يسعى هيكل لإلقاء ظل من الغموض على قرار السادات حول إنهاء مهمة العسكريين في مصر. ها هو يتذرع بالقول إن من المستحيل التصريح بذلك بثقة، إذا كان السادات نفسه لم يقرر أن يزيح الستار عن الأمر بنفسه. حسنا، وماذا عن السادات؟ وماذا وراء هذه الغمغمة: فالسادات، تصوروا، "لم يكن سعيدا طوال الشهر الماضي، وكان

هيكل يشعر أن ثمة شيئا كان يختمر فى ذهنه (السادات) لكنه لم يكن يعرف كنهه على وجه اليقين"؟

إن هذه "التفسيرات" لا تصلح اللهم إلا للكتيبات الدينية الشعبية. بينما نجد هيكل يدلى برأيه فى أكثر القضايا خطورة، وأحيانا ما يخطئ فى ذلك.

فى رأيى أن هيكل كان يشعر (إذا لم يكن على علم مسبق بالفعل) أن قرار إبعاد العسكريين السوفيت من مصر، الذين جاء بهم ناصر إلى مصر بشق الأنفس، كان أمرا تم اتخاذه من أجل الشروع فى اتخاذ خطوة واسعة نحو ملاقاة الولايات المتحدة الأمريكية، إن لم يكن فى إطار التآمر معها.

مهما قلَّبنا الأمر على أوجهه، فإن هذا القرار الذى اتخذه السادات قد أضعف من موقف مصر. وكما يبدو، فقد جاء هذا القرار فى لحظة غير مناسبة إطلاقا، أى فى الوقت الذى كان الاتحاد السوفيتى يطرح فيه قضية التسوية فى الشرق الأوسط فى لقاءاته مع الأمريكيين على أرفع مستوى. لقد أضعف هذا القرار مصر على المستوى العسكرى؛ فضلا عن، وهو الأهم، المستوى السياسى، كما أنه أفقدنا فرصة كبيرة لأن نمارس ضغوطنا على الولايات المتحدة الأمريكية.

كان الأمريكيون يتذرعون دائما بأن إسرائيل، على حد قولهم، يصعب عليها التوصل إلى سلام مع العرب بسبب "الوجود العسكرى" السوفيتى فى مصر. وكنا نجيب بأنه عند التوصل إلى سلام شامل فإننا "نتوقع" أن يطلب منا العرب إنهاء مهمة العسكريين السوفيت فى الشرق الأوسط. باختصار: عندما تنسحب القوات الإسرائيلية من جميع الأراضى العربية المحتلة، سوف ينسحب العسكريون السوفيت أيضا.

وعلاوة على ذلك، فإن "الوجود العسكرى" السوفيتى، الذى كان قائما بالفعل، كان يدفع إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية إلى التعامل بمزيد من الحذر مع إمكانية وقوع عمليات عسكرية ضد مصر، تجنبا لظهور خطر المواجهة العسكرية المباشرة مع الاتحاد السوفيتى.

والآن إذا بالسادات ينتزع من أيدينا هذه الفرصة لصالح الأمريكيين.

من الواضح (شاء هيكل ذلك أم أبى) أن المسألة كلها تتلخص فى أن السادات، بعد أن أصبح رئيسا بعد موت ناصر، وطّد اتصالاته مع الولايات المتحدة الأمريكية، واتخذ مساره باتجاه التخلص من الاتحاد السوفيتي. ويبدو أن هيكل شعر بذلك ولكنه خشى التصريح بذلك علنا.

صـ ١٧٢. لو كان هيكل دقيقا هنا، فإن عبارة السادات: "لقد قطعنا مع السوفيت" تكشف ببلاغة قاطعة النيات الكامنة فى أساس القرار الذى اتخذه السادات بشأن العسكريين السوفيت.

صـ ١٧٣. لسبب ما يكرر هيكل كذب السادات بخصوص "جماعة علي صبري" واتصالاتهم بالسفير السوفيتى وهلم جرا، وعن صفقات السلاح الواردة من الاتحاد السوفيتي. ألا يرى كم من السخافات فى حديثه هذا.

صـ ١٧٤. لماذا استطاع السادات أن "يخمن" مضمون الرسالة التى بعثت بها موسكو، والتى حملها السفير السوفيتى؟ يا له من أمر عجيب. أما المقابلة فكانت فى قصر الطاهرة، لا فى القناطر.

صـ ١٧٤. الأمر أشبه بالسخرية عندما يورد هيكل حديث السادات الذى يقول فيه: "لقد قضينا، عبد الناصر أولا ثم أنا، أربع سنوات عانينا فيها ما عانينا من تصرفاته" (يقصد الاتحاد السوفيتى الذى قدم لمصر مساعدات تبلغ قيمتها عدة مليارات، ناهيك عن الدعم السياسى!).

صـ ١٧٤. لم يخبرنا السادات باستلامه رسالة سرية أخرى من الأمريكيين قبيل زيارة السفير السوفيتى له بيوم واحد، والتى أبلغه فيها السادات بقرار إنهاء مهمة العسكريين السوفيت. ويبدو أن الرسالة الأمريكية كان لها دور حاسم فى اتخاذ السادات لهذا القرار المُعادى للسوفيت (والمُعادى فى الواقع لمصر أيضا).

صـ ١٧٤. يحرِّف السادات عن قصد مضمون الرسالة، محاولا جذب هيكل إلى صفه، ولهذا قال له، إن الرسالة تتعرض له (هيكل) شخصيا. شيء من هذا لم تتضمنه الرسالة. ومن هنا يتضح لنا أن السادات لم يعرض نص الرسالة على هيكل.

صـ ١٧٥. لم يذكر السادات للسفير السوفيتي أي شيء من هذا. ولو أنه كان قد تجاسر على القول بأن الزعماء السوفيت "كذبوا" عليه، لكان قد تلقى منى الرد المناسب. كان السادات يتباهى بالحديث أمام مستمعيه، أما هيكل فراح يكرر أكاذيب السادات.

صـ ١٧٦. يُورد الكتاب رد الجانب السوفيتي على عزيز صدقي إبان زيارته إلى موسكو في الثالث عشر من يوليو عام ١٩٧٢ على نحو دقيق. الاتحاد السوفيتي لن يشارك في إضعاف مصر. على أن هناك اختلاق أيضا فيما يتعلق بخطاب الجانب السوفيتي، الذي يزعم الكاتب أنه سُلِّم لصدقي ورد فيه أن السوفيت رفضوا إمداد مصر بالسلاح. والأمر على العكس تماما، فقد حمل صدقي اقتراحا بإقامة مشروعات عسكرية في مصر، الأمر الذي رفضه السادات بالمناسبة.

صـ ١٧٧. يفتقد هيكل الدقة حين يؤكد على نحو قطعي أن قرار إنهاء مهمة العسكريين السوفيت "قوبل بالترحيب" في مصر. هذا صحيح وإنما بالنسبة لعناصر المجتمع من البرجوازيين والرجعيين فحسب. وهناك معلومات كثيرة تفيد أن هذا القرار قوبل من العديد من المفكرين، ناهيك عن القطاعات التقدمية من المجتمع ومن جانب العمال والعسكريين، باعتباره ضربة قاصمة لمصر بأسرها، وأن من شأنه إضعافها (الأرجح أن هيكل يعرف ذلك، وهو نفسه يشارك هذا الرأي). هل يمكن وصف شعور هؤلاء بأنه ترحيب بقرار السادات الموالي لأمريكا؟ وهل أصبح الفريق صادق أكثر شعبية، إذا كان السادات قد اضطر لإقالته من منصب وزير الحربية بعد ثلاثة أشهر فقط؟

صـ ١٧٧. ما الذي يعنيه هذا التأكيد: "لم يُبل السلاح السوفيتي بلاءً حسنا، ولكنه والحق يقال، لم يُختبر اختبارا حقيقيا"؟ هل كان هيكل يريد سلاحا يمحو الإسرائيليين من الوجود بمجرد الضغط على أزراره في القاهرة؟

صـ ١٧٨. لم تكن القوات المسلحة المصرية بعد هزيمة ١٩٦٧ الكارثية بحاجة إلى "إعادة بناء" كما يقول الكاتب: فى الواقع أنه لم يعد هناك جيش، ولم تكن مهمة العسكريين السوفيت هى "إعادة بنائه"، وإنما خلقه من جديد. وكون أنه قد تم بناؤه، فهذه هى المأثرة الخالدة للضباط السوفيت.

صـ ١٧٨. مرة أخرى يعود الكاتب ليعرض جهله بالأمور العسكرية، مخترعا فكرة أن الدبابات السوفيتية تم تصميمها للعمل فى مناخ "القطب الشمالى" (!). بالطبع لايمتلك الاتحاد السوفيتى دبابات مكيفة، بها حمام أو حشيات مريحة أو يتوفر فيها عصير ليمون مثلج يقدم للشرب بمجرد الطلب! زد على ذلك أن مثل هذه الدبابات، التى حلم بها أحدهم فى مصر، غير موجودة ولن توجد لدى أى جيش آخر.

صـ ١٧٩. يورد الكاتب هنا ادعاءً مستحيلا يفيد أن الضباط المصريين، تصوروا، لديهم خبرة قتالية يفتقر إليها المستشارون العسكريون السوفيت، على حد زعمه. إحقاقا للحق يجب أن نقول إن المصريين كانت لديهم خبرة وحيدة هى الركض أمام الجيش الإسرائيلى. كان الضباط السوفيت يمتلكون دائما خبرة حقيقية اكتسبوها على جبهات القتال فى الحرب الوطنية العظمى، ولهذا فإن الملاحظة التى أبداها هيكل أقل ما توصف به أنها تفتقر إلى اللياقة.

صـ ١٨٠. ومن جديد يعود الكاتب ليكشف عن جهله بالحقائق. فالأمر مختلف تماما عما ذكره: فعندما وصل الأدميرال جورشكوف إلى الإسكندرية أعلن عن رغبته فى زيارة قائد قوات البحرية المصرية، اللواء بحرى عبد الرحمن فهمى، على أن الأخير رأى أن صيغة الطلب الذى تقدم به الأدميرال السوفيتى تنقصه بعض الكياسة، ومن ثم لم يستقبله. ولمّا وصل فهمى بعد ذلك إلى القاهرة لم يقبل الأدميرال السوفيتى مقابلته.

صـ ١٨٠. يبدو أن تصرفات صادق المستقلة على نحو كبير، كان لها دور حاسم فى مسألة خلع السادات له من منصبه كوزير للحربية (على الرغم من أن صادق ساعد السادات منذ عام واحد تقريبا فى إبعاد الناصريين). لقد بدا للسادات آنذاك أن استقلال صادق أمر زائد عن الحد، ومن المعروف أيضا أن صادق كان يحظى بتعاطف من جانب

الطبقة العليا من الضباط الأغنياء، وهى الطبقة التى لم تكن تتقبل السادات مطلقا "كندٍ لها"، فكانت تضعه فى درجة أقل منها، على الرغم من أنه كان يسعى لاسترضائها. كان من الممكن لصادق أيضا أن يصبح بسهولة، فى مثل هذه الظروف، "مركزا" لانقلاب ضد السادات، الذى شعر بذلك بسليقته. كانت المبررات لخلع صادق كافية تماما وواقعية: عدم الرغبة فى القتال، ضعف الضبط والربط فى الجيش وهلم جرا. ينبغى أيضا ألاَّ نستبعد من حسابتنا أن صادق قام بزيارة رسمية إلى الاتحاد السوفيتى فى شهر يونيو، استقبل خلالها حساباتنا بالغة، جعلت السادات يفكر، وقد طغى عليه الشك، أن الاتحاد السوفيتى "يراهن" على صادق.

صــ ١٨٣. مرة أخرى يعود الكاتب لإضفاء هالة من الغموض حول تصرفات السادات فى علاقته بالاتحاد السوفيتى. وهو هنا يكتفى بالحديث فقط عن تسلم السادات رسالة "سرية" من الولايات المتحدة الأمريكية تتضمن "أن مفتاح حل الصراع فى الشرق الأوسط فى يد الولايات المتحدة الأمريكية". أما رحلات السعوديين آنذاك فلم تكن محض صدفة: لقد كانوا يعملون باعتبارهم محامين للأمريكيين، داعين السادات ليتخذ بشكل أكثر صراحة موقفا معاديا للسوفيت.

كان قرار السادات بإبعاد العسكريين السوفيت، بطبيعة الحال، نتيجة صفقة حقيقية مع الأمريكيين. كان ذلك نوعًا من "العربون" قدَّمه السادات للأمريكيين، كان عليهم أن يردوه فيما بعد.

صــ ١٨٤. وكعادته عبَّر كيسينچر عن رأيه فى هذا الأمر بصلف شديد. من الواضح أن السادات قد تصَّرف، حتى فى نظر الأمريكيين، بقدر كبير من التفريط بإبعاده العسكريين السوفيت، ثم ها هو لا يحصل على شىء فى المقابل من الولايات المتحدة الأمريكية، وهو ما يعنى أن تقديراتنا التى بعثنا بها فى حينه إلى موسكو كانت صحيحة. آنذاك لم نكن قد عرفنا شيئا بعد، بالطبع، عن هذا التصريح المستهتر الذى أطلقه كيسينچر: ("لقد حصلت على كل شىء دون مقابل").

صـ ١٩١. يُرجع الكاتب على نحو خاطئ صعوبة قيام الوحدة بين مصر وليبيا إلى العقبات البيروقراطية. هيكل إما أنه لا يعرف، وإما أنه لايريد أن يكشف صراحة السبب الحقيقى. كان السادات يدرك جيدا أنه فى حالة إقامة الوحدة مع ليبيا (وهو ما كان من شأنه تقوية الاقتصاد المصرى بدرجة ملموسة) فقد كان عليه أن يُسند إلى القذافى منصبا ما، منصبا حقيقيا وليس اسميا، لنقل، قائدا عاما للقوات المسلحة الموحدة، وهو المنصب الذى كان القذافى يطمح إليه، أو رئيسا لوزراء الدولة الموحدة أو حتى رئيسا. المسألة برمتها تلخصت فى عدم الاستجابة للقذافى. لم يكن السادات عموما ليسمح بفكرة أن أحدا ما سوف يتصرف على نحو مستقل، ليس فقط ضده، وإنما حتى بالتوازى معه، ولهذا تحديدا، ومن أجل كبح حماس القذافى ابتكر المصريون نظاما ماكرا تمثّل فى إنشاء لجان مصرية ليبية مشتركة تنبثق عنها لجان فرعية تقوم على إعداد القوانين الأساسية المُنَظِمة للحياة المشتركة للدولتين (نظام إدارة الدولة والاقتصاد والمؤسسات السياسية وما إلى ذلك). كان الهدف من ذلك فى واقع الأمر هو عدم صد الليبيين شكليا، وفى الوقت نفسه إفراغ فكرة الوحدة بين البلدين من مضمونها. هذا التكتيك هو ما أخبر به حافظ إسماعيل السفير الروسى بصفة سرية.

وكما هو معروف، فقد بلغ الضجر بالليبيين غايته من جراء الاجتماعات العقيمة التى لاتنتهى، فدخلوا فى خلاف مع السادات، كانت آخر مظاهره تلك المسيرة التى سار فيها آلاف الليبيين فى القاهرة فى صيف عام ١٩٧٣ حاملين عريضة للسادات موقعًا عليها بالدم تطالب بسرعة إتمام الوحدة بين البلدين.

صـ ١٩٢. أما الحادثة الدراماتيكية التى وقعت لطائرة الركاب المدنية الليبية التى أسقطها الإسرائيليون بركابها بكل دم بارد فى وجود تقاعس تام من جانب المصريين، فهى أمر بالغ الدلالة، إذ يعكس تواطؤ السادات مع الأمريكيين فى تلك الفترة على ألا يتم تصعيد الموقف قبل الأوان، فقد تم التخطيط لأن يتم كل شىء فى أكتوبر، عندما يأتى موعد تنفيذ المسرحية، التى وُضع السيناريو الخاص بها فى فبراير. آنذاك كان الليبيون لايمثلون سوى عقبة فى طريق السادات.

صـ ١٩٨. لسبب ما يعود الكاتب مرة أخرى ليؤكد على علاقة السادات بالمخابرات الأمريكية.

صـ ١٩٩. لقد وقعنا هنا، بالطبع، فى خطأ، حيث اعتبرنا وفقا لتقليد ما (أى بسبب تناقل القصة من شخص لآخر) أن زكى هاشم شخصية تقدمية، "شيوعى سابق" تقريبا! وقد اتضح أنه يعمل لصالح الأمريكيين!

ويكشف هيكل هنا تفاصيل تتعلق بالاتصالات السرية الجديدة التى جرت فى الكواليس، والتى لم يخبرنا المصريون بشأنها، علاوة على أن السادات كان قد أقسم أكثر من مرة أنه ليس لمصر أى اتصالات من هذا النوع.

صـ ٢٠٠. لقد تبين لنا أن السادات كان يكذب علينا، كما كذب علينا أيضا حافظ إسماعيل، الذى لم يبلغنا بأى شىء حول المباحثات السرية التى جرت مع كيسينجر.

صـ ٢٠٠. يرتكب هيكل هنا أخطاء مدهشة فيما يتعلق بالحقائق! آنذاك كان حافظ غانم هو الأمين العام للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى العربى وليس مستشارا للرئيس. لم يكن السادات يثق فى حافظ إسماعيل مستشاره للأمن القومى (وهو الذى وصفه السادات للسفير السوفيتى بأنه My Kissinger)، ولذلك كان يرسل حافظ غانم إلى كل مكان يذهب إليه حافظ إسماعيل بوصفه مراقبا وجاسوسا له، وباعتباره كلبا وفيا دون أن يكون له رأى على الإطلاق أو شخصية. وهذا النظام كان يمثل عملا عاديا بالنسبة للسادات، وحتى عندما كان السادات يرسل عزيز صدقى، وهو رئيس وزرائه، إلى موسكو، كان يرافقه ممدوح سالم، الخادم الأمين للسادات والذى كان وزيرا للداخلية آنذاك.

صـ ٢٠١. إذا كان حافظ إسماعيل قد قال لنيكسون بالفعل إن إبعاد العسكريين السوفيت من مصر كان إظهارا لقدرة مصر على "البقاء خارج مناطق النفوذ"، فإن ذلك أمر لا يوصف إلا بكونه عملا دنيئًا من جانب حافظ إسماعيل، فقد كان إسماعيل يؤدى أمامنا دور الصديق الكبير والرجل الذى يرى أن اعتماد مصر على الاتحاد السوفيتى أمر ضرورى.

وإذا كان حافظ إسماعيل قد أعلن بالفعل لنيكسون أن السبب الرئيسى للصراع فى الشرق الأوسط هو الصدام بين طائفتين هما اليهود والفلسطينيون، فإن ذلك لايعكس جهلا بجوهر الصراع فحسب، وإنما يُعد أيضا إيحاءً للأمريكيين بأن هذا الصراع، على حد قوله، لايخص المصريين مباشرة، وأن مصر يمكنها أن تقف بمنأى عنه. بالمناسبة، فقد كان حافظ إسماعيل فى أحاديثه مع السفير السوفيتى يدلى برأيه باحتقار فيما يخص الفلسطينيين وكذلك السوريين.

صـ ٢٠٢. إذا كان حافظ إسماعيل قد خرج من مقابلته مع نيكسون بانطباع يفيد أن نيكسون ينظر بحسن نية إلى مصر، فهو إذن كان يكذب علينا، عندما تحدث عن موقف الولايات المتحدة الأمريكية العدائى تجاه مصر.

صـ ٢٠٢. لم يبلغنا حافظ إسماعيل والسادات بالمباحثات التى دارت بينهما وبين كيسينجر، حتى عندما كان حافظ إسماعيل فى زيارة إلى موسكو! بماذا نسمى هذا التصرف؟ لكن ما قام به هيكل من فضح غير مقصود لخيانة السادات لنا لم يعد خبرا، كلما طالعنا الكتاب أكثر فأكثر. وهناك أمر آخر أكثر أهمية: إن هيكل يكشف الخلفية الحقيقية لكل الأحداث التى وقعت فى أكتوبر عام ١٩٧٣. علينا فقط أن نمعن النظر فيما قاله نيكسون: لقد كانت الحكومة الأمريكية على استعداد للضغط على إسرائيل "إذا رأت أن هناك "أساس أخلاقى" لاستخدام هذا الضغط، وكنا سنعلن ذلك على الرأى العام الأمريكى"!.

ومع علمه، بالطبع، بما يعتمل فى نفس السادات من شكوك، ومؤججا إياها فى علاقته بالاتحاد السوفيتى، لم يخش نيكسون أن يقول لحافظ إسماعيل على نحو استفزازى، إنه إذا حاولت مصر أن تدق إسفينا فى العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى، فإنها "تخطئ بذلك خطأ فاحشا"!

صـ ٢٠٣. هيكل على حق هنا فى تعريفه لأهداف الأمريكيين، وخاصة الهدف الأخير: "ينبغى أن تكون النتيجة النهائية هى 'السلام على الطريقة الأمريكية' وهو السلام الذى يضمن المصالح الأمريكية فى المنطقة".

صـ ٢٠٥. إن كلمات السادات بشأن انفراج التوتر الدولى أصبح واقعا وأنه "ربما يفرض نفسه علينا (على مصر – ڤينوجرادوف) قبل أن يكون باستطاعتنا أن نفرض نحن أنفسنا عليه". إن هذه الكلمات تعكس جهلا مطبقا لدى هذه الشخصية القومية البرجوازية بحقيقة الخلاف بين السياستين الخارجيتين لدولتين إحداهما رأسمالية (الولايات المتحدة الأمريكية) والثانية اشتراكية (الاتحاد السوفيتى). ما الذى كان يخشاه السادات؟. يقول السادات: "إن سياسة الوفاق سوف تفرض شروط حل مشكلة الشرق الأوسط، بدلا من أن تفرض مشكلة الشرق الأوسط شروطها على سياسة الوفاق".

أحيانا ما نجد هيكل، القومى أيضا، يتضامن، بصورة أو أخرى، مع غياب موقف مختلف فى السياسة الخارجية لكل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى. وهو ما جعله يستشهد هنا بكلمات السادات.

الفصل الرابع. "الحرب"

صـ ٢٠٧. لا أظن أنه كانت هناك ضرورة لوصف خطة العملية "بدر" بأنها كانت "ممتازة". لقد اتضح أنها كانت خاطئة فيما يتعلق بنتائجها النهائية، فهى لم تستشرف الأمر الجوهرى وهو التحركات العسكرية فى حالة النجاح، بمعنى تطوير هذا النجاح. ولهذا، باختصار، فمهما كانت جودة خطة اقتحام القناة، ينبغى الاعتراف بأنها كانت تضع بالتالى فى اعتبارها الفشل والتعرض لخسائر فادحة، أى تحقيق الحد الأدنى من النتائج. إذن ما الذى حدا بهيكل أن يصف هذه الخطة بأنها "ممتازة"؟

صـ ٢٠٩. يدير الكاتب حديثه المتعلق، على سبيل المثال، بالتعليمات التى تلقاها السفير السوفيتى من موسكو بتعسف تام. ومن هنا أكاذيبه المتكررة وخاصة أننا نجد هنا تلفيقا عن وعى لتلك الحكاية التى عرضها السادات بعد العمليات العسكرية.

إن موسكو لم تقدم أية مقترحات فى السادس من أكتوبر تتعلق بوقف إطلاق النار. وإنما كان هناك سؤال للسادات فحسب بشأن الرغبة فى التشاور معه بخصوص ما لدى

السفير السوفيتى فى سوريا من معلومات حول رأى الرئيس الأسد فى مدى ملائمة طرح الاتحاد السوفيتى لاقتراح على مجلس الأمن لوقف إطلاق النار مع بقاء القوات المتحاربة فى مواقعها. كان من مصلحة السادات أن يُصور الأمر كما لو كان الاتحاد السوفيتى يُصرُ منذ اليوم الأول للحرب على وقف إطلاق النار.

صـ ٢١١. مسألة إصدار القيادة الإسرائيلية فى السابع من أكتوبر أمرا إلى جميع القوات العاملة على خط بارليف أن تتصرف وفق ما تراه، فإما أن تستسلم أو تنسحب إلى عمق شبه جزيرة سيناء تبدو أمرا غريبا، فلم يكن قد مر نصف يوم على بدء العمليات العسكرية حتى تصدر القيادة الإسرائيلية مثل هذا الأمر! أمر غريب وغير مفهوم.

يبدو الأمر واضحا إذا افترضنا أن الإسرائيليين كانوا على علم مسبق بالاقتحام المزمع للقناة، أى أنهم كانوا شركاء فى لعبة سياسية كبرى أطرافها الولايات المتحدة الأمريكية ومصر وإسرائيل. إن الجنود الإسرائيليين الذين سقطوا فى خط بارليف كان مقضيا عليهم أن يكونوا "شهداء" (بالمناسبة يُقال أن عددهم كان قليلا على نحو يثير الشك).

صـ ٢١٢. يؤكد الكاتب على نحو صحيح أن القيادة الإسرائيلية قررت سلفا تركيز قواتها فى الشمال بهدف إنزال الهزيمة بسوريا؟ لماذا استطاع الإسرائيليون أن يتصرفوا على هذا النحو؟ فالعدو الرئيسى، إذا توخينا الموضوعية، كان يجب أن يكون هو القوات المسلحة المصرية.

الأمر كله، كما هو واضح، أن الإسرائيليين كانوا يعرفون مقدما أن المصريين لن يتقدموا فى سيناء. وهو ما أتاح للإسرائيليين أن يُنزلوا ضربات قاصمة بالسوريين.

صـ ٢١٢. ليست موسكو هى التى اقترحت الاتصال بالعراق لتطلب منها إرسال دبابات إلى الجبهة السورية. إنما كان السوريون هم الذين طلبوا منا أن نخاطب نحن العراقيين فى هذا الشأن.

صـ ٢١٢. كان السادات ضد وقف إطلاق النار، لأن خطة السادات والأمريكيين الأساسية كانت قد سقطت: لم يكن الأمريكيون حتى ذلك الحين يملكون أى مبرر للتدخل أو ممارسة "الضغط" على إسرائيل وما إلى ذلك. إن وقف إطلاق النار، على الرغم من أنه كان من الممكن أن يعطى للعرب أفضلية، فإنه لم يكن ليعطى السادات أى شيء فى سياق خطة لعبته مع الأمريكيين. ولعله كان سيمثل عندئذ هزيمة لإسرائيل، الأمر الذى لم يكن الأمريكيون ليسمحوا به. إن قتل عدد محدود من الجنود الإسرائيليين من أجل تحقيق الأهداف السياسية للولايات المتحدة الأمريكية هو ما وافق عليه الأمريكيون وليس هزيمة إسرائيل. فى الواقع فقد ساعد السادات بذلك كلا من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية.

رغم ما يبدو فى هذا الأمر من مفارقة، فإن وقف إطلاق النار، كما كشفت الأحداث التالية، أنه كان أجدى للعرب، أما السادات فظل يقاوم ذلك! من هنا جاءت "نصائحه" السخيفة للأسد.

صـ ٢١٣. يبدو واضحا هنا أن الكاتب قد انصاع وراء هذا التفسير الساذج لتوقف القوات المصرية بعد العبور السهل نسبيا للقناة، زاعما أن المصريين قد أقاموا "جدارا دفاعيا قويا" على الضفة الشرقية للقناة لابد أن تتحطم عليه هجمات الإسرائيليين. لابد أن يكون الإسرائيليون من السذاجة بمكان ليتعاملوا مع هذه "الخطط".

صـ ٢١٣. مرة أخرى يعود هيكل ليكرر رد الأسد مستندا إلى حكاية السادات، لا استنادا إلى وثيقة، فالأسد لم يتحدث عما قاله السفير الروسى لدى القاهرة (للسادات – المترجم)، كما أنه لم يتحدث عن انتفاء الحاجة للجوء للعراق طلبا للمساعدة.

فى الواقع، فقد نفى الأسد ما قاله فى حديثه مع السفير الروسى لدى دمشق فى الرابع والسادس من أكتوبر بخصوص رغبته فى أن يتخذ الاتحاد السوفيتى مبادرة لوقف إطلاق النار (مع بقاء القوات المتحاربة فى مواقعها). لم يكن أمام الأسد ليتصرف على نحو آخر. وفى حديثه مع السفير السوفيتى فسَّر حافظ إسماعيل تصرف الأسد على النحو التالى: فى الحقيقة أن الأسد، كما يبدو، اعتبر أن وقف إطلاق النار أمر ضرورى

بعد النجاح الأول للعرب (فقد رأى أو عرف أن المصريين لن يساعدوا سوريا التى انقض عليها الجيش الإسرائيلى كله – فينوجرادوف). على أنه وبعد الطلب المستفز الذى قام به السادات فقد كان لزاما عليه (الأسد) أن "يحفظ ماء وجهه" وبالطبع فقد أجاب بأنه لم يفكر فى وقف إطلاق النار. هذا هو التفسير الذى أفاد به مساعد السادات إبان أحداث أكتوبر والذى تم، بطبيعة الحال، بشكل سرى:

صـ ٢١٤. تصريح منافق ذلك الذى أدلى به السادات لهيكل والذى يزعم فيه أن الفرصة قد سنحت لاستعادة الاتحاد السوفيتى هيبته المفقودة فى الشرق الأوسط. كان السادات يحرض هيكل دائما ضد الاتحاد السوفيتى، وهو ما أثبتته الحقائق الآن. كان هيكل يبدو أمامنا آنذاك رجلا مطيعا فى خدمة السادات.

صـ ٢١٥. هيكل على حق هنا وهو يتحدث عن إلحاح السوريين وعن "الوقفة التعبوية" التى لامبرر لها (ناهيك عن أن هيكل لم يكن على علم بأفكار السادات، والخاصة، كما يظهر، بتواطئه مع الأمريكيين). وهو على صواب أيضا عندما يرى أنه لو تم استيلاء المصريين على الممرات الجبلية – الجدى ومتلا، لأمكن تحرير سيناء بأكملها مع ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية لا تعد ولا تحصى. هذا أيضا صحيح، لكن ذلك لم يدخل فى خطط السادات، لأن ذلك كان يعنى: أ) إثبات قوة السلاح السوفيتى وفعالية المساعدات السوفيتية؛ ب) دعم موقف الاتحاد السوفيتى؛ ج) خرق اتفاق السادات مع الأمريكيين فيما يخص خلق مبرر لهم للتسلل إلى الشرق الأوسط؛ د) تدهور العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

صـ ٢١٦. لم يرغب السادات فى الرد على طلب السوريين لأنه خشى لا من الهزيمة، وإنما من النجاح، الذى كان حدوثه يعنى، ربما، انهيار كل الخطط السياسية الماكرة لتسوية العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية.

صـ ٢١٦. لا طائل من وراء ما يكتبه هيكل عما لا يعرفه؛ أى اعتماده، مرة أخرى، على أحاديث السادات كما هو واضح. لقد كان الجسر الجوى السوفيتى يعمل كالساعة، بينما لم يذكر هيكل شيئا عن المغزى العسكرى والمعنوى الذى كان يعنيه أن تصل طائرة سوفيتية محملة بالسلاح من موسكو إلى القاهرة كل نصف ساعة!

صـ ٢١٧. لم يطلب السادات من السفير السوفيتى لدى القاهرة إجراء أى تحقيق حول موقف السفير السوفيتى لدى دمشق. مرة أخرى يختلق السادات هذه الرواية.

صـ ٢١٨. هل كان تحذيرنا عملا خاطئًا؟ على أن السادات يعود من جديد ليتحدث بغطرسة إلى السفير السوفيتى لدى القاهرة بالكلمات التالية حرفيا قائلا: "إننى لا أرغب فى الجرى فى سيناء، كما يريد ذلك نيكولاى بودجورنى. باستطاعتى الاستيلاء على الممرات غدا لو أردت، لكن ذلك لايدخل فى خططى فى الوقت الحالى".

صـ ٢١٨. لم يستشهد السفير السوفيتى لا بليونيد بريجينيف ولا بألكسى كوسيجين، وإنما عرض على هيكل مخاوفه. أما ما أضافه هيكل لحديثه، فقد فعله من قبيل "تجميل الكلام".

صـ ٢١٩. لم يتحدث السفير السوفيتى عن صعوبات فى إقامة "الجسر الجوى". أما بخصوص ملاحظة هيكل أن الروس يفكرون دائما فى الخطوة التالية فهذا صحيح. من الأمور الملفتة للانتباه أيضا أن السادات رفض التفكير فى الخطوات السياسية وأحال السفير السوفيتى إلى محمود فوزى، الذى لم يكن هو نفسه مفوضا فى الحديث عنها.

صـ ٢٢٠. يفتقد هيكل الدقة هنا. فالروس لم يتحدثوا عن ضرورة الهجوم والاستيلاء على الممرات، كما أنهم لم يقدموا عموما أية نصائح فى هذا الصدد (لأنه لم يكن باستطاعتهم ذلك، لأنهم لم يكونوا على دراية بخطط السادات الحقيقية). أما عن رد وزير الحربية فهو رد غير عسكرى بامتياز، لأن الهجوم أفضل وسيلة للدفاع، أما الدفاع السلبى فنتائجه مدمرة.

صـ ٢٢١. شىء من هذا لم يحدث - هذه أيضا حكاية اختلقها السادات: لم يكن السادات يرغب فى دخول الأردن الحرب، إذ إن ذلك كان من شأنه إن لم يلحق الهزيمة بإسرائيل، ففى جميع الحالات سوف يفسد خططه. لقد كان من الممكن أن تتعرض إسرائيل لهزيمة قاسية، وهو ما قد يعوق إمكانية ظهور الأمريكيين على مسرح العمليات باعتبارهم صناع السلام.

صـ ٢٢٢. لم يقدم السادات مطلقا هذه "اللفتة الكريمة": عرض مزعوم بإرسال سلاح سوفيتى كان مخصصا لمصر إلى سوريا. الأمر على النقيض من ذلك. لقد ظل السادات طوال الوقت يشتكى، حتى عندما لم تكن لديه أسباب لذلك، مؤكدا أن سوريا تحصل على أسلحة أكثر من اللازم، بينما لا تُعطى مصر شيئا وهلم جرا. كان يقول إن سقوط دمشق لا أهمية له، فسوريا لديها أراضٍ واسعة، وهى تستطيع فى حالة الهزيمة أن تخوض حرب مقاومة، ومن الضرورى الاهتمام بمصر فحسب. بعد ذلك استمرت مطالب السادات وتذكيره الدائم والمفرط بتوريد السلاح.

مرة أخرى نجد هنا مثالا واضحا على التضليل الذى يمارسه السادات على هيكل.

صـ ٢٢٣. ياله من تناقض بين هذه البهجة التى تعم قصر الطاهرة وهذا المشهد الدموى على الجبهة السورية! لم تحرك مصر ساكنا لتقدم مساعدة ما للسوريين، الذين ورطهم السادات نفسه فى مغامرته العسكرية من أجل إيجاد ذريعة للأمريكيين كى يستطيعوا الدخول بها إلى الشرق الأوسط! لقد كان من واجب السادات أن يدعم سوريا، ليس فقط للاعتبارات السياسية والأخلاقية، وإنما من منطلق الواجب الرسمى باعتباره القائد العام للقوات المشتركة. لقد أدرك السوريون مغزى لعبة السادات متأخرا للغاية، بعد أن طلبوا من السادات، بشهادة هيكل، لا أقل من خمس-عشرة مرة المساعدة، لكنه رفضها جميعا بكل ثبات.

صـ ٢٢٣. يعود الكاتب من جديد ليؤكد على العلاقة بين المخابرات الأمريكية والمصرية بهدف دعم الاتصالات المباشرة مع السادات!

صـ ٢٢٤. فى الرسالة التى أرسلت إلى كيسينچر، لم يرد أى ذكر للفلسطينيين. هنا يتعامل حافظ إسماعيل أيضا، مثله مثل السادات، باستهتار بالغ تجاه الفلسطينيين وقضيتهم.

صـ ٢٢٦. ما يكتبه هيكل هنا عن قيام الأمريكيين بنقل الدبابات إلى إسرائيل بالطائرات مباشرة إلى منطقة العمليات العسكرية مجرد هراء. إن الدبابات التى استخدمت إبان الحرب لم ترسل بالطائرات. لقد كانت العريش فى سيناء، وهو مكان بعيد تماما عن

منطقة العمليات العسكرية هى نقطة إرسال الشحنات العسكرية الأمريكية. مرة أخرى نشعر بأن السادات هو مصدر تلك "المعلومات": عن ذلك تحدث السادات إلى السفير السوفيتى طالبا منه أن يبدأ الاتحاد السوفيتى فى إرسال الدبابات إلى مصر... جوا. وقد جاءه الرد بأن أكثر طائرات النقل العسكرى قدرة لا تستطيع أن تحمل سوى دبابة أو اثنتين!

صـ ٢٢٧. يورد هيكل هنا معلومات غير دقيقة، إذ لم تكن هناك أية تحركات من جانب المصريين أجبرت الإسرائيليين على نقل وحداتهم العسكرية من الجبهة السورية إلى سيناء. إن ما أثار القلق لدى القيادة الإسرائيلية على نحو جاد هو تحركات العراقيين، وحتى الأردنيين الذين هبوا لمساعدة سوريا، وليست تحركات المصريين، فالإسرائيليون كانوا يعلمون أن المصريين لن يدفعوا بقواتهم إلى أى مكان.

صـ ٢٢٨. يطرح الكاتب ملاحظة غريبة تفيد أن المصريين قد افترضوا قبل الحرب، أن الإسرائيليين سوف يعبرون القناة ثم ينتقلون منها إلى مصر. إذا كان لدى المصريين هذا القدر من نفاذ البصيرة، وكانوا يعلمون على وجه الدقة المكان الذى سيقع عنده هذا العبور (الدفرسوار) فما الذى منعهم من الاهتمام بحماية هذا المكان تحديدا؟ يقول الكاتب إن الإسرائيليين حددوا الثغرة التى تفصل بين الجيشين الثانى والثالث، فمن أين للإسرائيليين أن يعرفوا عموما كم جيشا سيكون لدى مصر وأين سينتشرون؟ ما الذى يعنيه إذن الحديث عن خطة المصريين "الممتازة" إذا كان الإسرائيليون على علم بتوزيع الجيوش المصرية منذ عام ١٩٦٩، وأن هذه الأماكن لم تتغير فى سياق العمليات العسكرية؟

صـ ٢٢٩. ما الفائدة التى كانت ستعود على مصر عموما من جراء دفعها لما يسمى بالاحتياطى "الاستراتيجى" إلى المعركة؟، فالعمليات العسكرية الحقيقية، التى تتطلب وجود مثل هذا الاحتياطى لم تكن موجودة. ولماذا كانت هناك فجوة بطول أربعين كيلومترا تفصل بين الجيشين المنتشرين فى سيناء. إنه خطأ بدائى وفاحش، إن لم يكن أكثر من ذلك.

صـ ٢٣٠. يستند هيكل، شأنه فى ذلك شأن السادات، فى تفسيره لغياب أى مواجهة للوحدات الإسرائيلية التى تسللت إلى مصر إلى ... أن الاتصالات بين الجبهة ومقر القيادة العامة كانت سيئة جدا، ناسيا أنهما يضعان أنفسهما بهذا "التفسير" فى موقف مضحك،

فالمسافة الواقعة بين الثغرة والقاهرة تبلغ أكثر قليلا من مائة كيلومتر! وهى مسافة يمكن قطعها حتى بالدراجة فى ساعات قليلة.

يقدم لنا هيكل بعد ذلك فى الصفحات ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤ وصفا غير مقنع لتصرفات السادات التى أدت إلى تدخل الإسرائيليين، الأمر الصحيح الوحيد هو حديثه عن الرسالة التى بعث بها الأسد إلى السادات. لقد كانت المناورة السياسية التى قامت بها مصر مناورة رديئة، لأن السادات لم يكن يريد أن يكون مع الاتحاد السوفيتى. فقد كان لايزال يمارس لعبته السياسية مع الولايات المتحدة من وراء ظهرنا.

صـ ٢٣٥. هذه واحدة من أكثر الفقرات فى كتاب هيكل إثارة للفضول، حيث يصف توقف المصريين عن القتال بعد حدوث الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون للوصول إلى الضفة الغربية للقناة! لقد تبين أن الأمر وصل إلى حد إلغاء القيادة المصرية فى القاهرة للتحركات الصحيحة تماما لعدد من التشكيلات المصرية، التى حاولت القضاء على الثغرة، وهو الأمر الذى كان ممكنا وسهلا. ليس هناك أى تفسير لذلك سوى الافتراض (وهو ما يتردد كثيرا الآن) بأن السادات سمح عن قصد للقوات الإسرائيلية بالدخول إلى مصر. ففى هذه الحالة يكون فى الواقع "مبرر أخلاقى" للأمريكيين لكى يصبح باستطاعتهم أخذ المبادرة "للضغط" على إسرائيل!

صـ ٢٣٥. كان باستطاعة الكاتب أن يأتى أيضا على ذكر الجسر الركامى الذى أقامه الإسرائيليون عبر القناة، لقد استطاعوا أن يردموا قناة السويس دون أى عائق من جانب المصريين، بل إنهم فرشوا هذا الجسر بالأسفلت!

صـ ٢٣٥. ياله من تحريف مدهش للحقائق! فكوسيجين لم يحضر للسادات أى صور التقطت من الجو. كما أن السادات لم يتحدث عن ضرورة أن يحضر مؤتمر السلام "الدول الأربعة عشر فى مجلس الأمن والأمين العام للأمم المتحدة، وكل الأطراف المعنية بما فيها الفلسطينيون". كان السادات موافقا على عقد مؤتمر تشارك فيه أطراف الصراع (لم يذكر من بينهم الفلسطينيين)، إضافة إلى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية. لكن الأهم، أنه طلب من الاتحاد السوفيتى "ضمانا" أن تقوم إسرائيل بتنفيذ قرار مجلس

الأمن رقم ٢٤٢، دون أن يعرب عن إصراره فى سياق ذلك على الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية. وكان السادات قد بعث قبل ذلك برسالة إلى الملك حسين، لا بمبادرة منه، وإنما بعد حديثه مع السفير السوفيتى. لقد كان من الممكن أن يكون لمشاركة الأردن أثر قوى فى ضرب إسرائيل، لكن ذلك لم يدخل فى خطط السادات، ولذلك رفض مشاركة الأردن فى العمليات العسكرية.

صـ ٢٣٦. من الواضح أن موقف الملك حسين قد جرى تحريفه من جانب الكاتب، الذى رأى أن ذلك يمكن أن يصب لصالح السادات. مرة أخرى يبدو الأمر وكأنه من تفسير السادات. والأرجح أن حسينا رأى أو عَلِمَ لاحقا أن السادات لا يقود العمليات العسكرية على نحو جاد، وإنما يؤدى لعبة بمشاركة الأمريكيين، ليس له مكان فيها.

صـ ٢٣٧. لم تجر الأمور على هذا النحو. فالسادات، الذى كان مستعدا لوقف إطلاق النار، لم يجد بدا من أن يطلب تقديم هذا الاقتراح من جانب الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية معا، آنذاك لفت السفير السوفيتى الانتباه إلى ضرورة إعداد الرأى العام المصرى لذلك. لم يكن باستطاعة الصحف المصرية أن تسيء إلى موقف الاتحاد السوفيتى (على الرغم من أنه اتضح فيما بعد أنه قد صدرت لها تعليمات أن تلتزم التواضع فى هذا الشأن). قد يأتى يوم رائع يعلم فيه المصريون أن الاتحاد السوفيتى قد انضم إلى الولايات المتحدة فى تقديم اقتراح وقف إطلاق النار. ولعل ذلك يزيل الغموض عن موقف الاتحاد السوفيتى، لأن أحدا لم يخبر المصريين بالثغرة التى أحدثها الإسرائيليون للعبور إلى الضفة الغربية للقناة!

وافق السادات على رأى السفير السوفيتى وقال إنه أصدر تعليماته إلى هيكل بإعداد مقال كبير فى هذا الصدد (كان على السادات أن يقتنع هو نفسه بذلك). فى واقع الأمر، فقد كتب هيكل مقالا ضافيا مدعما بالجداول وهو ما سبَّب للمصريين صدمة بطبيعة الحال. لقد رأوا أن مصر تقف الآن على شفا كارثة عسكرية، بدلا من الانتصار الذى تحدثوا عنه من قبل. وعلى هذه الخلفية بدا موقف الاتحاد السوفيتى منطقيا: فالاتحاد السوفيتى يتجه الآن نحو وقف إطلاق النار لإنقاذ مصر.

صـ ٢٣٨. من الأمور المميزة لهيكل إسقاطه لجوانب مهمة للغاية من وجهة نظر الحقائق التاريخية الثابتة؛ مثل كيف تم تنظيم وقف إطلاق النار، وكيف بدأ الأمر؟ يورد هيكل مقولة أحمد إسماعيل بعد الثغرة التى أحدثها الإسرائيليون، أن من المستحيل، على حد قوله، دفع وحدة عسكرية للقضاء عليها، يورد هيكل هذا الرأى الذى قاله إسماعيل للسادات "على انفراد" (المثير للفضول هو كيف عرف الكاتب بذلك؟) إن جوهر ما صرح به إسماعيل يبدو ملتبسا، فإما أنها صياغة مهذبة للاعتراف بالفشل العسكرى الذريع، وإما أنها إيحاء للسادات أن الظروف باتت مهيأة لتدخل الأمريكيين. لا أحد يعرف أيهما يقصد. ما الذى قاله وزير الحربية للسادات على انفراد؟ "قال إنه يتحدث الآن للتاريخ وبصفته مواطنا، وأنه إذا كان الرئيس يرى طريقا مفتوحا لوقف إطلاق النار على أساس شروط مقبولة، فإنه سيؤيد قراره" (!).

ينتقل هيكل بعد ذلك على الفور إلى عرض الرسالة التى بعث بها السادات إلى الأسد، مُسقطا نقطة مهمة للغاية — طلب السادات نفسه من الاتحاد السوفيتى الإعداد لوقف إطلاق النار على وجه السرعة.

فى الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، يوم العشرين من أكتوبر، طلب السادات حضور السفير السوفيتى لمقابلته فى قصر الطاهرة على وجه السرعة. وفى الساعة الثانية طلب منه، وكان يبدو عصبيا على نحو واضح، أن يبلغ موسكو طلبه العاجل لتقوم بالإعداد بسرعة لوقف إطلاق النار مع بقاء القوات الإسرائيلية فى تلك المواقع التى احتلتها على الضفة الغربية للقناة. كان هذا بالضبط ما طلبه السادات. ومن اللافت للانتباه، أن أحدا حتى الآن من المصريين، بما فيهم السادات نفسه بطبيعة الحال، لم يذكر أن السادات هو أول من طلب وقف إطلاق النار.

صـ ٢٣٩. فى رسالته للأسد يتحدث للأسد بكثير من المبالغة:("لقد كنت فى الجبهة المصرية خلال العشرة أيام الأخيرة، أقاتل الولايات المتحدة الأمريكية أيضا (!)، حيث إنها كانت ترسل السلاح لها (إسرائيل). وأقولها بصراحة إننى لا أستطيع أن أقاتل الولايات المتحدة الأمريكية أو أن أتحمل أمام التاريخ المسؤولية عن تدمير قواتنا المسلحة

للمرة الثانية")، وقد تضمنت الرسالة أيضا عددا من الألاعيب الفظة. نفهم من الرسالة، على سبيل المثال، أن الاتحاد السوفيتى يضمن، هو والولايات المتحدة الأمريكية، انسحاب القوات الإسرائيلية والدعوة لعقد مؤتمر السلام تحت إشراف الأمم المتحدة. نحن لم نقدم ضمانات، وإنما السادات هو الذى طلبها.

بالمناسبة، كان رد الأسد على السادات صحيحا تماما، وعموما، وكما كشفت الأحداث السابقة، فقد اتضح أن الأسد كان يتمتع ببعد نظر وأمانة فى علاقته بالاتحاد السوفيتى، خلافا للسادات.

الفصل الخامس. "حالة التأهب النووى"

صـ ٢٤٦. عندما سعى الاتحاد السوفيتى لكى لايشارك فى مؤتمر السلام، إلى جانب الأطراف المعنية بالصراع، سوى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية، لم يكن السبب هو الخوف من موقف جمهورية الصين الشعبية (فى حالة ما إذا شارك فى المؤتمر كل أعضاء مجلس الأمن) وإنما لسبب آخر. إن مشاركة الدول الإمبريالية الأخرى، مثل إنجلترا وفرنسا، كان من الممكن أن يؤدى إلى أن هذه الدول لم تكن لتقف فى اللحظات الصعبة والحاسمة للدفاع عن مصالح العرب، كما أنها لم تكن لتقف أيضا، بطبيعة الحال، إلى جانب الحركة العربية التقدمية. ولذلك ولصالح العرب، كان من الضرورى الاكتفاء بمشاركة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. بالنسبة للقوميين، مثل هيكل والسادات، كان من الواضح أنهما لا يدركان الفارق بين السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى والسياسة الخارجية للدول الرأسمالية.

يختلق الكاتب كثيرا من التلفيقات، وهو يصف الحديث الذى دار بين القيادة السوفيتية ونيكسون، وهى أمور لا تتفق إطلاقا مع الواقع، وبصفة خاصة عندما يزعم أن الاتحاد السوفيتى كان يدير مباحثاته مع الأمريكيين حول وقف عمل "الجسور الجوية" – السوفيتية إلى مصر والأمريكية إلى إسرائيل.

صـ ٢٤٨. لقد وصل الاستهتار بالسادات، أقولها بلطف، إلى حد أنه، بينما كانت الأسلحة الأمريكية الحديثة التى تسلمتها إسرائيل لتوها لاتزال تقتل المصريين، كان السادات يتحدث بتفاخر أنه يقاتل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، وفى هذا الوقت أرسل السادات دعوة إلى كيسينجر، من وراء ظهر الاتحاد السوفيتى، لزيارة القاهرة! وهى الحقيقة التى عُرفت فضلا عن الدعم السياسى الكامل، وكان يصرخ من نفاد الصبر والخوف، بينما ظل الإسرائيليون يواصلون تقدمهم فى مصر غير عابئين بقرار مجلس الأمن بشأن وقف إطلاق النار.

من الطريف أن هيكل فى هذه المرة يؤكد على الاتصالات المستمرة، التى راحت تساندها أجهزة المخابرات المصرية والأمريكية طوال فترة الأحداث العسكرية.

صـ ٢٥٠ . من المدهش جهل هيكل وعدم إحاطته علما بالحقائق المهمة للتاريخ، الذى أخذ على عاتقه كتابته! كتب هيكل يقول: إن أكبر عيب فى قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٩ أنه لم يطلب عودة القوات إلى المواقع التى كانت تحتلها فى الثانى والعشرين من أكتوبر! بينما كان البند الوحيد العملى فى هذا القرار هو تضمنه طلب عودة القوات إلى المواقع التى كانت تحتلها فى الثانى والعشرين من أكتوبر!! ففى هذا البند يتلخص مغزى هذا القرار، بل والمغزى الوحيد له. كان القرار مهمًا ومثّل انتصارا كبيرا للاتحاد السوفيتى. وربما كان ذلك تحديدا ما دفع هيكل لتحريفه، أما السادات فقد قرر أن يتنصل منه بعد أن صاغ فيما بعد "اتفاقا (مشوها) من ست نقاط" مع كيسينجر، بدلا من هذا القرار الذى تم إعداده على نحو جيد ومُحكَم، والذى تبين أنه لايلزم الإسرائيليين "بالفصل بين القوات".

وعلاوة على ذلك، فقد اخترع الكاتب أيضا حديثا دار بين السادات والسفير السوفيتى بخصوص موضوع وقف إطلاق النار.

صـ ٢٥١. تحريف جديد لهيكل لأحداث واقعية، ينفى هيكل عنها مغزاها السياسى الكبير. لقد طلب المصريون من الاتحاد السوفيتى إرسال قواته. نعم طلبوا، والذى طلب هو السادات نفسه. حيث إن الإسرائيليين لم يلتزموا بوقف إطلاق النار، واندفعوا إلى الأمام لكى يطوقوا الجيش الثالث المصرى والاستيلاء على مدينة السويس، بينما راح نيكسون

يؤكد للسادات والاتحاد السوفيتى، أنه بناء على المعلومات المتوافرة لدى الأمريكيين، فإن إسرائيل ملتزمة بوقف إطلاق النار. لقد توجه السادات إلى الاتحاد السوفيتى وإلى الولايات المتحدة بطلب إرسال قواتهما و، أو، مراقبين لإجبار إسرائيل بالقوة على وقف تقدمها، وعندما رفض الأمريكيون توجه السادات إلى الاتحاد السوفيتى عبر السفير السوفيتى وطلب من الاتحاد السوفيتى أن يرسل منفردا قواته. وقد كان لإعلان الاتحاد السوفيتى تحديدا استعداده لتلبية طلب السادات أثره فى دفع الأمريكيين "لحفظ ماء وجههم" ومن ثم إعلان "حالة التأهب النووى"، عندئذ أدركت إسرائيل ومعها الولايات المتحدة الأمريكية أن العبث مع الاتحاد السوفيتى أمر خطير، وهنا توقف الإسرائيليون. وللمرة الثانية فى تاريخ مصر الحديثة ينقذ الاتحاد السوفيتى بخطواته الحاسمة مصر من هزيمة كاملة.

صـ ٢٥١ - ٢٥٢. ما يكتبه هيكل حول إمكانية التقاط صور جوية كل ساعة تقريبا محض هراء. الأمر ببساطة أنه لا يعرف تقنية هذا الأمر.

صـ ٢٥٣. يكذب السادات على الأسد. ففى لحظة أصابه فيها الذعر ألحَّ السادات يومى ٢٥ و٢٦ أكتوبر على الاتحاد السوفيتى أن يرسل قواته و، أو، مراقبين. لقد طلب منًّا أن نوقف إسرائيل بالقوة. لكنه أراد أن يبدو أمام السوريين على صورة مختلفة.

صـ ٢٥٤ - ٢٥٥. يقول الكاتب إن حالة التأهب العسكرى من الدرجة الثالثة أعلنت فى صفوف القوات المسلحة الأمريكية بمبادرة من كيسينچر. وكان كيسينچر قد شرح للسفير السوفيتى لدى القاهرة الأمر على نحو مختلف حين قال: "لقد فقد نيكسون أعصابه".

يتسلل سوء الفهم إلى هيكل بخصوص جوهر الوفاق هنا أيضا، عندما يؤكد أن الاتحاد السوفيتى، على حد زعمه، كان ميَّالا لممارسة الضغط على أصدقائه، أى على العرب. إننا لم نمارس ضغطا على مصر، وإنما أنقذناها من الهزيمة! كان بإمكان هيكل أن يذكر ذلك أيضا.

صـ ٢٥٦. أعلى صور التلفيق عند الكاتب: اتضح أن إرسال السلاح عبر الجسور الجوية (من الاتحاد السوفيتى إلى مصر وسوريا، ومن الولايات المتحدة الأمريكية إلى

إسرائيل) كان على نحو متكافئ – "طن مقابل طن". هذا ما كتبه هيكل، فمن الذى قام بالحساب.

صـ ٢٥٨. لايخجل هيكل من ذكر العدد الهائل للدبابات التى تم تدميرها. لقد فعل ذلك بهدف المبالغة من أهمية "المعركة" – فما دامت الخسائر كبيرة فإن هذا يعنى أن المعركة كانت كبيرة. الأمر ليس إلزاميا إطلاقا. لقد دفع المصريون عددا كبيرا من الدبابات إلى ساحة القتال، ولم يحاولوا أن يسحبوا الدبابات التى خرجت من المعركة من منطقة النيران لإصلاحها، فكل دبابة كانت قيمتها تبلغ ٢٥٠ ألف روبل!

لم يكن الأمر يستحق أن يشتط الكاتب فى الحماس: "عندما اقترب الإسرائيليون، فإن المصريين ضربوهم بقوة، وعندما اقتربوا مرة أخرى، تلقوا مرة أخرى ضربة قوية". فى الواقع من الذى ضرب من، الإسرائيليون أم المصريون!

صـ ٢٦٠. فى النهاية نجد من جديد هذا الاعتراف الثمين لهيكل: منذ السابع من أكتوبر عرف المصريون أن الطريق إلى الممرات كان مفتوحا وأن بإمكانهم الاستيلاء عليها. لكنهم لم يتقدموا. لماذا؟

* * *

لاشك أن كتاب هيكل كتاب مهم، لكنه يحتوى على عدد كبير من الأخطاء، كما يفتقد الدقة فى ترتيب الوقائع، الأمر الذى يقلل من قيمته باعتباره وثيقة تاريخية. إن تقدير الكاتب للأحداث والظواهر يتوقف فى الكثير، بطبيعة الحال، على وجهة نظره. ولكنه يتوقف أيضا على معرفة الوقائع الحقيقية.

كان هيكل فى عهد ناصر يمتلك منفذا واسعا إلى وثائق الدولة، ومع ذلك كان هيكل يحرِّف الكثير منها فى مؤلفاته "لاعتبارات فكرية" (انظر على سبيل المثال إلى كتابه "وثائق القاهرة"[1]).

---

[1] Heikal, Mohamed. Nasser: The Cairo Documents. London, 1973.

يتضح لنا من كتاب هيكل أن السادات لم يسمح عمليا لهيكل بالوصول إلى الوثائق. ولهذا فإن هيكل يعتمد فى وصفه للعديد من الوقائع والأحداث وما تضمنته الرسائل على ما يعرضه عليه السادات، الذى كان يحرض هيكل بشكل مستمر ضد السوفيت، وكان يدس له حكايات للأحداث. وكان هيكل، دون خجل ودون مراجعة لهذه الحكايات، يضعها فى كتابه، ناسيا أنه يتعامل مع قضايا لا تمس دولة واحدة فحسب (مصر)، وإنما أيضا دولا أخرى، وخاصة الاتحاد السوفيتى. إن عدم جواز هذا التعامل المتحرر من القيود مع هذا النوع من القضايا، التى تُعد فى بعض الأحيان من أسرار الدولة، أمر بديهى.

وحتى على الرغم من التوجه المعادى للسوفيت عند إلقاء الضوء على بعض الحقائق، فإن حقيقة الدور النبيل والسياسة المستقيمة للاتحاد السوفيتى فى دعم حركة التحرر الوطنى ضد الدسائس الإمبريالية كان ينكشف عندئذ على أية حال. وعلى ما يبدو فإن هيكل لم تكن لديه الرغبة فى غالب الأحوال فى فضح الدور الخائن للرئيس السادات. ليس من قبيل الصدفة أن كتاب "الطريق إلى رمضان" محظور فى مصر، ولم يُسمح إلا بنشر بعض الفصول التى تمتدح موقف السادات وتسىء إلى دور الاتحاد السوفيتى.

موسكو، أغسطس ١٩٧٥

المؤلف فى سطور:

ڤلاديمير ميخايلوڤيتش ڤينوجرادوف:

وُلد فى ٢ أغسطس ١٩٢١ فى مدينة ڤينيتسا الأوكرانية. عمل منذ ١٦ يوليو ١٩٦٢ وحتى ٣ أبريل ١٩٦٧ سفيرا فوق العادة للاتحاد السوڤيتى لدى اليابان. تولى منصب وزير خارجية الاتحاد السوڤيتى لدى مصر من ٩ أكتوبر ١٩٧٠ وحتى ٤ أبريل ١٩٧٤. توفى فى ٢١ يونيو ١٩٩٧ فى موسكو.

كاتب المقدمة فى سطور:

ڤلاديمير ڤلاديميروڤيتش بيلياكوف:

وُلد فى موسكو فى عام ١٩٥٠، تخرج فى معهد موسكو للعلاقات الدولية. حاصل على درجة الدكتوراه فى العلوم التاريخية. عمل مراسلا لصحيفة "البرافدا" فى القاهرة منذ عام ١٩٨٦، ثم مراسلا لصحيفة "ترود" منذ عام ١٩٩٦. له عديد من المؤلفات عن مصر منها "مصر. دليل سياحى (القاهرة ١٩٩٦)"، "حديث صحفى مع فرعون" (موسكو ١٩٩٩)، "رحلة إلى ضفاف النيل المقدسة. الروس فى مصر" (موسكو ٢٠٠٣).

المترجم فى سطور:

أنور محمد إبراهيم

تخرج فى كلية الألسن قسم اللغة الروسية ١٩٧٠. وحصل على درجة الدكتوراه فى فقه اللغة والأدب من جامعة موسكو ١٩٨٣.

رئيس قطاع العلاقات الثقافية الخارجية الأسبق بوزارة الثقافة.

حصل على وسام الشرف من روسيا الاتحادية لجهوده فى دعم العلاقات الثقافية بين مصر وروسيا الاتحادية.

ترجم عن اللغة الروسية:

١–تطور الفكر الاجتماعى العربى من ١٩١٧ وحتى ١٩٤٧.

٢– العربية السعودية والغرب.

٣– تاريخ القرصنة فى العالم.

٤– الاستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين (بالاشتراك).

٥–نماذج من النقد الروسى الحديث.

٦–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر

٧– مسرح الفنان فى روسيا وألمانيا (جزآن)

٨– عمارة المسرح فى القرن العشرين.

٩– ذات يوم فى مصر (شهادات الخبراء العسكريين السوفيت)

١٠– الشرق والغرب صدام أم انسجام.

التصحيح اللغوى : محمود فتحى
الإشراف الفنى : حسن كامل

عمل الدبلوماسى السوڤيتى المعروف ڤلاديمير ميخايلوڤيتش ڤينوجرادوف (1921 - 1997) سفيرًا للاتحاد السوڤيتى لدى مصر فى الفترة من عام 1970 وإلى عام 1974. وهو يتناول فى هذا الكتاب الوضع فى مصر منذ أن تولى عمله فيها، ثم يقوم بتحليل تطور توجهات السياسة الخارجية لمصر ووقائع حرب أكتوبر 1973 منذ نشوبها وحتى نهايتها. كما يتناول أعمال مؤتمر چينيف للسلام فى الشرق الأوسط، ويحكى عن لقاءاته بالرئيس جمال عبد الناصر ومع خَلَفِه الرئيس أنور السادات.

الكتاب يمثل أهمية كبرى للمؤرخين والباحثين والمهتمين بتاريخ مصر الحديث.

تصميم الغلاف: نيرڤانا